

حياة المسيح

في التاريخ وكشوف العصر الحديث

طبعة منقحة ومزودة

تأليف

عباس محمود العقاد



المسؤول: حياة المسبح في التاريخ وكشوف العصر الحديث.

المؤلف: عباس محمود العقاد.

إشراف عام: داليا محمد إبراهيم.

تاريخ النشر: إبريل 2005م.

رقم الإيداع: 2003/ 20692

الترقيم الدولي: ISBN 977-14-2538-2

الإدارة العامة للنشر: 21 ش. أحمد عرابي - الهندسين - الجيزة
ت: 34466434 - 3472864 (02) فاكس: 3442576 (02) هـ: 21 إيلانة
البريد الإلكتروني لإدارة الخدمة كشر: publishing@nahdetnaiss.com

الطبع: 80 النسخة المتأخرية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8330287 (02) - 8330289 (02) - فاكس: 8330296 (02)
البريد الإلكتروني للطبع: press@nahdetnaiss.com

مركز التوزيع الرئيسي: 11 ش. كامل صدقي - الفيالة -
القاهرة - هـ: ب: 96 الفيالة - القاهرة.
ت: 5908827 (06) - 5908896 (01) - فاكس: 5903384 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم الجاني 08002236222
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: sales@nahdetnaiss.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 406 طريق الحرية (رشمدي)
ت: 5230509 (03)
مركز التوزيع بالقاهرة: 47 شارع عيد السلام - مارف
ت: 2259675 (050)

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetnaiss.com
موقع البيع على الإنترنت: www.enahda.com



احصل على أي من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / CD)
وتمتع بأفضل الأسعار عبر موقع البيع
www.enahda.com

جميع الحقوق محفوظة © لشركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع
لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

مقدمة

من رغباتى التى كنت أرددها فى نفسى كلما راجعت أسماء الكتب التى أترقب الفراغ لتأليفها - أن أدرس تاريخ الدعوة الدينية كما تجلت فى رسالات أكبر دعائها فى العالم الإنسانى: إبراهيم الخليل وأبنائه، والكليم، والمسيح، ومحمد عليهم السلام.

هذه الظاهرة الإلهية - دعوة النبوة - ظاهرة فريدة فى العالم الإنسانى لم تظهر بين الأمم فى غير السلالة السامية، ولا بد لها من سبب تكشف عنه دراسة النبوات فى هذه الأمم.

وسببها من جانبها التاريخى فيما ظهر لنا من المقارنة الطويلة بين الديانات، أن النبوات الكبيرة كانت ترتبط بمدن القوافل، لأنها بيئة وسطى بين الحضارة والبادية، وكذلك كانت أور، وبعليك، وبيت المقدس، ومكة، ويثرب، ومدين، ومحلات الطريق فى جنوب فلسطين وشمال الحجاز. وهى بيئات لا إلى حضارة المدن التى تعول فى تشريع الحقوق على نظام الدولة، ولا إلى بداوة الصحراء التى تعول فى تشريع الحقوق على سنة الثأر والغلبة، ولكنها - مدن القوافل - وسط بين الجانبين، مع حاجتها إلى تقرير الحقوق فى كل لحظة، لدوام المعاملات واشتباكها، ولكثرة الطارقين ذهاباً وإياباً، ممن يجدون المال، ويبحثون عن المتعة العارضة، ويحاول كل منهم أن يغلب صاحبه فى سوق الأخذ والعطاء، وحلبة الخداع والادعاء.

ولهذا تترقب مدن القوافل مصدراً للهداية غير مصدر الشريعة الحكومية، وغير مصدر النقمة والتغلب بين الغاصب والمغصوب والعدوى والمعتدى عليه، وذلك هو مصدر الهداية النبوية فى بيئة وسطى، تهيأت لها حماسة النفوس فى البادية، وشعور النفوس بقيمة العهد ورياط الأمانة فى كل علاقة واسعة، كالعلاقة التى ترتبط بالقوافل المترددة على مسافات بعيدة.

ومما وفقت إليه، مغتبطاً بهذا التوفيق، أننى اهتديت إلى حكمة هذه الظاهرة فى سيرة الخليل إبراهيم، وسيرة محمد والمسيح عليهم السلام، وكل هذه السير ظهر فى حينه، فظهر من استقبال العالم له، أنه لم يكن رغبة من رغباتى القوية

وحسب، بل كان على التعميم رغبة قوية لقراء العربية في مختلف الأراء والنحل، لا نحسبها برزت في استقبال كتاب حديث، كما برزت في استقبال هذه الكتب الثلاثة، مما ألقناه خلال السنوات الأخيرة.

وكان من الواجب أن تظهر هذه الطبعة من هذا الكتاب قبل الآن، لولا أن الفترة الأخيرة قد ازدحمت بالمؤلفات والكشوف الأثرية، التي تستمهل كل مؤرخ للسيد المسيح ولعصر الدعوة المسيحية، أملاً في الوقوف على جديد يضاف إلى تاريخ الداعي أو تاريخ الدعوة، أو توقعاً لتوكيد شيء من القديم يحتاج إلى توكيد أو إلى تعقيب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الشجرة المباركة

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ يُنْشِئُ الشَّجَرَةَ فِيهَا يُنْشِئُ الْفَاكِهَ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ تُوْرُ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

(سورة النور ٣٥)

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْثَرَهُمُ الزَّيْتُونُ وَالرَّيْحَانُ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلٌّ مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآوَاكُهُمْ يُوْحَصَوْنَ وَلَا يَسْرِفُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (سورة الأنعام ١٤١)

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ ﴾ (سورة النحل ١١، ١٠)

﴿ وَالزَّيْتُونَ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝ ﴾ (سورة التين ١-٣)

﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۝ أَنَا صَبَبْتُ الْمَاءَ صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَاهُ ۝ فَأَنْبَغْنَاهُ فَمِنْهُ حَبًّا ۝ وَنَبَاتًا ۝ وَزَيْتُونًا ۝ وَنَخْلًا ۝ وَحَدَادًا ۝ وَغُلًّا ۝ ﴾ (سورة عبس ٢٤-٣٠)

هذه هي الشجرة المباركة في التنزيل: شجرة الزيتون • شجرة البحر الخالد،
شجرة الحوض الذي نبتت عليه حضارة الإنسان ودارت حوله، ولا تزال تدور.
عالية تعلو خمس قامات وتزداد.

باقية تبقى خمسة قرون، ثم لا تصير إلى نفاذ.

كريمة تؤتي من ثمراتها ما تشتهيهِ الأنفس وتشتهي به طيب الطعام، سعيدة
تؤتي من عصيرها النور والطب ومسوح الإهاب وجبائر العظام، ومن خشبها
صور المحارب وأعواد المنابر، ومن ورقها أكاليل الأبطال وتحيات اليشائر،
وتتشابه بركتها على الأبطال الأقدمين فيتمسحون بطيها طلباً لقوة النفس وقوة
الجسد وهم يقبلون على الصراع ويتناضلون، وتشابه بركتها عليهم كرة أخرى
فهم يعلفون السلم، ويرفعون غصن الزيتون !

بوركت في وحى المعابد والضمائر، وبوركت في رموز القرائح والخواطر. فلم
يعرف الناس أمنية لا يرمزون لها بسماتها وأسمائها، ولم يذكروا نعمة لا
يذكرونها بنعمائها: رمزوا بها إلى الضياء، ورمزوا بها إلى السلام، ورمزوا بها
إلى الخير والرخاء، وتزودوا منها في البادية والحاضرة، وادخروها للدنيا
والآخرة، واتخذوها للمصاييح في محارب الصلابة والتسبيح، ورجعوا إليها
باسم من أقدم الأسماء، هو اسم «السيد المسيح».

لأمر ما نبتت في فلسطين، وانتشرت منها في منابت العالمين، وعلى نحو من
هذا وهبت مسحتها للرسول الأمين، فطافت رسالته حيث طافت، من عيين إلى
غايته من البلاغ المبين.

ولو لم تكن «المزيتونة» إلا أن هذا الاسم المبارك مردود إلى مسحتها وبركتها،
لاستحققت به الخلد المصون، خضراء على مدى السنين والقرون.

● الباب الأول ●

كشوف وادى القمران
وتفسيرات من فلسفة
التاريخ

فى وادى القمران

يقال فى بعض التعبيرات المجازية أن حادثاً من الحوادث وقع فى طالع هذا البرج أو ذاك من بروج الفلك المشهورة. فإذا جاز لنا أن نستعير هذا التعبير، قلنا إن السنوات القليلة قبل منتصف القرن العشرين كانت فترة يظللها فى أفق الثقافة الروحية برج البحوث والدراسات عن تاريخ السيد المسيح. فإن اللقائف المطوية التى كشفت منذ أوائل سنة ١٩٤٧، وما أعقبها من الشروح والمناقشات والردود، تتألف منها مكتبة عامرة بالموسوعات الدينية والتاريخية، وأمامى الساعة ثبت موجز مضموم إلى ذيل كتاب من هذه الكتب يستغرق خمس عشرة صفحة كبيرة، ليس فيه من شىء غير أسماء الكتب والرسائل التى ظهرت فى موضوع تلك اللقائف المكشوفة منذ سنة ١٩٤٧.... وهذا عدا الكتب والرسائل التى ألفها الباحثون عن السيد المسيح بمعزل عن هذا الموضوع، ممن لم يقصدها إلى التحقيق على تلك الكشف، ولم يربطوا بينها وبين ما بحثوه من سيرة السيد المسيح.

واتفق أن اللقائف كشفت، حيث لا تسمح الأحوال باستمرار البحث فيها والتنقيب عن بقاياها، فى مطلع سنة ١٩٤٧، لأنها كشفت بوادى القمران من شرق الأردن، وتفاقمت يومئذ مشكلة فلسطين، فحالت دون البحث الهادئ والتنقيب المأمون فى ذلك الجوار، ولم يتصل خبر تلك الكشف الهامة بشىء من التفصيل أو البيان المفهوم، إلا بعد استئناف البحث فيها والاشتغال بدراسة حوالى السنة التى ألفت فيها كتابى هذا وهى سنة ١٩٥٢.

فلما علمت بنبأ هذه اللقائف فى وادى القمران، توقفت عن إعادة طبع الكتاب قبل أن تنتهى لى فرصة كافية للاطلاع على مضامين اللقائف والاستفادة مما عسى أن تسفر عنه من دلائل التاريخ المجهول، وفيها، كما قيل يومئذ، كتاب كامل من العهد القديم، وتعليقات على كتب أخرى، ودفتر وافٍ بالوصايا والأوامر عن آداب السلوك، بين زمرة دينية تشبه الزمرة المسيحية الأولى فى الشعائر والعبادات.

ولم يكن هذا التوقف عن البت في الموضوع المرتهن بنتيجة الاطلاع على لفائف وادي القمران ليشتيني لزماً عن متابعة البحث في أسرار النبوة كما بدأت على عهد الخليل إبراهيم وعهد موسى الكليم. فإن البحث في هذه الأسرار على عهد الخليل، يبتدئ بنا من البداية الأولى، ويقترب بنا من مطالعها أو يبايعها التي تقدمت قبل جميع الينابيع، ودراسة النبوة على عهد موسى الكليم تفتتح عهداً من النبوءات بلغ فيها عدد الأنبياء المتلاحقين العشرات بل المئات، ولكن تاريخ موسى الكليم أيضاً قد يتصل من كتب بتاريخ اللفائف بوادي القمران، إذا كان منها، كما قيل، لفائف تتضمن كتباً من التوراة، وقطعاً من الكتب الخمسة المشهورة باسم الكتب الموسوية، وكان العثور على نسخ من هذه الكتب عند استئناف الكشف عنها أملاً يساور العلماء الحفرين واللاهوتيين، ففضلت من أجل هذا أن أرجئ الكتابة عن موسى عليه السلام مبتدئاً بالكتابة عن الخليل إبراهيم، وسميت كتابي عنه «بأبى الأنبياء» وانتهيت فعلاً من البحث في تفاصيله إلى تقرير العلاقة الحاسمة بين مدن القوافل والبيئة الصالحة لتلقي الرسالة النبوية، إذ كانت للخليل علاقات متتابعة بكل مدينة من مدن القوافل الكبرى في زمانه، وكان انتقاله من «أور» إلى جوار بعلبك وبيت المقدس ومدن الطريق بين سيناء والحجاز، سلسلة من الشواهد البارزة، تلفت النظر إلى هذه الحقيقة، وتجعلها على صورها المتقاربة أتم جلاء.

أما الموضوع الذي توقفت عن المضى فيه ريثما تستقصيني موارد الجديدة فقد كان يتوقف حوالى سنة ١٩٥٢ على مصادر ثلاثة: أهمها لفائف وادي القمران، ومنها تراجم العهدين القديم والجديد المنقحة في اللغات الغربية، ومنها سيل لم يكن ينقطع في تلك السنة من مؤلفات المفكرين الدينيين وغير الدينيين عن السيد المسيح من وجهة النظر العصرية بعد الحرب العالمية الثانية.

وقد كنا نقرأ في الصحف والنشرات أن لفائف وادي القمران تشتمل على نسخة كاملة من كتاب أشعيا، ونسخة مقروعة سليمة بعض السلامة من تفسير نبوءات حبقوق التي حققتها الحوادث التالية، وشذرات من تفسير كتاب ميخا، وقصة تسمى قصة الحرب بين أبناء النور وأبناء الظلام، وأناشيد منظومة للدعاء والصلاة، ونسخة أرامية من كتاب غير معتمد بين كتب التوراة، وقصاصات متفرقة من كتب شتى تلحق بكتب العهد القديم، ونسخة مفصلة لأداب السلوك المرعية بين جماعة النساك الذين أقاموا زمناً بصومعة وادي القمران، وكلها مودعة في جرار كبيرة يوجد الكثير منها في بعض الكهوف المجاورة، ويبدو من

أجل ذلك أنها قد تشتمل على ودائع من هذا القبيل، لا تقدر عند العلماء الحفريين وعلماء المقابلة بين الأديان وجمهرة اللاهوتيين على الإجمال.

ولو أن أحداً أراد أن يحيط بأطراف الكتب والرسائل التي تناولت مسائل البحث في تلك اللغائف خلال هذه السنوات الخمس، لما استوعبها جميعاً، ولو قرغ لها كل وقته، وحسب القارئ العربي أن يعلم أنها بحثت من كل ناحية تشترك في موضوعاتها الدينية أو اللغوية أو التاريخية أو الحفرية أو الكيماوية أو الصناعية، ولم تزل منها لغة من لغات الحضارة الغربية. فقد تناولت البحوث مسائل الهجاء وقواعد الكتابة، واختلاط اللهجات واللغات، ومواد الورق والجلد والمداد واللصق والتجفيف، كما تناولت أسماء الأعلام وما إليها من الألقاب والصفات وما يقتدرن بها من تواريخ الشعوب والقبائل، ومواقع الأرض وعوارض الجو والفلك وأصول العقائد وشعائر العبادات في كل فترة على حسب حظها من الأصالة أو الاستعارة، وعلى حسب المصطلحات التي تلازمها ولا تعهد في غيرها، واتسع نطاق البحث إلى غاية حدوده لتحقيق نماذج البناء، وصناعة الأنية الفخارية، وعادات الأكل والشراب، وأزياء النساء، ومواد الأطعمة، وثمرات النبات، وتراوحت تقديرات الزمن بين القرن الخامس قبل الميلاد والقرن الأول بعد الميلاد، ولم تستقر بعد كل هذا التوسع وكل هذا الإسعان والتدقيق على قرار وثيق.

ومن البديهي أننا لم نستوعب هذا الطوفان الزاخر من الفروض والنقائض، وعلى كل ما في هذه البحوث من مواضع المراجعة والعدل، ومواضع التشكيك والترجيح، بل نحن لم نشعر بضرورة الاستيعاب والاستقصاء كي نخلص منه إلى القول الجديد في تاريخ السيد المسيح، ولكننا عمدنا إلى نخبة من كتب الثقات التي ألفت برعوس المسائل، ولخصت محور الخلاف ومبلغه من الدلالة في كل مسألة منها، وخرجنا منها بالخلاصة المطلوبة فيما يعيننا، فكانت هذه الخلاصة أن الجديد في الأمر لا يزال من عمل السيد المسيح أو من فتوحه المبتكرة في عالم الروح، وأن كل مشابهة بينه عليه السلام، وبين مذاهب الدين قبل عصره، تنتهي عند الظواهر والأشكال، ولا تدل على فضل أسبق من فضله فيما ارتقت إليه عقائد الدين على يديه.

ولعل أرجح الأقوال التي خلصت إليها أكثر البحوث والمناقشات، أن نساك صومعة القميران كانوا زمرة من «الآسينيين» إحدى الطوائف المتشددة في

وعانيتها للأحكام السنية، وانتطرها لنخلص القريب بظهور المسيح الموعود، وهذه هي الطائفة التي ذكرناها في «عقريّة المسيح»، فقلنا عنها ما فحواه أنها أقرب الطوائف الإسرائيلية إلى التطهر من أدراخ المصامع وأشبهوات، وأنهم «كثروا ينتظمون في النحلة على ثلاث درجات..» وأن أحدهم يقسم مرة واحدة بين الأمانة والمحافظة على سر الجماعة، ويحرم عليه التقسم باحق أو بالباطل مدى الحياة، وليس بينهم رئاسة ولا سيادة... والمادة عندهم مصدر الشر كله، ولسرور بها سرور بالندس والحياة. وكانوا يتأخرون ويصطحبون اثنين اثنين في رحلاتهم. وهم مؤمنون بالقيامة والبعث ورسالة المسيح المخلص، معقدون أن الخلاص يمتد روحاني يهدي لشعب إلى حياة الاستقامة والصلاح. ثم قلنا عنهم في سياق الكلام على زمرة المنتطسين بمصر Therapists هؤلاء المنتطسين ربما كانوا أساتذة النفسات اليهود المسمين بالأسين أو الأسبيين على قول بعض المؤرخين، لأننا رجحنا أن الاسم مأخوذ من كلمة الأسى بمعنى الصديق وهي تعادل كلمة التيرابيين اليونانية بمعنى المنتطسين.

فإذا صح أن زمرة وأدى العمران كانت تسمى إلى لاسين، وصح أكثر من ذلك أن صومعتهم كانت هي البيرة التي كان يوبد بها السيد المسيح ويوحنا المعمدان. فالجديد في هذا الكشف هو تأكيد الحاجة إلى رسالة لسيد المسيح، أو تأكيد فضل الدعوة المسيحية في إصلاح عقائد لقوم كما وجدتها على أرقاها وأبغها من تناع النحل اليهودية قبل عصر الميلاد.

فالكتب الأسبسية أو الأسية التي وجدت في الصومعة تصف لنا نظم الجماعة وأدب سلوكها وشدة حرصها على لشعائر المروثة بين قوميها، ولكنها لا تزال مصابة بداء القوم الذي انتهى إلى عانة مداه في تلك الفترة، وهو داء الجمود على البصوص والحروف، والانبصراف عن حوفر لفائدة ولباب الإيمان، ولا تزال النحلة الأسبسية نفسها أدل على الحاجة إلى الإصلاح من النحل لمتهمه أو المحاطة بالشبهات، لأن النحلة المتهمة تجد إصلاحها عند الراشدين من أبناء الديانة القممة، وكل نحلة يهودية رائجة عن سوائها تصد من يقومها من لعارفين باسمقامتها في نطاق الديانة اليهودية، ولكن الحاجة إلى الإصلاح بما تثبت كل الثبوت إذا بلغت النحلة أرقى ما تسعه واستنفدت كل طاقتها تهدياً وتطهيراً وإحلاصاً وتذكيراً، ولم تزال بعد ذلك قصورها عن برويد الروح بما تتعطلش له وتفتقر إليه. وكذلك كانت النحلة الأسبسية التي كشفت عنها لفائف

وَأَدَّى الْقَمَرَانِ، أَدَّ كَانَ اسْمُهَا، وَأَبَّةٌ كَانَتْ وَجْهَهَا، فَإِنَّهَا لَمْ تَمُتْ لِرِسَالَةِ اسْمِ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ إِلَّا كَمَا يَمُتُّ الْمَرِيضُ لِلْعِلَاجِ أَوْ يَمُتُّ الدَّاءُ لِلدَّوَاءِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْفَائِظَ الْمَكْشُوفَةَ نَخِيرَةً بَدِيعَةً فِي بَاطِنِهَا، وَلَكِنَّهَا لَا تُضَيِّفُ إِلَى مَعْلُومَاتِنَا عَنْ حَقَائِقِ الرِّسَالَةِ الْمَسِيحِيَّةِ، وَلَا تَخْرِجُ شَيْءً جَدِيدًا فِي أَمْرِ هَذِهِ الرِّسَالَةِ، غَيْرَ أَنَّهَا تُوَكِّدُ لِمَا فَضَّلَهَا وَلَرُومَهَا فِي وَنْهٍ، فَكِلَاهُمَا يَكُنْ مِنْ غَرَضِ النِّصْحَةِ الْأَسْبِيبِيَّةِ، فَهِيَ فِي أَصُولِهَا وَمُرُوعِهَا بِقِيَّةٍ مُحَافِظَةٌ عَلَى بَرَاثِنِهَا مُتَشَدِّدَةٌ فِي مُحَافِظَتِهَا، نَظَرَةٌ إِلَى نَمْسِهَا حَتَّى فِي النُّطْلِ إِلَى الْغَدِ امْرُجُوا انْتِظَارًا لِلْمَخْلَصِ الْمَوْعُودِ عَلَى حَسَبِ التَّوَسُّعَاتِ الْعَصَائِرِ، وَلِهَذِهِ الْأَعْيُنُ الْوَبِييَّةُ أَمَّةٌ التَّشْيِيدِ فِي عِبَادَةِ الْمَرَامِ وَالنُّصُوصِ كُنْتُ الدَّعْوَةُ الْمَسِيحِيَّةَ رِسَالَةً لَازِمَةً يَلْعَمُ النَّاسُ مَا هُمْ فِي حَاجَةِ إِيَّائِهِ أَنْ يَنْعَمُوا كُلَّمَا عَرَفُوا فِي نَحْوِ رَاكِدِهِ مِنَ الْحُرُوفِ أَمِيْقَةٍ وَالْأَشْكَالِ الْمُنْحَجَرَةِ، تَعْلَمُهُمْ أَنَّ الْعَقِيدَةَ مَسْأَلَةً فِكْرَةً وَضَمِيرٌ لَا مَسْأَلَةَ حُرُوفٍ وَأَشْكَالٍ وَهَذِهِ هِيَ رِسَالَةُ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ الْمَوْجُودِ بِجَمْعِهِ وَبِرِيَانِهِ عَلَى اسْمِهَا، لِأَنَّ الرِّيَاءَ إِنَّمَا هُوَ فِي سَطِيحِهِ جَمُودٌ عَلَى وَجْهِهِ طَلَاءٌ.

تفسيرات من فلسفة التاريخ

وستطرد من تلمبص سبيحة للعائف المكشوفة إلى تلمبص سبيحة المناقشة -
أو المناقشات الطويلة - حول الترجمة لسبيحة في العهد الإنجيلي لكتابي العهد
القديم والعهد الجديد.

إبنا سمعنا بنياً هذه الترجمة المنقحة بعد سماعنا بنياً للعائف المكشوفة،
وكنا نحصر الضجة الكبرى حول فقرة واحدة في كتاب أشعيا في العهد
القديم، فاعتقدنا أن المشتغلين بتقحيح الترجمة رجعوا إلى نص حديد في العائف
وأدى القصران، لأن كتاب أشعيا هو الكتاب الكامل لدى أشعثات عليه تلك
العائف فيم شمتت عليه من الآثار المتفرقة. ولكننا تلقينا البيان اواقى عن
عمل المتقحيين، فلم نجد فيه ما يشير إلى علافه بين الكتوف الجديدة وبين تقحيح
الترجمة المتداولة من كتب العهد القديم على الخصوص، لأن الفقرة التي جاءت
في كتاب أشعيا وثارت حولها الضجة الكبرى بين أنصار التقحيح ومعارضيه لم
تفاجئ علماء اللاهوت برأى لم يعلموه من قبل، ولم يذهبوا فيه كل مذهب من
الطرفين المتقبيين.

ثارت انصجة حول فقرة في لإصحاح السابع مدرجمة في اللغة العربية
بالكلمات الانية «... يعطيكم السيد نفسه إية ها العذراء تحمر وتلد ابناً
وتدعو اسمه عمانوئيل».

فهذه الفقرة تظهر في الترجمة الإنجليزية المنقحة بعبارة «امرأة شابة» في
مقابلة كلمة «علامة» عبرية، وكلمة Parenthos «برشوس» هي لترجمة
السبعينية، ولا جديد أيضاً في هذا الخلاف لأنه خلاف لم ينقطع بين المذاهب
الثلاثة التي يدور بحثها على تفسير المقصود بنقولة السيدة مريم أم المسيح عليه
السلام فمن أصحاب المذاهب المسيحية من يفسرها بالنقولة الدائمة قبل ميلاد
المسيح ويعدده ومنهم من يقول بالنقولة قبل ميلاده. ثم ولادة إهوة له بعد ذلك
وربت الإشارة إليهم في كتب العهد الجديد، ومنهم من يرجع إلى البصوص
العبرية ولا يذكر كلمة النقول كما تقدم - وجواب القائلين بالنقولة الدائمة على
استشهادين يذكر إهوة السيد المسيح في كتب العهد الجديد أنهم أبناء عمومه

أو أنهم إخوة متساويون إلى يوسف خطيب السيدة مريم، إلى آخر ما ورد في هذا الخلاف القديم الجديد.

ولقد كان أمامنا تفصيل هذا الخلاف عند كتابة «حياة المسيح» فلم نعرض له، ولم نعرض لنبحث من البحوث في هذا الصدد، إلا ما كانت له صلة لا هناك بها برسالة السيد المسيح في عالم الهداية الروحية، ولهذا لم نذكر معنى كلمة «أخي الرب» التي شغفت باسم «جيمس» المقابل لاسم يعقوب في لترجمة العربية، وقلنا عنه إنه «جيمس قريب السيد المسيح».

وقد حطر لبعض الساعدين أن سميناها كذلك لأنها لم تصلح على الترجمة العربية لكتب العهد الجديد، وأنه لئن يستسهله من يستسهل النقد بمير روية، ويحسبه بعيداً كبعد المستحيل من نعم من قراءة «حياة المسيح» أنها على الأقل فتحنا كتب العهدين مائة مرة لنبعث فيها عما بحثناه، ونقل منها ما نقلناه... ما لأن تعرض لمناسبة التي نذكر فيها سبب تلك الإشارة على علائها، بون أن يبدى رأياً في تصحيح كلمة جيمس من كلمة يعقوب، وبون أن نقرر في الإشارة العبارة حكماً قاصلاً لا موضع له من هذه التفصيلات

وربما كان اتفاق الوقت بين ضجة الترجمة المنقحة، وضجة اللغات المستخرجة من ودي القمران، مع تكرار الكلام عن كتاب أشعيا في كتاب الصلوات هو الذي أوحى إلينا أن ينتظر ما وراء ضجة الترجمة كم أوحى إلينا أن ينتظر ما وراء ضجة اللغات المكتشفة، فقد يكون هناك من البصيرة والأساس ما يوجب إعادة اسطر في كتابه «حياة المسيح» ولولا هذا التقدير لما كان الخلاف على تفسير البتولة وحده موجباً للانتظار إلى ما بعد فراغ القول منه، إذ كانت أوجه الخلاف جميعاً في هذه المسألة معروفة من زمن قديم، وكانت من المسائل التي كان في وسعنا أن نتجنبها في مصانيرها قبل الكتابة عن السيد المسيح.

إلا أننا نسل الآن بعد خمس سنوات هل كان مما يربح الضمير أن نمضي في إصدار الكتب مرة أخرى قبل أن نطلع على الكتب الجديدة التي كانت تتعقد في اللغات الغربية كتاباً بعد كتاب عن السيد المسيح ورسائله، وبظراب المحدثين إلى هذه الرسالة في زمانها وهما أعقبه من الأرمنه.

إننا نهمها قبل خمس سنوات في إصدار الطبعة الحاضرة لأننا اعتقدنا أن تنقيح الترجمة قد يعود إلى أسباب توجب المراجعة وإعادة النظر، ولكننا سنأل اليوم ترى لو أننا علمنا يومئذ محور الضجة على الترجمة، وعلمنا أنها

موضوع محاد في قصصية معروفة - من كما يستحق من أجل ذلك بالهيص
المتفق من الكتب و لرسائل التي كتبها أصحابها في موضوع كموضوعنا، ومن
وجهه نظر بعين، أن كان شأنها من الموافقة، أو المخالفة لوجهه نظرا

بحسب أن اشتغالنا بالاصلاح على طائفة من تلك الكتب كان سبباً كافياً
لتعليق النظر على نصدر الكتب على الأقل مطمئنين إلى عاقبة هذه الأناة فإن
غير الاطلاع على الكتب الجديدة اراعنا في موضع من مواضع الكتاب فتلك
فائدة جديدة بالاسطر، وإن أطلعنا على الكتب الجديدة ولم تتغير نظرتنا فتلك
طمأنينة نحمدها، وما صيغنا شيئاً بهذه الأناة.

وأسر ما نقوله الآن عن الكتب الجديدة، أن الاطلاع عليها كان متعة من متع
القرن، برصينا قدرئين قبل أن ترضي مؤلفين، وقد كان فيها السمين والعت،
والمنعوق والمخلف، كما يكون في كل تأليف، ولكن خفاء أن نحمد خطبا ما
استوفياه منها، لأن العث منها كان من قبل المقروءات التي تنكشف عثاتها
للمتصفح بعد الإلام بسطور هنا وسطور هناك. وأما السمين منها فقد كان
كفياً في موضوعه، كما كان مكفئاً لما يفقه القارئ من الوقت والجهد فيه.

ونستطيع أن نسلك هذه الكتب القيمة في بابين واسعين. باب التأمل وما إليه
من النظر الفلسفي والخواطر الوجدانية، وباب النقد التاريخي والتحليل العمي
على قواعد المقابلة بين الأديان.

ويلد القارئ ولا ريب أن يعلم رأي الفسوف المصري في المقابلة بين تعاليم
المسيح وتعاليم نيتشه هي العصر الحاضر أو يعلم رأيه في المقابلة بين تعاليم
المسيح وتعاليم كارل ماركس وأصحابه الماديين، أو يعلم وجوه التشابه ووجوه
المناقضة بين خطة المسيح في الإصلاح لإنساني وخطط السياسة ودعاة
الاجتماع في القرون الحديثة، أو يعلم بلاغة الكلمات المسيحية حين تقترن
بكلمات السقاء من اصحاب الكلم الجامع والحكمة المشورة - هذه وأشباهها
هي مدار القول في كثير من تلك الكتب العصرية يتفق أحياناً أن تدل عناوينها
على اعراضها، ولكننا لا نعتقد أنها مما يقتضيها البحث في كتابنا هذا أن
تبسطها أو نطويها موحدين. - وقصاري ما يقوه عنها أنها أشبه بالصور
المتعددة لوجه الواحد هي ألوجات كثيرة، ليست محل تلخيص ولكنها محل
استزادة لمن شاء

أما الكتب التي نذكرها في باب النقد التاريخي والتحليل العمي ففيها حقاً
ما يهتم به الباحث في تاريخ الرسالة المسيحية ومنها - ولا مرا - بحوث

جديرة بطول التأمل وإنعم النظر وموجهة الموضوع كله هي نقطة الواسع من جميع جهاته، وليس هي استطاعة أحد أن يواحه هذا الأفق الواسع ما لم يكن على استعداد به بكل عتقه من المراجع والأسانيد.

ومن الإصالة على غير مدتل أن سرده هنا أسماء المؤلفات والمؤلفين في هذه البحوث النقدية. فبدأ بعد ما وقفنا عليه فيها - يرى أن القارئ لا يفوته شيء من جوهرها إذا اطلع منها على كتابين اثنين يحويان حملة المناقضات والأفويل التي مدعوى للقبول أو الرفض في هذه البحوث. وتسمى بها كتاب «الجانب الآخر من لقصة» تأليف روبرت فيرنو وكتاب⁽¹⁾ «إنجيل الناصري يعاد» تأليف روبرت جريفس وجوشيا برنو وكلا الكتابين مؤلف باللغة الإنجليزية.

وندع التلميحات الملفة التي تتخلل الكتابين. وينبغي أن نذكر بداية أنها تخمينات كثيرة، وأنها هي بعض الأحاديث تخمينات معتسفة يعترف المؤلفون باضطرابهم إليها لإتمام الحلقات المفقودة في السلسلة التي سبكوها من بقايا الأسانيد المختلفة منذ القرن الأول للميلاد ومن صنع حيالهم في مواضع النقص المعروضة في عجوات تلك الأسانيد، ولا ننسى أن أحد المؤلفين - روبرت جريفس - قصاص يعتمد على التصور الفني في التوفيق بين الاحتمال وتنسيق الملامح وملاحظة التماسك بين الروايات الشخصية وله قصة هي الموضوع نفسه سماها «عيسى الملك» يشرح فيها بالأسلوب الروائي مطرته التاريخية عن مسرة السيد المسيح، ويريد بها أن السيد المسيح قد شأ برعاية هيئة مصيبة كانت تعمل لتفعل لحلاص على يد الملك «المسيح» الذي يأتي من ذرية داود لإنقاذ شعب الله المختار، وأن يوحنا المعمدان هو الذي وكل إليه اختيار المسيح المنتظر على حسب العلامات المحفوظة في النبوءات، فأجباره وعنده وسيع «ملكاً» مسيحياً أي ممسوحاً بالربيع المقدس على سنة الملوك المختارين من الأقدمين، وأن زعماء الهيكل لم يكونوا جميعاً من المطيعين على سر هذه المصيبة التي جمعت بين يمين لإيمان ويمين الصاعه، وتولاها المشرفون على تنفيذها وهم حذرون من سلطان رومة ومن سلطان الهيكل في وقت واحد، ثم جرت الحوادث محرراً الذي نعلمه من

(1) The Otherside of the Story by Rupert Furneaux

(2) The Nazarene Gospel Restored by Graves and podra

الأناجيل مبرداً عليها هذا وهناك حلقات تربط الصلة بين التاريخ الظاهر والتاريخ العاطف كما جمعه الموقف من أسبديه ومن وحى خياله أو تنسيق فيه وتقدير ظنه وربما زاد الجانب المضاف هذا وهما على الجانب لأصيل.

نحن مدع هذه التخمينات وبجهد في حذفها كما اجتهد المؤلف الروائي في إضافتها، ولكننا لا نريد أن تعدلها حيث تترك الفراغ بعدها أدعى إلى الحيرة والتردد من الإثبات.

وصفوة ما يبقى بعد حذف هذه التخمينات أن الدعوة المسيحية بعد السيد المسيح كانت ترحع إلى مركزين، أحدهما برئاسة حيمس أي (يعقوب) لسمي بأخي الرب ومقره بيت المقدس، والثانية برئاسة بولس الرسول ومقره ومقرها خارج فلسطين بعيداً عن سلطان هبكل اليهود وقد كانت شعبة بيت المقدس أقرب إلى الحامطة والحرص على شعائر العهد القديم ملحوظة المكث في العام لمسيحي داخل فلسطين وحارجها من بلاد النوبة الرومانية، كما يظهر من وصاياتها وعن أحوية المسيحيين في الحارج عليها، وكلها وصايا تحت على رعاية الشعائر الإسرائيلية كما تقدمت في النبوءات

وظلت الرئاسة على العالم المسيحي معقودة لهذه الشعبة المنقسمة في بيت المقدس حتى هدم الهيكل ونقوصت مدينة بيت المقدس وسدت الجماعة في أصراف البلاد، والت قيادة الدعوة إلى الشعبة التي كانت تعمل في حارج فلسطين فكان ذلك أثر كبير في أسلوب الدعوة وفي اختيار وسائل الإقناع إذا اختلف الأسلوبان بين الخصاب لموجه إلى اليهود وحدهم، والخصاب الموجه إلى الأمميين لنافرين من اليهود، حينما كان الخلاص على يد فرد من بني إسرائيل لإيمانهم بربهم أمراً مفروغاً منه بين اليهود، كن العالم الخارجى بحاجة إلى صفات إلهية في الرسول المخلص يقبها الأمميون، ولا يتقيدون في قبولها بالشروط والعلامات التي يلتزمها المتشبهون بحرف الناموس، وقد كانت كتابة الأناجيل في وقت يوافق هدم الهيكل وفترة الشعبة المقيمة بيت المقدس، فرصحت فيها دلائل الدعوة كما تولاهم المبشرون بها في بلاد الأمميين، وعُتبت فيها الصفة الإلهية على ميرها من الصفات المسموعة في جدار الهيكل، قبل إلحاح الحاجة إلى تنويع الأناجيل وأن المؤلفين ليطيرون إصناج كبيراً في ترديد الكلمات لإنجيلية التي تدل على اعصام السيد المسيح بكتب التوراة، وتوصية التلاميذ باتباعها على سبه لفريسيين، وأشهر هذه الكلمات قوله لتلاميذ

والجموع كما جاء في الإصحاح الثالث والعشرين، من إحييل متى « به على كرسي موسى جلس الكتب والعريسيون، وكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وتعلموه، ولكن حسب أعمالهم لا تفعلوا، لأنهم يقولون ولا يفعلون »

ومن تلك الكلمات قوله كما جاء في الإصحاح الخامس « لا تطنوا أني جئت لأنقص الناموس أو الأنبياء، وما جئت لأنقص بل لأكمل، فإني ليقول أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل... ».

ومنها قوله كما جاء في الإصحاح العاشر « إني طريق أعم لا تمصوا، وإني مسنة السامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا بلصري إني خرف بيت إسرائيل لضالة ».

ومنها قوله كما جاء في الإصحاح الخامس عشر « لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل لضالة »، إني أقول أخرى تفهم من حضاميني، إن لم تفهم من يعطيها الصريح كما في هذه الأقوال..

رد وتعقيب

وعلمنا أن المؤلفين أصحاب هذه النظرية في غنى عن العناء والعنت في تأويل الكلمات أو لتعقيب عن لصحائف المطوية إذا كان قصاراهم أن يثبتوا أن الدعوة المسيحية امتدأت بتوجيه الخطاب إلى الأمة التي تدين بالبور ه وبسرقب ظهور المسيح المخلص من بين أبنائها وأنهم كذلك في غنى عن العناء والعنت إذا أرادوا أن يثبتوا أن القائمين بدعوة الأمم قد اتخذوا لهم أسلوب في الدعوة عبر الذي يتفهم عليه بنو إسرائيل الذين يقرأون الكتب ويعتقدون بما فيها من النعوت، وأن رسل الدعوة المسيحية إلى الأمم قد وصفوا السيد المسيح بصفات لم يتصف بها السيد المسيح في كلامه (الذي نقلته عنه الأنجيل).

كل أولئك لا حاجة بهم إلى العناء والعنت لاستقضا الأدلة عليه من مصامين الأقوال أو طوايا الصحف المنسية، ولكن هؤلاء المؤلفين أصحاب هذه النظريات يكفون براهينهم عتاً شديداً إذا حاولوا أن ينكروا أن دعوة الأمم قد بدأت في عهد اسيد المسيح، وأن التلاميذ والرسل تعموا منه أن يشتموا الأمم بدعونه، ولا يقصرونها آخر الأمر على بني إسرائيل. فلم تتواتر أخبار الأنجيل على شيء كما تواترت على هذه الأخبار في مواضعها وفي مناسباتها المعقولة، ولم تأت الأنجيل في هذه الأخبار إلا بالنتيجة الصريحة التي يعرضها سياق الحوادث، ويستلهم منها منطق الأشياء كما نقول في مصطلحات الحديثة. وما كان اسيد المسيح صانعاً بعد رفض انقوم بدعوته وإصرارهم على رفضها إلا أن يتجه برسائله إلى غيرهم، أو أن يكف عن هذه الرسائل ويعدل عنها بتاتاً، فيعدل عنها التلاميذ والرسل، ولا يتجهوا بها إلى الأمم ولا إلى إسرائيل ؟

ولا يعرفون المؤلفين أصحاب هذه النظرية أن الرسل الذين بشروا الأمم بالمسيحية هم الدعوة الذين احتملو أشد العذاب في سبيلها، وهم الذين صمدوا لها بعد أن تفوق دعة المسخنة في بيت المقدس ومن يفعل ذلك لابد أن يكون معتقداً لما يدعو إليه ولا يكون مبلغه من لعقيدة أنه يحتال لاجتذاب السامعين إليه بأسلوب غير الأسلوب المألوف عند بني إسرائيل... فكيفما كان مرجع هذه العقيدة فالرسل الذين أعلنوها بين الأمم قد صدقوها قبل أن

يدعوا الناس إلى تصديقها وقد اطمأنوا إليها قبل أن يروضوا الناس على
ابتغاء الطمأنينة فيها.

وبعد فنحن لا نستغرب لضحة التي أثارها المؤلفون بما استدعوه معتمدين
على أساسهم التاريخي أو على طريقتهم في تكملة التاريخ بتدقيق الصور
العينية من وحى القريحة أو من وحى الحدال. إلا أننا نعود إلى أنفسنا فلا نرى
أن هؤلاء المؤلفين قد طلعوا على رأى طارئ يدعونا إلى تعديل شئ، جوهرى
فى الصورة التي أوضحت أمامنا لرسالة السيد المسيح عندما استجمعنا
خواطرتنا ومعلوماتنا لتأليف هذا الكتاب، ويسرنا أننا نعيد اليوم فى طبعته
الثانية كما بدأناه فى طبعته الأولى بغير تعديل يذكر إلا ما كان من قبل
الطبعات والصحف... ويسرنا قبل ذلك أننا لقينا من قرأتنا عرفاً مشكوراً
نعتبط به، ويعتبط به كل من مارس التأليف فى هذا الموضوع الجليل على
الخصيص، ولا نعلم أن مذهبنا فى الكتابة عن «السيد المسيح» قد لقي من
أحد مستكراً يحسبه الكاتب أو القارئ فى حساب النقد المفهوم، وكل ما هالك
أن بعضهم ظن أن التأليف عن السيد المسيح يقتضى من أن ندين بالمسيحية أو
ندين بجميع مذاهبها فى وقت واحد، ولم يقل أحد أننا إذا كنا عن برهما وجب
أن نكون برهمين، أو كنا عن أدب الأمم وجب أن ننقل هيئهم من دين إلى
دين، ولو وجب ذلك على ناخذ لما كتبت تواريخ الأديان ولا تواريخ الدعوة إليها
من يتفقون فى الله الواحدة أو لا يتفقون. بل لو وجب ذلك لما كتب عن
الشرق إلا المشرق، ولا كتب عن أوربة إلا الأوربيين، ولا كتب عن الماصى إلا
من كان فيه، ولا عن المستقبل إلا مولود من نبيه، ولا وجوب لشرط من هذه
الشروط المفروضة فى حكم من أحكام النقد المفهوم.

وإنصافاً لكثرة القراء العالمة، نقول إنهم من الوفرة بحيث تحسب هذه القلة
إلى جانبها بحساب النسبة إلى الألف، لأنها أندر من أن نحسب النسبة إلى
المائة، وأبب تصادفها على نسبة متفاوتة فى شعب شتى من المطالعات
التاريخية اللبية، فربما كتب عن الحلفاء الراشدين كلاماً لم يعجب أفراداً من
الشيعة، أو كنا عن معاوية بن أبى سفيان كلاماً لم يعجب أفراداً من غيرها،
ولكن العبرة من وراء هؤلاء بقراء الذين يقرأون ما يوافقهم وما يخالفهم ولا
يرضونهم من الكاتب أن يعطيهم نسخة مكررة مما فى ضمائرهم وخواطرهم،
وبين أيدي هؤلاء القراء قدما الطبعة الأولى من هذا الكتاب، وبقدم الآن طبعته
الثانية على بركة الله.

● الباب الثاني ●

المسيح في التاريخ

المسيح

يدل علم المقارنة بين الأديان على شيوع الإيمان بالخلاص وظهور الرسول المخلص في زمن مقبل، وظهر على عقائد القبائل الحمر في القارة الأمريكية أن القبائل التي تؤمن بهذه العقيدة غير قليلة في الأمريكيتين، وليس في هذا عجب لأن لرحاء في الخير أصل من أصول الديانة، والأمل في الإصلاح مآله من مواد الحياة الإنسانية ينشأ الخلق في ضمير حله، ويصح لهم بها سبيل الاجتهاد في طلب الكمال والخلاص من العيوب

وقد شدد هذا الأمل حين شدد الحاجة إليه، فكان المصريون الأوائل يترقبون «المخلص» المنفذ بعد روال الدولة القديمة، وروى برستيد عن الحكيم إيبور (Ipuwer) أن المخلص لم يولد «يلقى برذاً على لهيب ويتكفل برعاية جميع الناس ويقضي يومه وهو يمس شمل قطعاته» .

وقد كان لسائليون يؤمنون بعويدة «مردح» إبي الأرض فترة بعد فترة لقمع الفتنة ونظهيرها من الفساد، وكان المحوس يؤمنون بظهور رسول من إله النور كل ألف سنة يبعث في جسد إنسان، وقبل إبه هو زرادشت رسول المحوسية الأكبر الذي يرجعون إلهه بتفصيل الاعتقاد في إله النور وإله السلام، وقد تحلقت هذه العقيدة إلى ما بعد اليهودية والمسيحية والإسلام، وأشار إليها لجاظ وهو يتكلم عن «ستاده إبراهيم بن سيار النظم حيث قال «إن السلف زعموا أن كل ألف عام يظهر رجل لا نظير له، فإذا صدق هذا لرعم كان لسطام للآلاف عام هذه» .

أما الإيمان بظهور رسول إلهي يسمى «المسيح» خاصة، فلم يعرف بهذه الصيغة قبل كتب التوراة وتفسيراتها أو لتعريفات عليها، في التلمود والهجاء وما إليها.

ومرجع التسمية نفسها إلى المشعشع التي وردت في سفر استكوين وسفر الخروج وما يليهما من أسفار الأنبياء، فإن المسيح بالربيت المبارك شعيرة من

(١) صفحة ٧٩ من كتاب «نور من الشرق للقديم» مؤلفه جاك فريجان

شعائر النقيس و لكرم، وأول ما ورد في الإصحاح الثامن والعشرين من سفر التكوين، حيث روى عن يعقوب أنه «كر في الصباح وأحد لخصر الذي وضعه تحت رأسه وأقامه عموداً وصب زيتاً على رأسه ودعا ذلك المكان بيت إبي - أي بيت الله».

وجاء في الإصحاح الثلاثين من سفر الخروج أن «الرب كلم موسى قائلاً ... وأنت تأخذ أقصر الأصاب . ذهباً مقدساً لمسحة . وبمسح به خيمة الاجتماع وثبوت الشهادة والمائدة وتقدسها فتكون قدس أقداً، وكل ما مسها يكون مقدساً . وبمسح هارون وبنيه وتقدسهم .»

وكان الأقباط والأبباء يسمون من أحل هذا مسحاء الله، وتنتهي لتوراة عن المساس بهم كما جاء في الإصحاح السادس عشر من سفر لايم «لاتمسوا مسحاتي ولا تؤذوا أنبيائي».

وكن مسح الملوك أول شعائر التتويج، ولما بيع فكان شاعول ودود من هؤلاء المسحاء.

ثم أطلقت كلمة «لمسيح» مجازاً على كل مختار منور، فسمى كورش الفارسي «مسيحاً» كما جاء في الإصحاح الخامس والأربعين من سفر أشعيا لأن الله أخذ بيده لإهلاك أعداء الإسرئيلين وإقامة بناء الهيكل من جديد، وسمى الشعب كله مسيحاً كما جاء في المزامير وكتاب السبي خنقوقي، ومنه «خرجت لخلاص شعبك خلاص مسيحك» بمعنى الشعب المختار.

وتكررت في كتب «العهاد» أو كتب التعاليم الإشارة إلى الرسول المنتظر باسم المسيح، فترة يطلق هذا الاسم على يوسف، وبارقة على موسى عليهم السلام، ولا يزال المؤمنون بالرسالة المسيحية من طوائف اليهود ينتظرون مسيحاً في صورة رسول هادي أو صورة شعب مبرور، لأنهم لا يدينون برسالة عيسى ابن مريم عليهما السلام.

وقد كان الإيمان بانتظار المسيح على أشده بعد زوال مملكة داود وهم الهيكل الأول، فريد الشعب الإسرائيلي وعود أنبيائه بعودة الملك إلى أمير من ذرية داود نفسه تخضع له الملوك ومدن الأمم لسلطات، ثم ترفى الإيمان «بالمسيح» بمعنى الملك إلى الإيمان بالمسيح بمعنى المختار أو المختار للهدية ولصلاح، وبلغ هذا التحول عايته في بعض النسخات ومنها ندوة أشعيا النبي امتأرت بتكرار هذه الوعود، فمن وصف القوة ولطش والصولة والصولحان،

إلى وصف الدعة والتضحية والصبر على المكره في سبيل التحذير والتبشير وقد جاء في الإصحاح الثالث والخمسين من صفات الرسول المنتظر أنه «محتقر ومعدون من الناس ورجل أوجاع وأحزان». وجاء في الإصحاح التاسع من سفر زكريا أنه «عادل ومنصور وديع يركب على حمار آمن آمن...» وانتهت أقوال كثيرة على أنه نأى مسبقاً براند يعلى مجبته، وهو النسي إيليا (إلياس) منبعثاً من الأموات.

وقد كان هذا الارتقاء في فهم الرسالة المسيحية يصاحب أطوار الشعب الإسرائيلي في تاريخه المتعاقب، فيقوى الرجاء في المسيح المنتكف ضعفت السلوة للسيطرة على فلسطين، وهناك حطت الثورة عليها، وتعاطف الأمل في استقلال رعاياها، ويعود الرجاء إلى «المسيح الهادي» كلما استحكمت سلطان العالين وبدن الأمل في الخروج عليهم بقوة السلاح بعيد عسير، وهكذا تروح تفسير الرسالة المنطرة بين رخصة الدولة وبصته الهدية على حسب أطوار التاريخ، فلما نخب فلسطين في حوزة الدولة الرومانية سنة خمس وسدين قبل الميلاد، وأخذ الأمل في قيام الدولة يصاعل ويحلف الأمل المتابع في انتظار الرسول المخلص ولعته الروحانية، افترس هذا الحول بظاهرين تصطليحاً حيث وبصران من تنافضان جملة أحيان، فعمم سيسان الهيكل وكهنة حين تحول السطنان القومى كله إليهم وأصبح هذا السطرن ملاذ المتصلين إلى كل رئاسة قومية يصمد للدولة الأجنبية، ومن الساجية لأخرى جبت انصمار المتعطينة إلى اليقظة الروحية جنوحاً منبراً على تقديم مؤت بانتظار اسحت من عبر حنتب «الهيكل» ويقاياها وما حمم عيبه مع الرمن من الموروثات والمائورات.

قلما بلغ الكتاب أجه وحتت ابحتة المرقوبة كان المعسكران متقابلين منحفرين على استعداد.

النبوّة بين ملى اسرائيل

من تمام العلم باستعداد عصر الميلاد لدعوات النبوّة أن نلّم بأحوال لنبوّة هى الشعب الإسرائيلى منذ تكاثر عدده وتنوعت أعمال الرئاسة والتعليم بين قريّته وساطته، فمن أحوال النبوّة فى ذلك الشعب لم تكن على البصيرة التى تسبق إلى حواطرت من البصر فى توارىخ كبرى الأنبياء، وبوريج أفتريات التى مضت بين عهودهم فى الأمم المتعددة.

فنحن اليوم نستهل دعوة النبوّة ونعلم عن يقين أن الذى يقدم على ادعاء النبوّة فى عصرنا هذا يقدم على خارقة مستعربة، ويعرض نفسه لانتهاك المتدينين قبل المكرس والملحدين، لأن ألتاع، لأديان يؤمنون بختام البويات أو يؤمنون بأن النفس البعيدة ستقص عقائدهم، ويرغم لنفسه أن يعلمهم ما لم يعلموه من كتبهم وأحوال أنسانهم، أما المكرون والملحدون فهم لا يقبلون دعوى النبوّة فى هذا العصر ولا فى غيره من العصور.

ونحن اليوم نعلم أن الفسره بين إبراهيم وموسى، وبين موسى وعيسى، وبين عيسى ومحمد صلوات الله عليهم قد طالت حتى حسبت بمدت لسنين، ففى اعتقادنا على الدوام أن ظهور الأنبياء حادث حل لا يتكرر فى كل حل ولا يراه لإنسان فى عمره مرتين.

ونحن اليوم نعلم من توارىخ كبرى الانبياء أنهم أقدموا على مصعب تخيف المقدمين عليهم، وشقوا بدعوتهم طرقاً لا يسهل تذليلها لأنهم حطوا الهة وسفوها أحلاماً وغيروا العقائد التى درجت عليها الأمم عصوراً بعد عصور، وأقاموا عليها سلطان دوى السلطان كما أقاموا عليها شرائع الحاكمين والحكومين كذلك صنع محمد، وكذلك صنع موسى عليهما السلام، فمن دوى الهداية إلى دعوة على هد لنحو فهو معرض للعنون والبعضاء، مقتحم على الناس طريقاً لا يقبلون اقتحامه من أحد، ولا يرون أحداً يقتحمه عليهم إلا اعتوه، وأقاموا له العرافيل.

أما أحوال النبوّة فى بى إسرائيل فينبغى أن نتصورها على غير هذا النحو لأنها تخافه من جملة وجوه.

فأول ما هنالك من لفورق أن الأنبياء في بني إسرائيل لم يكن وجودهم ندرة، ولم يكن سيهم فترة، أو لم يكن حتماً لزاماً أن تكون بينهم فترة، فقد يوجد منهم في العصر الواحد أربع مئة نبي كما جاء في سفر الملوك الأول حيث جمع ملك إسرائيل الأنبياء نحو أربع مئة رجل وسألهم أن يذهب نبي رامة جندد للقتال؟»

وخبر ف ورد في وصف مكان الأنبياء بن بني إسرائيل قول النبي (محمد) صلوات الله عليه «علماء أمي كانبيا بني إسرائيل».

فقد كان عمل النبي في شعب إسرائيل كعمل العالم الفقيه في الأمة الإسلامية، ولم يكن من المستغرب أن يسمع بهم لخاصة أو العمة في وقت من الأوقات، ولم يكن قدامهم إكباراً لتمام الأنبياء من قبلهم، بل هو تفسير للكتب والنذر وحسن على اتباع أسس التي رسمها لهم من قبل إبراهيم وموسى ويعقوب وغيرهم من الأنبياء السابقين، بل كانوا يعلمون من كتب العهد القديم أن له وعد إسرائيل «أن يقيم أسياء مثله ويجعل كلامه في أفواههم (١٨ تثنية) و من بعض هؤلاء الأنبياء قد يتحدث إلى الناس بكلام غير كلام الوحي فعليهم أن يسدوه». «وإن قلت في قلبك كيف تعرف الكلام فإني لم يتكلم به الرب فاعلم أن ما يتكلم به النبي باسم الرب ولم يحدث ولم يصير هذا كلام لم يتكلم به الرب.. فلا تخف منه»

بل يجوز أيضاً أن تصدق الأقوال والعلامات ولا يجوز للشعب أن يستمع إلى وصايا الأنبياء إذا دعوه إلى عبادة رب غير إله إسرائيل.. فبدا قام في وسطك نبي أو صاحب رؤيا وأعطان نية أو أعجوبة، فلا تسمع لكلام ذلك النبي أو صاحب الرؤيا بل دعاك إلى عبادة إلهة أخرى ثم يعرفها ويعبدها ولو صدقت الأعجوبة أو لاية.. (١٢ تثنية)

ويم تكن النسوة يأتين من دوى السلطان أمراء كانوا أو كهات أو شيوخاً مطعنين في القبيلة، بل يمتلكن بقى الإنسان بالإبقاء إلهة فمضى في تبغ وحب ولا تقوى أحداً على كف سبانه كما قال أرميا «قد أقنعني برب فأقنعت وألححت على فعبت. صرت أضحوكة وهرأة. وكلمه برب جللتي بالعار والسخرية.. فقلت لا أدكره ولا أنطق باسمه بعد، فكان في قلبي كنه نار محرقة محصورة في عظامي، فلم تكن لي صفة بالسكوت» (٢٠ أرميا)

وكثيراً ما كان النبي يمشي على زملائه في عصره ويحالفهم في تعسير اندر من ربه، كما في أرميا «من بعد أنبياء أورشليم خرج نفاو إلى الأرض كلها.. فلا يسمعون كلام الأنبياء الذين يمشون لكم فإيهم يطمنون عملكم ويتكلمون برؤي قلوبهم».

أو كم قال ميخا لك إسرائيل. «هو ذا الرب قد جعل الروح كذلك في أقواه
جميع أنبيائك هؤلاء»

قال هذا فتصدى له صدقيا بن كنعانة «وصرب ميخا على اهك وقال له من
أبى عن روح الرب منى ليكلحك».

وكان المعهود في الأنبياء كما روت كتب التوراة أن يطلب أنبياء إسرائيل حالة
الكشف كما يطلبها المتصوفون والنسب فيما علمناه من أخبارهم المتواترة.
فمنهم من يصوم وينهجد ويمسك عن فصول العيش ويلتمس المنارة ولأنهار كما
قال دسل «لم اكل طعاماً شهياً ولم يدخل في قمى لحم ولا حمر ولم أدهن حتى
تنت ثلاثة أسابيع، وفي اليوم الرابع والعشرين من شهر الأول إذ كنت إلى
جانب النهر العظيم بجلة رفعت عيني وبضرت»

بل منهم من كان يستعين بالسماح ليشرح بصفااء الروح ويستلهم الغيب كما
جاء في سفر صمويل الأول. «إليك تصادف زمرة من الأنبياء يهبطون من الأكمة
أمامهم رباب وبف وبأى وعود وهم يتبأون فيسجل عليل روح الرب» (٩
صمويل أول).

أو كم جاء في سفر الملوك الثاني «عقال النشع حتى رب الجنود.. الان
هتوني بعود قلما ضرب العواد بالعود كانت عليه يد الرب».

ولكن الأغلب مع هذا أنهم كانوا يرتلون الخلوب ويفطعون في جوانب
الأنهار «عند نهر حابور أصبحت فرأيت رؤى الله» (حزقيال).

ولا نسمع عندهم أن بلهم لله بالرويا الصالحة أو الدليل الذى ينشأ من غير
الأنبياء ومن غير شعب إسرائيل كما ألهم أنبياءك ولعام، ولكنهم بلهمون
ليعرفوا بأنفسهم حق الأنبياء والمرسلين.

وكن أعالي على سامعى النبوءات أن يطلبوا اية يعظمون بها أن المتكلم بنطق
بوحى من الله ولكن طلب الآلة لم يكن عندهم دليلاً على اليقين والإيمان، وربما
أذن للنبي أن يطلب الآلة ويمعن في طيها هنرى من الأدب إلا يجرب ربه بدليل
هذه الآيات (٧ أشعيا).

على أنهم كانوا يلجأون إلى الأنبياء يستشيرونهم قبل الحرب أو الرحلة
أو لإقامة لعلمهم أنهم أقرب إلى الله وأبشئ أن يطلعوا على لعب المحجوب عن
أنصار الديويين المتعمسين في هموم الحياة، ومن هؤلاء لأنبياء من كان يستمع

الروحى صوتاً عالياً، ومن كان يحسه إلهاماً أو هدفة أو رؤيا صالحة، وعابياً ما كانوا يقصرون رسالتهم على التنذير بالعقاب كلما خرج لشعب عن الأقدمين وانحرف عن سواء العبادة كما تلقاها أبائهم من الأنبياء السابقين، فلم تكن نبوة اقتحاماً ولا ندعة مستغربة ولم يكن فيها خطر على النبى إلا حين ينصدى للملوك والأمراء، فيأخذ عليهم مخالفة الشريعة أو مخالفة المأثور عن السلف ومن هؤلاء الملوك والأمراء من كان يعتمد إلى التكييل بالنسى فى هذه الحانة ليثبت للناس كسبه وأنه لم يأت من عند الله، إذ كان موت النبى الكاذب إحدى العلامات على بطلان دعواه

ولعلنا نصف لحالة حق وصفها حين نقول إن أهوم كانوا يبحثون عن الأنبياء، ومنقبوبهم ولا يعبرون ظهورهم حارقة يستهلونها أو يستعربون تكرارها، وأن الإنسان النهيى للنبوة كان يخشى أن يسكت عن الدعوة متى جاشت ضمائره بحوقلها وألحت عليه أياماً بعد أيام، حتى يصبح السكوت فى حكم سربرته عصيانياً لأمر الله ونكولاً عن إرادته، ومتى استقر فى سربرته أن طلب الآلة تحرية لله وضعف فى الإيمان فأنسلم الأمور عبده حيث مجش نفسه بروح الله أن ينذر وبشر، وعنى الله بعد ذلك أن يثبت نبوته وأن يهديه ويهذى الناس إليه كما يشاء.

وفى عصر الميلاد، ذلك العصر لدى برقت فيه النفوس بشائر الدعوة الإلهية من كل جانب كما يبرقب، الراصدون كوكباً حار موعداً طلوعه - لاحرم تتفتح الأذان لصوت المبشر الموعود، ولا جرم كذلك أن يكون البرهان المطلوب منه على قدر الرجاء فى الخير المنتظر، وأن يمتحنه الناس فيعبروا غاية العسر فى امتحانه، خوفاً من سهولة الدعوى على الأدعياء، وخوفاً من بطلان الرجاء فى إبان اللفظة على الرجاء، فهو رجاء عظيم يعلقه المرحون على برهان عظيم.

الطوائف اليهودية

في عصر الميلاد

كان العالم اليهودي في العصر الذي ولد فيه لمسيح المسيح يشتمل على طوائف مختلفة، لكل منها مذهب في انظار المسيح المخلص الموعود. والتعريف بهذه الطوائف ضروري لتقرير مكان العقيدة الجديدة بين العقائد التي سبقتها في بيتا بنى إسرائيل.

وضروري من جهة أخرى لأنه - فيما نرى - أقوى دليل يرد به على الباقدين المحدثين الذين ظهروا منذ القرن الثامن عشر وجمحت بهم شهوة النفذ والتشكيك حتى جازوا الشك في لصوص وروايات إلى الشك في وجود السيد المسيح نفسه، كأنه في زعمهم شخصية من شخصيات الأساطير. وتنسقط دعوى هؤلاء المناقدين بمجرد الإحاطة بأصول المذاهب التي كانت معروفة في عصر الميلاد، لأن الدعوة المسيحية كانت تعديلاً لكل مذهب من هذه المذاهب في ناحية من نواحيه، وكانت هذه التعديلات في جملتها بثوب إلى وحده متماسكة من الفوائد والمثل العليا، لا بد لها من «شخصية» مستقلة عن هذه المذهب جيب، قدرة على عرض شعائرها وعقائدها على محك واحد متنسق الفكر والإيمان.

ونكتفي من الطوائف الدينية التي كانت معروفة في عصر الميلاد بخمس منها، وهي طوائف الصدوقيين والعريسيين والأسين والعلاة والسامريين، وكل طائفة من هذه الطوائف الخمس مهمة في تاريخ العصر بمزية من المزايا التي تتوقف عليها قوة المذاهب الدينية.

فالصدوقيون هم في دعواهم أتباع «صدوق» وأسرته الذين توارثت الروايات بأنهم كانوا يتولون الكهانة في عهد داود وسليمان.

وكانت طائفتهم مهمة بمرکز أصحابها، لأنهم على الجملة أنصار المحافظة والاستقرار وأصحاب الوجهة والثراء.

وقد كانوا متشدين في إكار المدح والتفسيرات، متشبهين بالقديم يؤيدون سلطان الهيكل والكهان، ويقبلون أقدم الكتب التي احتوتها لتوراة وهي كتب

موسى عليه السلام، ويرفضون ما عداها ولا سيما المثورات المنقولة
بالسمع

وتدعوهم المحافظة على النظام ثقتهم إلى مسئلك يناقض عقيدتهم فسمما هو
ظاهر من لوازمها فقد كانوا أقرب اليهود إلى الأخذ بالحصارة البوبائية
وعادات المعيشة في اميئات الرومانية، ومنهم من كان يدين ببعض المذاهب
الفلسفية كمدفب أبيقور كما كان مفهومأ في ذلك لعصر، وقد كان الشائع عنه
يومئذ أنه منهب الندة الحسية والمتعة بالترف والنعيم، ولكنهم في الواقع لا
يناقضون سنتهم وسنة أمثالهم في كل زمن، فبينهم يحفظون على نظم المجتمع
لأنهم أصحاب اليد الصرلى عليه، ولهذا يحبون مناعه ونعمه ويوقون بينهم وبين
أصحاب السلطان السماسى، وقد كانوا يومئذ من البوماء والرومان، ويملى لهم
فى هذه لمرعة أنهم يؤمنون بأن الكتب اليهودية الأولى لا تذكر البعث ولا اليوم
الأخر ولا تعد الصالحين حياة بعد هذه لحياة، خلافاً للطوائف الأخرى التى
تؤمن بالبعث والحساب.

وقد كنت الحمله على السيد المسيح بقيادة ثنين من كبار الكهنة لصدوقيين،
وهب «حننيا» و «قياما» . ولم يكن فى ذلك عجب لأن الصدوقيين جميعاً
يحفظون على سلطان الهيكل، ويحافظون على النظام ابقنم أو لا يستريحون
إلى الثورة والانعلااب.

وخلصه لأداب الصدوقية أنهم حرفيون فى مسائل الدين، متوسعون فى
مسائل المعيشة، ونهم يعاشرون الأحباب ولا يعتزلونهم كسائر أبناء قومهم لأن
أعمالهم ومر كرمهم منصلة بنوى السلطان.

وتقبل الصدوقيين طائفة أخرى هى طائفة الفريسيين، وهى أقوى من الطائفة
الصدوقية بكثرة العدد وشعوع المبادئ والآراء، وحسن السمععه بين سواد
الشعب وعية لقوم الدين لا يحالطون الأجانب، وإن لم يكن بين أفرادها كثيرون
فى مرتبة الرؤساء والرجاء.

واسم الفريسيين مأخوذ من كلمة عبرانية تقرب كلمة «الفرد» العربية على
لفظها ومعناها، فهم انفراديون أو المتميزون، وخصومهم يصفون عليهم هذا
الاسم تهكماً وتحقيراً لاعتقادهم أنهم فرزوا أنفسهم عن السلف واعتزلوا طريق
الجماعة الأولى اما هم فقد كانوا يطلقون لقب الفريسيين أو الفروريين على
نفسهم ويردونه إلى خطاب الله لئلى اسرائيل جميعاً كما يرويه فى لإصحاح

العشرون من سفر اللاويين، ههناك يخاطب الله الشعب قائلاً «وهو مميّزكم من الشعوب لتكوبوا لى».. فهم عند أنفسهم المميزون المفضلون

لهذا كانت تلتزمهم فى بعض الأحيان صفات لادعاء والتعالى التى يلازم كل طائفة تستأثر لنفسها بالمزيد بين الطوائف الأخرى، وكان بعضهم هدفًا لحملات السيد المسيح بتدبُّر بما يظهر منه من الثقة والكبرياء

على أنهم كانوا يقابلون بهذه الكبرياء كبرياء الموجهة والثروة التى كانوا يستكرونها على خصومهم الصدوقيين، وكانوا يثيرون على السلطان «الرسمى» حيث كان فى الهيكل أو فى المراجع الأحسن، فكانوا ينكرون على الكهان استبدادهم بالشعائر والمراسم، ويذكرون فى الوقت نفسه عادات الأحابى والتشبهين بهم محاكاة للحكام واحتسطين

وقد كانت ثورتهم الأولى على لدع الأحيية التى كانوا يرفضونها كل الرقص ولا يسامحون من قبلها، فلما أمر الملك «أطيوخس» كاهن الهيكل أن يصحى فى مديحه بالحنارير (سنة ١٦٨ قبل الميلاد) قاموا قيامة رجل واحد وعرضوا أنفسهم للموت بالمئات والألوف كراهة لهذه البدعة النجسة، وحدث فى عهد الرومان أن الوالى «مروبيرس» عجب من عنادهم فى مقاومة السولة الرومانية مع ضعفهم وقوتها، فسأل رعاياهم كيف يحظر لكم أن تحاربوا قنصر ولستم أكفاء لقوته فقالوا نحن لا نحارب قنصر ولا نرغم أننا أكفاء لقوته، ولكننا نموت على فكرة أبىث ولا نخالف الشريعة، وكشفوا رقبهم مستعدين لإثبات ما يقولون.

ومن فائضهم أن ثورتهم على استبداد الهيكل ورعيتهم فى تعميم اشعار إلى كنت محصورة فى المحاريب هى التى دعاهم إلى إقامة هذه الشعائر فى البيوت بغير حاجة إلى الكهان المرسومين، ولكنهم لم يلبثوا أن جعلوا من كل بيت هيكلًا مقدسًا لمراسم.. فكانوا على ميلهم إلى السماح ومقومة الاستبداد «الرسمى» أشد من المتشددين

إلا أن الغالب عليهم حين يسعون عن أمور التى تعرض لهذه البقتض أنهم أقرب إلى التصرف والقياس، أو أقرب إلى تحكيم العقل فى مسائل النصوص والتفاسيد، فكان الصدوقيون مثلاً يصرون على شريعة العيين بالعين واسن بالنس ولا يقبلون الندية، وكان العريسيين على عكس ذلك يفضلون الندية والسماحة على القصد، وكان الصدوقيون أقرب إلى المديّة والقواعد العمية

وكانوا هم 'قرب إلى الروحانية والآداب النظرية أو داب التأمل والتفكير، وقد كان إنكار البعث والحياة لروحية أشد ما يبكروه على خصوصهم الصدوقيين، ومن أجل هذا سبقوهم مراحل إلى انضمار الخلاص أو انتظار المسيح المخلص في عالم الروح، عبر معبد يشروط الصولة والصولجان.

وأذا وصف لصنوقيون على الإجمال بأنهم طنقة «الارسمقراطيين» فالدين يسبحون وصف الديمقراطيين نور غيرهم من طوائف اليهود في ذلك العصر هم القريسيون.

وقد جاء عصر ايلاد وهم ينقسمون إلى فريقين فريق منهم يتبع الحكيم «هلر» الذي قدم إلى فلسطين من بابل، وهو الفريق لسمح الودود في معاملة الأجانب، والفريق الآخر يتبع الحكيم «شمائ» وهو أقرب إلى التحرج والبخس في الرغبات في تحول الدين من غير اليهود، وكان شعار هلر الاعتدال بين الزهد والمعاية وكلمته الماثورة «إن الزيادة في اللحم زيادة في اليهود». وشريعته في المعاملة أو الشريعة كلها كلمة واحدة وهي ألا تصيب أحداً بما نكره أن تصاب به، وكل ما عدا ذلك من الأحكام المنزلة فهو تفسير وتفصيل. وأب الحكيم شمائ فقد كان الاعتدال بين الزهد واليسار أكثر مما يطبق، وروى أنه كان يحترف التجارة ليعيش من كسب عمله، وأن غيرته على الدين كانت أقوى من إقداله على التحديد والتصرف في تمويل النصوص.

والقول الراجع بين المؤرخين أن معلمى السيد المسيح في صباه كانوا من طائفة القريسيين.

والطائفة الثالثة التي تقل عن هاتين للطائفتين في العدد كثيراً وتساويهما أو تزيد عليهما هي بقرة والأثر هي طائفة الآسين أو الآسيبيين كما بكتبها رواة لأخبار عنها في عصر الميلاد.

عدهم كما قدره المؤرخ يوسفوس ولفيلسوف فيلون لا يزيد على أربعة آلاف يعيش أكثرهم في جنوب فلسطين

ومصدر قوتهم صرامة العقيدة وينظم الحطة، وقد تكون دلائلهم أعظم من قوتهم؛ لأنهم طائفة من صميم الأمة الإسرائيلية قد استقلت شعائره وعباداتها وآرائها وأسرارها وأوشكت أن تستقل عن «الهيك» كله هي علاقتها بالدين والقومية ولولا أنها يعترف بنقريب القراسين في الهيكل لما حسبت من طوائف اليهود، ولكنها مع هذا تنكر ذبح الحيران ولا تقرب القرابين من غير النيات.

واسم هذه الطائفة مختلف عليه، ولكن الراجح من الأقوال المتعددة أن الاسم مأخوذ من كلمة «آسى» بمعنى الطبيب أو البطاسى فى اللغة الآرامية، وهى تفيد هذا المعنى فى اللغة العربية التى تعد للغة الآرامية أقرب اللغات السامية إليها. ومن المعقول أن يتسمى أصحاب هذا المذهب بالآسى لأنهم كانوا ينحاطون طب الروح ويدعون إبراء المرضى بالصلوات والأوراد، كما يدعون العيم بحصان العاقير.

وقد نشأ الطائفة على لاعب بالإسكندرية فى القرن الثامى قبل الميلاد و قدست من المدارس الإسكندرية كثيراً من أنظمة العبادات السرية وبعض المذاهب الفلسفية، كمذهب فيثاغوراس الذى يحرم ذبح الحيوان ويدعو إلى التقشف والقناعة بالقليل.

وكان حراماً عند أبناء هذه النحلة أن يملك أحدهم ثوبين أو زوجين من الثعال أو يدھر الأمتعة والأفوات، وكانت أربابيه عابدة عليهم إلا من أس له بالزواج ويعفى من قيود النسك والبنوة

وكانوا ينظمون فى لحظة على ثلاث درجات درجة التلمذة، ويقبلون عندها اصديان فيما بون الحلم، ثم درجة لمقسمين، وهم اندير يقسمون لسمين ويقضون سنة فى رياضة والتدريب على عبادة والاطلاع على الأسرار، ثم ينقل المرید إلى درجة الوصين ويقضى عندها سنتين، ثم يلبس شععر الطائفة وهو ثوب أرق وزر ويحمل أنفاس فى يده، كناية عن العمل الشاق، ولهم بين المرحلة الأولى والمرحلة الثانية شعتر متواتر يقوم بها الأسانده، منها الاعتسار وتلاوة بعض العهد، ويقسم أحدهم مرة واحدة بين الأمانة والمحافظة على سر الجماعة، ويحرم عليه القسم بالحق أو بالمناصل مدى الحياة، ويحوز فصل العضو بعد رسمه إذا حدث فى يمينه وتفق مائة من الإخوان على إداسه، بل يجوز الحكم عليه بالسوت إن بلغ الحدث حد الحياة والكفر بقواعد الإيمان.

وهم بتطهرون من الحدث، ويصلون عند الفجر، ويحافظون على الراحة فى يوم السبت، ومنهم من لا يسبيح فى ذلك اليوم إرادة الضرورات.

ولس بينها رئاسة ولا سبادة، والرق عندهم حرام، وعملهم المفصل الزراعة والصناعة اليدوية، أما البحارة، فهى فى مذهبهم عمل خبيث أو غير لائق، وأخبت منها حمل السلاح للقتال.

والمادة عندهم مصدر الشر كله والسرور بها سرور بالنفس، والخيانة وكان يعذب عليهم من أجل هذا وحوم الصمت والعدم، وكل ما يباح بهم من السرور فهو سرور الروح أو سرور الاتصال بعالم الأرواح، وهو عالم سماوى فى أعلى الأثير يرتفع إليه المؤمن بالعبادة والرياضة والقنوت

وكانوا يتأخرون ويصطحبون اثنين اثنين فى رحلاتهم، وقلما كانوا يشاهدون فى المدن الأهلة بالسكان أو فى لأحب، التى يرادها القصائد للفرجة وإرجاء الفراغ.

وهم مؤمنون بالقامة والنعت ورسالة المسيح المخلص، معتقدون أن الخلاص بعث روحاني يهتدى الشعب حياة الاستقامة والصلاح، ورائدهم فى طلب أرضا من الله هو لىي عاموس السى كان يعلم لشعب أن التقرب إلى الله بالعدل والرحمة خير من التقرب إليه بالذبايح والهدايا.

ولا يبعد أن يكون العلاه أو لحيليون أتباع يهودا الجليلى فرقة منطرفة من قرو الاسير، لأنهم سلكوا مسلكهم فى لتقشف والقدعة ويريدون عليهم بالحض على العمل لتحقيق النبوءات وتقريب يوم الخلاص، وهم الذين ثاروا وطمخوا للعصبات فى لسنة السادسة أو الساعة قبل الميلاد وتمردوا على أمر لإحصاء الذى صدر من «كرينياس» حاكم سورية وأصبح اليهود بموجبه معذوبين فى رعيا قيصر، أو عبده الذين يدبون له بالسيادة، وحتهم أن طاعة القيصر من عبادة الأوثان، وأن إحصاء الشعب لاعتباره من عبدة اقيصر مروق به من الديانة ولد رفع المس هيرود بمثال النسر القصرى فوق هيكلى بيت المقدس ذهب ثمان من اعلاء إليه وسرعاه عنوة وأندر إخوانهما من يعيده إلى مكانه بأوت، وقد ثار هؤلاء فى سنة لإحصاء يقبلة يهودا الجيسى ومات هو وابناؤه وبوره فى إبان الثورة، وكانت الدولة الرومانية تحذر الفتنة فى هذ، لسعة المتوسطة بين لقارات الثلاث فكانت مؤثر لبقية ولداراة فى معاملة النابرس، ولا تأخذهم بالعنع والسطوة إلا إذا ضاقت بها سبل الحنم والآنة.

والطائفة لسامرية خسيط من ايهود و لاشوريين، كانوا يقيمون فى ممكة إسرئيل، لقدمة، يقال إهم قبائل اشورية. رسلها ملوك بابل إلى فلسطين لسكوف فى أماكن البعائر ليهودية التى بعيت إلى ما بين النهرين وسمنت

من أجل ذلك سسنا نال، ويقال إنهم اختلطوا باليهود الذين بقوا في بلادهم ولم تضمنهم الدولة البابلية إلى بلادها مع القبائل المسيحية، فوقع من هذا الاختلاط في السكن والنسب اختلاط في العادات والعبادات، وبعد أن يهود الذين رجعوا من السبي بعد سقوط بابل فأنكروا من السامريين شعائهم المخالفة لتعاليمهم واتهموهم بعبادة الأوثان، ورفضوا مشاركتهم في بناء الهيكل الجديد، فعند السامريون إلى بناء هيكل خاص لهم في جرزيم وجعلوا يتعمدون أن يدرسوا هيكل بيت المقدس ويحصرروا القبلة في هيكلهم ومثابة حجهم وعبادتهم، وقد بقي منافس الهيكل بيت المقدس زهاء مائتي سنة حتى هدمه رئيس كهان بيت المقدس حناهير كنبوس قبل الميلاد بأكثر من مائة سنة، ولكنهم أعادوا بناءه وظل قائماً حتى هدمه الرومان بعد ثورة السامريين في القرن الخامس للميلاد، وقد هدم فساسيان مدينتهم وأقام على أنقاضها مدينة سماها المدينة الجديدة «نيبوليس» أو نابلس المعروفة اليوم، ولا تزال بقايا السامريين تحتفظ بتعاليمها وتعتمد على نسخة التوراة المكتوبة بلغتها، ولا تعترف بكتاب بعد الكتب الخمسة التي تعرف بالكتب الموسوية ولا تدين بحاصصة مقدسة غير موطن هيكلها المهدوم جرزيم، وقد استحكم العداء بين أصحاب الهيكلين في عصر أميلاد حتى نزل الأمان في السفر بين السامرة وبلاد الأحمرى، وعرض للإهانة والكال كل من خاضع بالصغر إلى السامرة من يهود الجنوب أو الشمال.

ومن المحقق أن هؤلاء السامريين كان لهم شأن في تطور الفكرة المسيحية أو فكرة الخلاص المنتظر على يد الرسول الموعود، ويرجع شأنهم هذا إلى الصراع القديم بين مملكة يهوذا في الجنوب ومملكة إسرائيل التي ورثها السامريون، وهم يتنسبون إلى يعقوب ويدعون أنهم - بنو هيرهم - الجديرون باسم «الإسرائيليين».

فإذا اعتقد أصحاب مملكة يهوذا في الجنوب أن عاصمتهم بيت المقدس - هي مقر لست المنتظر، وأن هذا الملك المنتظر سيكون من سلالة داود فهذا الاعتقاد يرضيهم ويرد المجد إلى بولتهم ويحصل الخلاص على أيديهم، ولكن السامريين أبناء الشمال كانوا يلحون في عدائهم لداود ودينه ويشرون لبروخ القديم بين الأسباط، وينكرون على لاقن عقيدة الخلاص على يدي ملك من أسرة

الملك في يهود ويعبحون بذلك السبيل إلى الإيمان بالحلل والهداية الشعبية، ويرعرون الثقة في أحبار الهيكل الجنوبي وفيهم عسى أن يبيعوه بالملك، إذا حان الموعد المقدور.

ولم محل اسلاد حصيماً - مع هذا - من بس هت وهياك تسسوا من جميع الطوائف والنحل وأعزلوا الدنيا وعاشوا في الصوامع بمعزل عن العمران، ورتفع شأنهم في أعين الشعب أسوء ضته بالدعاة أعماسين للدنيا في بيئات الساسة والكهان، ومن هؤلاء «نابوس» الذي تنطق عليه يوسفوس المؤرخ الكبير ثلاث سموات، وكان هذا لاسك الشاعر يعيش في عزلة ويأكل معا يتفق له غير سعي ولا مسألة، ويكثر من التطهر بأداء والتركي بالرياضة والتلوذ، وكان على مثال بنوس تسالك متعددون شبيهونه في شعائر الاعتزال والاعتسالي، وأشهرهم يحيى المغسل المعروف في الأناجين باسم يوحنا المعمدان.

أم موقف الهيكل من هذه الطوائف والفرق فهو الموقف «الرسمي» لليهود... أو موقف المسئولين الذين يحاولون أن يتحنبوا التحيز لهذا أو لذاك، ويحتهدون غاية اجتهداهم أن يكسبوا ثقة لشعب ولا يفسدوا سلطان الدولة، وقلما يمسر لنجاح في هذه المهمة. ولا سيما في أوقات الفلق والنطع والتبرم بكل موحود.

كان الهيكل حيمة في عهد البداوة، وكان الشعب يعتقد هديماً أن الله يتجلى في هذه الخيمة للأنبياء والكهان، ثم بنيت الخيمة من خشب يفك ويسقل في أيام التيه، ثم أقام سليمان الحكيم مكله بديلاً من الحيمة والمعبد الخشبي، وقيل إنه أنفق على بذته مائة ألف وزنة من الذهب، وألف ألف وزنة من البضة غير ما جمعه أسلافه وأعقبه، وبلغت تكليف بنائه بحساب أياما الحاصره نصف مليار من الحنياهات وضعف ذلك في حساب الآخرين حسب تقدير المثلقل في المعاملات الرسمية وغير الرسمية، وعضمت هيبة الهيكل وارتفعت أقدار كهنة وأحباريه ردياً من الزمن، ثم هدمه البابليون بعد أن قام في مسجده أكثر من أربعة قرون، ثم أمر كورش الفارسي بإعادة بنائه في سنة ٥٣٦ قبل الميلاد، وجاء الملك هيرود بعد خمسة قرون فجدد بناءه وأصاف إليه، وبم ذلك أو كاد في عصر الميلاد.

لكن الهيكل بعد تقلب العصور وسيطرة الدولة على مناصب الكهانة حسر من المكنه بمقدار ما كسب من الفخامة، وبدأ عصر الميلاد وسلطان الهيكل

يتداعى هي الحفيضة الواقعة ويمكن في الصورة الظاهرة يتداعى لأنه يقوم على غير ثقة، وينمكر لأنه كان المثل الوحيد الذي بقي لقومه بعد روال ملكهم والناس من إعادة ذلك الملك، مع علنة الرومان على لمشرق والمغرب في عصر الميلاد

وقد كانت وظائف الهيكل كلها محصورة في أصحاب الكهانة، وهي وظيفة دينية كانت موقوفة على سلالة هارون أو قبيلته بولاهما غيرهم من أسباط اليهود، ومن أعمالهم في الهيكل إمامة الصلاة والإقراء في مسائل الفقه وتقنين الذبائح والخدمة الدنيوية في الأعراس والمناسم والعبادة بالآنية المقدسة، وقد مرأيد عددهم مع الزمن حتى قيل إن القائد ريميل (أى المولود في دبر) كان معه عند عودته من الميلاد الببئية نحو أربعة آلاف وثلاثمائة كاهن غير لسابقين والمتحفين، ولهذا كانوا يقسمونهم إلى فرق تقوم كل فرقة منها بالخدمة أياما من اشهر، ويقتسمون جميعا في النذور والمرتبات

ول تطاول الزمن وتكاثرت دريه هارون وجد منهم الوف يعير عظم ويعير عمل، يتعاطون صنف الكهانة ويقتسمون النذور ولا يشتركون في تعليم الشعب ولا في إقامة لصوات، ووجد إلى جانبهم أناس يعرفون الكتابة ويسجلون الأسعار الدينية ولا يصعب لهم من وظائف الهيكل ولا نذور وأوقافه، وهؤلاء هم جماعة «الكنية» أو فقهاء الدين، وكانوا جميعا من القريسيين لأنهم هم الذين يفتلون الأسفار الحديثة ويعتمدون عليها في العبادات والمعاملات، خلاف تصديقيين الذين كانوا - كم تقدم - يقصرون تالوتهم على الكتب الموسوية الخمسة ويرفضون كتب الأنبياء من بعدها ولا يعتمدون من ثم على جماعة الكتبة والفقهاء.

فلما جاء عصر الميلاد كان كثير من الكهان يشتركون في صناعه الكهانة ولكنهم لا يعملون في الهيكل، وكان كثير من الكتبة والفقهاء يشتركون في العلوم الدينية ولكنهم لا يحسبون من رؤسائه الوراثيين، وشاع بين الشعب إهمال الكهان في المسائل الدينية التي تحتاج إلى التعليم والإفتاء على الخصوص وشاع بين الشعب كذلك الإقبال على العلماء «غير الوراثيين أو غير الرسميين» لسؤ لهم في العضلات والافتداء بهم في مسائل الحياة، فأصبحت المكانة «البقليدية» بصرية قوية وانفسح الطريق للدعوة الدينية عبر مصححة بالمراسم «الكهنوتية» والشعائر «الهيكلية» على الخصوص.

وولد السيد المسيح ووظائف الهيكل على أشهر الروايات مصفاة في المجمع المقدس الذي يطلق عليه اسم «السندرين» ، وعدة أعضائه وأحد وسبعين عضواً منهم ثلاثة وعشرون يتألف منهم المجلس المحصون وتعلب عليه الصبغة الرسمية التقليدية، ويتصل أعضاؤه برجال الدولة في الشؤون العامة وما يرجع منها إلى تنفيذ الأحكام والمحافظة على الشريعة المحلية أو لشريعة الموسوية.

وعلى حسب المؤلف نحاول أصحاب المذهب في «السندرين» أن يرجعوا بأصله إلى أقدم العهود، وكانوا يرجعون أنه هو المجلس الذي ورد ذكره في سفر العدد إذ يقول «فقال الرب لموسى اجمع إلى سبعين رجلاً من شيوخ إسرائيل الذين تعسم أنهم شيوخ الشعب وعزاهؤه وأقل بهم إلى خيمة الاجتماع فيقيموا هناك معك، فأنزل أنا وأتكلم معك وأخذ من الروح لدى عليك وأضع عليهم فيحملون معك ثقل الشعب فلا تحمل أنت وحدك».

غير أن المراجع التاريخية ومراجع الكتب الدينية نفسها تحلو من ذكر السندرين، إلا إشاره عابرة هنا وهناك لا يستعاد منها تقدير عدده ولا تفصيل حقوقه ووظائفه، ومما لا ريب فيه أن المجلس الذي كان في عهد السيد المسيح قد سلب حق الحكم في الجرائم الكبرى قبل هدم الهيكل الثاني نحو أربعين سنة، وكتب أحكامه الكبرى في أيام المسيح معلقة على إقرار الحاكم الروماني بقررها أو ينقضها حين يشاء.

وإذا نظرنا إلى موقف هذه الهيئة من بشرى «المسيح المنتصر» لم نكد نرى فيها ما عاثر إلى الترحيب بتلك البشرى، لأنها تضمن الحكم بفساد الزمن كله ولبأس من صلاحه واتهام الفاضلين على شئون الدين بين أهلها، ولكنها مع هذا لا تستطيع أن تنكر لهذه الدعوة ، لأنها هي باب الأمل الوحيد في وجه المؤمنين والمترقبين، فهي هي موقف الحائف من رجاء الشعب كله أن يتحقق على غير يديه، أو موقف من يذهب للبطش بالدعوة على قدر الإقبال عليها ومجمل الأمل في شيوخها وبنسارها، وهي إذا انبشرت لم يكن منشارها في مثل ذلك العهد مقصوراً على النعماء دون غيرها، لأن الفقهاء والعلماء والمتعلمين كانوا من الفريق الذي يستريب بالكهان ولا يأتي أن يصدق فيهم أنهم كهان فاسدون مفسدون، لأنهم آخر الرمان الذين تدركهم صيحة لدير، وينصب لهم ميزان الحساب

ولا يستوفى الكلام على اقربى الدسة لتي كان لها عمل محسوس في موطن السيد المسيح قبل ميلاده عليه السلام بغير الإشارة إلى طائفة المدرسين أو المنذرين لدين ومموا أنفسهم أو وهبهم أهلهم لحياة ، تقداً وحمة الله والتشهير باليوم الموعود ، يوم الخلاص من الظلم والجور واسطهر من الذنوب .

ولم يكن هؤلاء المدرسون طائفة تجمعها الوحدة التي تجمع بين أصحاب السبل والمراسم الاجتماعية ، ولكنهم كانوا احدى متفرقين يذُر كل منهم بعينه أو يذره أهله على حدة ، ولا يستسور إلى جماعة واحدة غير جماعة ، لامة بأسرها .

و لكلمة بالغة العبرية ترجع إلى مادة تفقد معنى التجديد واستعيرت على ما يظهر للصهيدي في سبيل الدين ، نقل تذر الحيش الرجل جعله تذره أي طلبه . وربما كان من عمله أن يذُر قومه بالعدو ويبعدهم عن المحاطرة والمفاحات ولا شك أن المادة تدور حول هذا المعنى في العبرية مع اختلاف الحروف والأوزان .

ولا يشترط في الدرى أو المنذور أن يهجر العالم ويعزل الناس في الصوامع ولكنه يراض على حياة النبطس فلا يجوز له شرب الخمر ولا أن يذس جسده بملامسة المولى أو لأجسام المحرمه وعليه أن يرسل شعره ولا يحلقه قبل وهاء تذره إن كان مندوراً لأهل مسمى ، وقد يذر الطير قبل مولده ويمتد بذره طول حياته ، ويقال عن المنذور أنه بمثابة النبي هي من الفتوة قال اننى عاموس طسان يهوا إله بنى إسرائيل . وأقامت من بينكم أنبياء ومن فتياكم بديرين . لكنكم سقيتم الديرين خمر وأوصيتم الأنبياء أن يذروا السوءة والسوءة هت بمعنى لإصدار بما سيكون .

وهذا تكاثر الديرين فيل مولد السيد المسيح لأنه وافق بهايه الألف اربعه من بدء الخليقة على حساب التقويم العبرى وهو الموعد لدى كن منصر ، لبعثة المسيح الموعود ، لأنهم كانوا ينظرونه على رأس كل ألف سنة ، ومنهم من كان يقول إن اليوم الإلهي كالف سنة كما جاء في المزامير ، وأن عمر الدنيا أسبوع إلهي ، نصفه سنة ادم منه في انعباء والشقاء وبأى اليوم السابع بعد ذلك كما يأتي يوم اسست للراحة ولسكنيه ، فيدوم ألف سنة كمنه هي فترة الحير والسلام قبل بدء العالم ولا يرأل العربون يعرفونها باسم الألفه melli annis وبظاهرها على كل عصر موعود بالسعادة والسلام .

فالذين قدروا أن الفبمه تقوم بعد سبعة آلاف سنة من بدء الخليقة كانوا يوحلون هييم ملكوب السماء على الارض إلى بهايه الألف السادسة ، ويومئذ

سود دولة المسيح الموعود، ولكنهم كانوا كغيرهم في اسطار رسول من عند الله
كلما انتهت ألف سنة من بدء الحليفة، وكانت بداية الألف الخامسة موعداً
منظوراً أو منثوراً يكثر فيه السديرون. لعلمهم يحسمون من حشد الخلاص أو لعل
واحداً منهم يسعده القدر فيكتب الخلاص على يديه.

والهم في أمر النذيرين بالنسبة إلى السيد المسيح أن النبي يحيى المغتسل
(يوحنا المعمدان) كان علما من أعلامهم العديدين وكان السيد المسيح يعتمد
على يديه أو يأخذ لعهد عليه، وأن بعض المؤرخين بحسب السيد المسيح من
النذيرين وينسب عليه الأمر بين النذيري والبصري وهما في اللفظ العبري
متقاربان، ومن هؤلاء المؤرخين من يزعم أنه لم يكن من الناصرة بل يرعى أن
الناصرة لم يكن لها وجود لأنها لم تذكر قط في كتب العهد القديم، ولكن
الأرجح في اعتقادنا أن الناصرة نفسها كانت تسمى بديره بمعنى الطليحة
عندما كانت على تخوم الأرض التي فتحها العبريون قديما، وأنها كانت مرقباً
صالحاً للاستطلاع لأن التلّول التي تحيط بها تكشف جبل الشيخ والكرمل
والمرج المعروف باسم مرج ابن سمير، وهذا مرول الصعوبة التي اعترضت
المفسرين الغربيين على الخصوص ولا سيما النذيرين في اللغة اليونانية، لغة
الأنجيل، فلا عجب أن يضلوا مع التصحيف السببي فلا يفرقوا بين النسبة
إلى النذيرين والنسبة إلى السيرة، وبخاصة إذ كان اسم البلدة قد عرض له
التصحيف على السنة العبريين والعرباء على طول الزمن، فنطقوه تارة بالصاد
وتارة بالسين.

وليس النذيرون طائفة موحدة كما أسلفنا ولكنهم ينتمون إلى كل مذهب
يوثق منه الشباب وهذا الذي جعلهم قوات داب بار هي عصر الميلاد خاصة،
لأنهم جميعاً فنان معتمرة قلوبهم بالأمل معقودة بدينهم على الإصلاح، يؤمنون
بأنهم رواد الدعوة إلى المسيح الموعود ويترقبون ظهوره للفرح به والإصغاء
إليه ولا تحيط بهم طائفة أو مذهب محدود.

الحالة السياسية والاجتماعية

في عصر الميلاد

فتحت سورية وفلسطين للدولة الرومانية على يد القائد الكبير «بومباي» الذي قضى على ثورة العبيد الثالثة بقيادة «سبارتاكوس» المشهور.

وقد حسنت هزيمة «سبارتاكوس» من العطاءات التي أضافت إلى مجد بومبي وحللت ذكره بين أبطال الرومان، ولكن هذه العطاءات بصرى على الأبطال والبول مجداً لا ينطوي على خير كبير، فمن دلائل القوة أن تستطيع لدولة قمع عتته كذلك الفتنة الصارة التي لم يعرف لها مثيل هي ثورات العبيد الأقدمين، ولكنها ولا ريب دلائل القوة التي تقابلها دلائل الضعف من جانب آخر، فلو لم يكن هي حبة الدولة صدع محيف لما استطاع عدد أن يجمع سبعين ألف عدد ويقهر بهم جيوش روما رهاء ثلاث سنوات ولولا حثل في كسب المجتمع لما اشتمل على أصعاف هذا العدد من الأرواء المسحرين الذين يضربون إلى مجد رومه نظره الحقد، ويجارفون بالحياة ليهبطوا بها إلى الحمص.

وقد كان سبارتاكوس من أهل تراقية ولم يكن أول «عبد» شرفي ثائر على الدولة الرومانية بل سبقه رقيق آخر من البلاد الشرقية إلى ثورة في صقلية سنة (١٤٣ قبل الميلاد) واستطاع أن يقيم له عرشاً اسنقر في الحرية عشر سنين، وهذه هي الثورة التي نحى قائلها «أونس» لأتباعه في صورة «نسي المرسل» وهي إشارة إلى الخوخ سد «له»، وكان أصله في سورية وكثير من أتباعه شرفيون.

وقد سبقث ثورة اونس السوري وبحقت بها ثورات من قبيلها لم تبلغ مبلغها من العنف، ولم تحل إحداها من صيغة بحدنة فيما تدعه لقيدها، وكانت وحدة منها هي آسيا الصغرى نشئ لها حكومة تسميها حكومة «الشمس» رمزاً إلى عبدة النور والحريه، ويقوم هذه الحكومة ولتوار المهزموين في صقلية يعقرون بالآلوف على أخشاب الصليان.

ولم يكن هذا لخطر الكمين حافياً على المصحين من سياسة الرومان في الأجيال القريبة التي سبقت ميلاد السيد المسيح، فزادوا إصلاح العيوب

الاجتماعية بالرجعة إلى الشريعة التي تقيد الموارث وتحرم ريادة الميراث على حفسمالة فدان، وظل كايوس جراسس Gracchus أنه يعالج الافة بيشا طبقة حديدية من الصيارفة و، لتجار يحد بها من نفوذ النبلاء وأصحاب الصناعات المتبطلين، واضطر هو وأخوه إلى تموين الموزين بأغذية تبيعها البوالة بأمر من تكاليفها، ولكن عو، مل الحراب كذب في تلك الأصيل أعمق وأفعل من عو، مل العمر والصلاح، فلما حاول يوليوس فيلس في سنة (١٠٤ قبل الميلاد) أن يخلع الإقصاعات بشريعاته الرامعة قال في خطابه «التفسيرى» كما روى شيشرون «إن ملك الأرض في مدينة رومة لا يزيدون على ألفين»... وازدادت هذه الحالة سوءاً في عصر أوغسطس المجيد كم يوصف في التواريخ، فالت المستعمرة، الأرفقة إلى قصبة سنة من المبطير، وفيها أبواب من الأرقاء اسحرين.

وعصر أوغسطس المجيد هذا هو عصر الملز الذي قال فيه السيد المسيح في رواية الحواري متى «إن لشعالب أجرة ولصبور السماء أوكراً، وأما ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه».

والواقع أنه كان عصرًا مجيدًا بقوة السيف نور كل قوة أخرى من القوى الإنسانية، وقد أخذت رومة من قوة لسيف كل ما تعطيه فتوح واسعة وسطوة تصد الأعداء وتقمع الثائرين، وألقت رومة بكل اعتماد على هذه القوة فأصبحت لها سداً لا غنى عنه، وانتهت بها الحاجة إلى تلك القوة أنها ألقت بنفسها على مذبحها، فباعتها حريتها وكرامتها، وصيغت الجمهورية في سبل انقيصرية المطلقة، بل رفعت القيصر إلى مقام الربوبية المعبودة، فجلعت على انقيصر أوغسطس لقب إله، وقررت عبادته مع الآلهة ورصدت له شهراً في السنة لا يزال معروف باسمه إلى اليوم، وتابعت بعده عهد انقياصرة العسكريين من أمثال طراصن وهادريان وغيرهم من المتشبهين بهم، حتى عر عليها آخر الأمر أن تجد انقياصرة العسكريين.

وكان القاسون والباطام مخر رومة الأول، قضاع لقاسون مع السلطان المطبق، وضاع النظام مع التفاوت البعيد بين الحاكمين والمحكومين ثروة وترف وطغشان من ناحية، وفقر وصنك وهوان من ناحية، ولا نظام لسول مع انحلال البوارى هي المجتمع، بن لا نظام للحياة نفسها ولا قيمه بها مع إفراط النعيم حتى السأم من

الحياة. وإمراط الشقاء حتى البقعة على الحياة فصدق في رومة كلها وصف السيد المسيح لذلك الرجل الحاسر الذي كسب العالم وصيغ نفسه، فضاء وأضاح.

ولم يستقر الأمر للدولة الرومانية في فلسطين دفعة واحدة على أثر افتتاحها، لأن النزاع بين الرومان والفرس لم يترك للبلاد قراراً في مدى عشرين سنة، وانقسم الرأي في فلسطين بين الدوليين منهم من يشايح الفرس ومنهم من يشايح الرومان، واشتد التنافس بين الفريقين اشتداداً خرج بهم إلى ضراوة الوحشة في مناصب الدين فضلاً عن مناصب الدين، ومن أمثله أن أنصار الفرس أعلنوا على أنصار الرومان في بيت المقدس، وكان أنصار الفرس يرشحون لرئاسة الكهنة انتيجوس بن أورشطولوس، فقضى هذا بنده على مراحمة هيركانوس وقضى أدنه بأسدنه، ليحول بينه وبين وظيفة الكهنة طوي حياته، إذ كانت هذه الوظيفة محرمة على المشوهين وبني العاهات.

وكان في البادية الجنوبية من فلسطين زعيم مشهور بالحصافة ولحرم على رأس قبائل «بوميين»، عرف بقرسنة وبعد نظره أن الكفة الراجحة في النزاع على فلسطين لدولة الرومان فاضوى إليها واستعمل في معونتها. فكفاته على خدمته بتخصمه مكالاً على اليهودية والسامرة والحنين حدث ولد السيد المسيح، وكما أنهم هو بالنمادى في محاكاة المذبة الرومانية، ووجت إليه حصافته أن يداهن السلطة الدينية ويدها من السلطة الديورية في وقت واحد، فغالى في الغيرة اليهودية التي كانت قبلته تدب بها على سبيل الإدارة والمجارة ويعلى في محاكاة الرومان والإعريق بالآراء والمساكن والشارات والأسماء وتكفل بإمام بناء الهيكل على نفقته ثم تكفل بترشيح رؤساء الهيكل من بين أعوانه «المترومنين» إن صح هذا التعبير، لعلمهم يد روى شملته في محاكاة الرومان ومجادة التقاليد العرنة، كلما احتاج إلى التوفيق بين المعضين.

ومع هذا الجهد المضنى في التقريب بين الطرفين مات هيرود وهو معضوب عليه أشد العصب من أعداء دينه، وحدث قليل وقته أن طائفة من الغلاة ثارت على مبنية وأنصاه لتمسح منها معالم الوثنية، فعقد لهم محكمة علنية وأمر بأجناده فحملوه إلى المحكمة، حيث قضى عليهم بالصرق وهم أحياء! وقبض على الزعماء المحبوبين محبسهم وأوصى أخته أن تقتلهم إذا مات قبل إعلان

وفاته، لذهب حسرة الشعب عليهم بفرح الشماعة فيه، فلا يتمتعهم في ذلك اليوم بالفرح الذي ترقبوه.

وتمت السيرة بتقسيم البلاد بين أبناء هيرود الثلاثة، فوُقت الجليل - حيث ولد السيد المسيح - في حصّة هيرود الثاني انتيباس، ووقعت اليهودية في حصّة ارخلاوس، ووقعت مشارف الشام في حصّة فيلبس، وكان من مراسم الولاية أن يذهب الملك إلى روما ليتلقى عهد الإمارة من يدي القيصر، فهذا الذي يشير إليه السيد المسيح في مثله المشهور كما رواء الحوارى لوقا حيث يقول ما هو «كن إنسان شريف السب نهب إلى كورة بعيدة لأأخذ لنفسه ملكا ويرجع...» وأما أهل مدينته فكثروا ببعثوه فأرسلوا وراءه سفارة يقولون لا يريد ملكا علينا..».

ولكن القيصر أقر الأبناء الثلاثة في ولاياتهم، وخرجت البلاد مفرقة بين أبناء هيرود وحكومات السطرنين والمدن العشر، وفصدت رومة بهذا التمزيق أن تحبب ولاية بولاية وتلجئهم إلى التنافس بينهم في مرضاهم، وبسخم جميعا درعا تدفع به عارت الصحراء وهياج المتعصبين.

ومن المتواتر - مع تصحيح تاريخ السيرة كما سيأتي بعد - أن السيد المسيح ولد في أعقاب ثورة جانبحة اشتعلت في أفليم فلسطين اليهودية على الخصوص وهدرت فيها دماء الأثوف من اغلاة وأندعهم لأنهم هبوا في وجه الدولة الرومانية محتجين على صنور الأمر بالإحصاء العام، وليس الإحصاء بطبيعته الحال سبب من الأسباب لإشعال نار انتوارة بين أبناء أمة مطبئة، ولكنه أشعل نار الثورة فعلا لأنه أشار بين الإسرائيليين خاصة مشكلتين قديمين من مشاكل هسطين. إحداهما مشكلة الاعتراف بملك غير «يهوا» الذي يؤمن الشعب اليهودى أنه هو الإله وهو ملك وأن منابه الشعب لغيره كفر وحيابة يعاقبه عليهما بالضرب ولحن ولا يغفرهما له إلا بعد كفارة تضيع فيها الأرواح والأموال، فإذا دان اليهودى لملك غير «يهوا» أو غير مسحاته المحنارين فهو مطرود من رحمة الله مستحق للعداب ولحرمان وقد حسب الشعب، لإسرائيلى أن الإحصاء مقدمة لفرض السيادة القمصرية عليهم فرداً فرداً وبقيدهم عبداً للقيصر مطالبين بعبادته واحتاج لصلوات باسمه، وكان فقهاء اليهود يدعون للجزية وهي تؤخذ منهم عنوة من طريق الالتزام الذي لا يحص الأفراد بالأسماء بل يؤخذ جملة على الأكوار والأقاليم، ولكنهم كانوا ينكرون أداء الجزية من ناحية المبدأ أسد الإنكار

ويحكمون بكفر من يجيزها ويشترك في تحصيلها ويبذونه من الجماعة ويبذون معه من يعاشره ويتحدث إليه. ولهذا دبوا مكيدتهم للسيد المسيح ليسألوه أمام جمهوره لشعب عن 'داء الجزنة هل يجوز أو لا يجوز' فأرسلوا إليه تلاميذهم من اليهوديين قائلين 'يا معلم إنك صادق تعلم بالحق ولا يبالي أحد، لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس فقل لنا ماذا تظن' أيحوز أن نعطي جزية لقيصر أم لا يجوز؟' فكان جوابه المشهور أروى معاملة لجزية! ونظر إلى الدينار الروماني فسألهم لمن هذه الصورة والكتابة؟ فلما أجابوه أنها لقيصر قل لهم أعطوا إذن ما لقيصر لقيصر وما لله لله. وأسكنهم جوابه لأنهم لا يرفضون العملة الفيصرية مع وجود العملة اليهودية، ولو كانوا يستكفون آداها حقاً لأنكروا كسبها واستخدموها وقد كانوا يكسبونها ويصرفونها ما عدا صدقة العلاة منهم، وهي التي ثارت عند تقرير الإحصاء العام.

أما مشكلة الأخرى التي أثارها تقرير الإحصاء فهي مشكلة الضريبة وعسف الحياة في تحصيلها، فقد كان اليهودي يؤدي ضريبتين: إحداهما للهيكل، والأخرى للدولة، وقد جاء في الأناجيل أن رسل الهيكل كانوا يطبون صريبة من السيد المسيح وتلاميذه، وأنه عليه السلام سئل مرة أن يؤديها فقال لتلميذه سمعان ما تظن يا سمعان؟ ممن يأخذ ملوك الأرض الجباية أو حرية؟ أمن بسهم أم من الأحاسنة؟ قال له لتلميذ بل من الأجانب، فقال السيد المسيح إذن إن الذين أحرار.. ولكنه عاد فأمر تلميذه بأداء الصريبة عنه وعن معه من التلاميذ.

وقد كان أداء صريبتين عبئاً فوق طاقة الفقراء، ولكنه - مع عسف في تحصيل ضريبة الدولة - كان عبئاً لا يطيقه الموسرون فضلاً عن الفقراء، لأن الدولة كانت تحصل الضريبة بطريق الالتزام والمراقبة، فإذا حان الموعد السبوي منحت باب المراقبة ومنح صاحب المزداد الراجع حق التحصيل طوال العام، وكان الجباة أو العشاريون يأخذون لأنفسهم شيئاً غير الذي سئلوا به للمتبرع، وكان المتبرع يأخذ لنفسه شيئاً غير الذي يسلمه لخزينة الدولة، فكان المال المحصل يربى على ضغى المال المطلوب.

ولهذا كانت طائفة العشاريين مغيضة إلى الشعب وكان الشعب الإسمر تبلى لا يغتمر لأناس منه أن يتمرّدوا لقمة المتمرّمين الأحناب ويبترزوا المال حراماً من أرواق المعوزين، ومن ثم كان إنكارهم على السيد المسيح أنه كان يخاطب

العشارين ويدخل بيوتهم ويستمتع إلى مناجبتهم، ولكنه كان يستمتع لهم ويوصيهم بالأمانة في الجباية.. يسألونه يا معلم ماذا نعمل؟ فيقول لهم لا تستوفوا أكثر مما فرض لهم، ويقول للجند الذين يصاحبونهم لا تظلموا أحداً ولا تشربوا بشئ، وكنتمو بحالكم.. لأن الدولة كانت ترسل الحدود بجمعهم طعامهم وعلائق معانيهم من الناس !

فلما صدر الأمر بإحصاء لعام توهم الدهماء أن الدولة لا تكنهي بما تحصله جملة وتنوي أن تزيد عليه ضرائب تستوفيها من الأحرار فردا فردا مع الشدط في تحصيل ضرائب الالتزام، فاستجابوا بدعى أشورة من العلاة، وغضبوا لعقائدهم كما غضبوا لأرراقهم، حين أمروا بالعودة إلى بلادهم ليسجلوا أسماعهم حيث ولدوا أو حيث يقيمون.

ومما لا خلاف عليه بين مؤرخين اشرقيين والأوربيين أن الحالة السياسية في فلسطين خاصة كانت على أسوأ ما تكون، ولكنها على إفراطها في اسوء لم تبلغ مبلغ الحالة الاحتفاعة في الدلالة على القنوط وعموم النلاء، وحسب الفارئ أن يصفح الأناجيل كأنها ما كان اعتقاده فيها من الوجهة الدينية لكي تتمثل له حاله اليأس واليأس التي كانت تريس على القرى والمدن في أقاليم فلسطين، ولا سيما إقليم الجليل لدى تواترت الروايات عنه، فحسب سجن الإجمليين رحلة من رحلات السيد المسيح بين القرى فهذه أحبار عن العجزة والمرضى الذين يعرضون لطب الشفاء بعد اليأس من كل علاج، وبين هؤلاء مشلولون ومفلحون ومجانين ومصابون بالخرس والمسموم ولعمري وييس المفاصل والأطراف، بينهم من يقال عنه إنه حسده تسكنه الشياطين أو يتدرب سكانه جملة من الشياطين بالليل والنهار، وكان بعض هؤلاء المرضى أطفالا وبعضهم من الشباب والكهول في مختلف الأعمار، وهذا إلى أمراض البرص والبريف والصرع الذي لا يقترب بالجنون.

وإذا كانت هذه الحالات البارزة فإلى جانبها ولا شك حالات أخرى بونها في الشدة والبروز تتم على الآفات الجسدية والنفسية التي فشت في ذلك المجتمع وتركت مهيبض الأعصاب عرضة للسخط والهياج، ويضاف إلى هذا أن عصر الميلاد قد شهد في فلسطين طوائف شتى من الأسمة الذين يطبقون المرحى بالعلاج الروحاني ويعتمدون على قوة الإيمان وطهارة المعيشة في التطبيب والعلاج، وإذا قلنا إن عصر الميلاد قد شهد عصرا مهيبض الأعصاب فبحر

بلغت البقائنا خاصاً إلى هذه الظاهرة التي تشير إلى الحالة النفسية في
 جيمتها وليس أحوج من عصر كذاك العصر إلى السكينة وثقة لإيمان وبيس
 أشد منه تعطش إلى التسليم والتطهير من استراحت النفوس فيه إلى الهادي
 الذي يرحى على يديه التسليم والتطهير، فلم يأت أو أن الرسالة المسيحية حتى
 كانت قد سبقتها رسالات تمهد لها وتعمل في وجهتها عمل الرواد السابقين،
 وقد كن أقوى هؤلاء الرواد يحيى المعتسل أو يوحنا المعمدان وإن لم يكن هو
 الرند الوحيد في طريق الرسالة والسيرة، فجعل لتطهير رمز من الاعتسالي
 بالماء وأثارها حملة شعواء على بؤرة الفساد في زمنه وهو بلاط الملك هيروود،
 فإبها النورة التي استبج فيها الفجور بالمحارم والبياء بهن على غير شريعة
 وقتل الأجرة والأناء وتنتيس العبادة والقداسة بالبذخ والفسادة على المنكرات،
 فكنت حسارة النبي على التطهير كفتل حسارة المدافعة لأتيم على النسس
 والحياة، وقصى على الرسول أن يكون عاجل الرسالة في حملته الصراح
 وخرج من الميدان شهيداً يحر وراءه حثة ميت يقبذ الحياة، فإن جسد هيروود
 قد أكله الدود قبل دفنه، وإن عهدده قد وصف نفسه أصدق صفاته حين بنى
 رأس النبي هدية لراقصة مبدولة لجسد، ولا جرم يكون عصر «مضى
 المعتسل» عصر رسالة عاجلة أو عصر رتياد وتمهيد هجمة من هذا وهجمة
 من هناك، ثم تبدأ المعركة التي تستوفي الميدان كله، ولا ننسى ما بين صباح
 ومساء.

الحياة الدينية في العالم

في عصر الميلاد

بلغت الدولة الرومانية على عهد الميلاد غاية مداها، وبخلت في حورتها أعم العالم المعمور كله، ما عدا الشرق الأقصى، وأصبح من رعاياها أساس محققون في الجنس واللغة والعقيدة، فشوهت في رومة والإسكندرية وبابلس وبيت المقدس كل عبدة يدين بها البشر من محوم الهند إلى الشواطئ الأطلسية وكثر الحديث بين الناس عن الأرباب والأديان والمذاهب والعقائد، وتبادل المفكرون والفلاسفة البحث فيها بعد انتقال مدرس الحكمة والعلم إلى الإسكندرية وتلاقى الحكماء والعلماء فيها من كل مذهب وكل عقيدة، ونعوى الناس أن ينظروا إلى الأمور نظرة عالمية وبخاصة بين أهل الدرس والناسم والمطالب الروحية.

واعظم من هذه لبطرة لعالية أثراً في موضوعنا - حياة المسيح - أن عصر الميلاد قد شهد هذه موحدة دينية تجري من أشرق وعمر بلاد الدولة الرومانية نفسها ومنها أعصمه الكبرى، خلافاً لما يسبق إلى الظن من غلبة العفند تبعاً لعبية لقوة السياسية.

فلم تكن سيده الدولة الرومانية على الشرق مقدمه لسيادة لديانة الرومانية كما جرت العادة في كثير من أطرار التاريخ بل حدث على مقيض ذلك أن عقائد الشرق هي التي عبت على رومة وتناعها، وهي التي أنقلت من الأمم المحكومة إلى الأمة الحاكمة وجاءت المسيحية بعد ذلك فتم تكن استثناء من هذه القاعدة بل كانت تطبيق جديد لها أعم وأوسع من كل تطبيق متقدم عليها.

وليس في الأمر مخالفة للسفن الطبيعية كما يشر إلى الدهر لأول وهنه فإن سريان العقائد من الشرق إلى العرب في تلك المرحلة كان هو السبب الطبيعية التي تؤيدها جميع الأسباب ولا ينقضها سبب واحد صالح للتعليل.

كان اتحاد النحل الشرقية موافقاً للقياصرة وموافقاً للرعياء في وقت واحد، فقد كان القياصرة بطمعون في الربوبية وكنوا يسمعون أن كهان المعابد في

الشرق يعلنون حلول الآلهة في أجسام الملوك، ويرشحونهم للعبادة ولم تزل المادة بالإسكندر ابنا للإله «أمور» خسرا يقتله المطلقون على سيرة ذلك الفاتح ويتشبه به منهم من يطمح مثل طموحه ويهتج مثل فتوحه وحر هذا المطمع العريب إلى فتنة عنيفة في وطن السيد المسيح حين تصدى الملك بطيوس حلفاء الإسكندر - بطلب الربوبية ومعنى نفسه بالإلهي أو صاحب الشرة الإلهية.

وقد كان دعايا الدولة الرومانية خليطا من الشعوب المختلفة، وسرى هذا الاحتلاط إلى الجيوش التي كانوا يسوقونها إلى المشرق ويتركبوها فيه زمث ثم يتعمسون إبقائها ثمة بعض الأحيان ابقاء لئلا عانها كلما أطالت ابقاء في العاصمة، ولم يكن من شأن هذا الخليط أن يتعصب لعبادات رومه أو يعرض عن عبادات غيرها فوافقه أن يتشبه بالمشاركة كما حدث في عهد الإسكندر وأن بطلب الربوبية من القيصرية !

ولم تزل سمعة الشرق عند العربيين منذ القدم انه هو مهبط الأسرار العلوية وأنه تعلم من خبير السماء مالا تعلمه الأمم العربية، وأن كهان لشرق سحرة يطلقون على لعب وبعثون إلى موطن الديابات وكلمة السحر عندهم Magic مسوية إلى المحوس، والسحر اببلى في كل لغة مصوب امثل من الزمن القديم إلى الزمن الحديث، ونوفيت الزمن بالاسابيع التي يسيصر كوكب من الكوكب على كل يوم منها ثراث شرقي موغل في القدم، لا تزال بقاءه في التقويم الأوربي من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب.

فلا عجب أن يؤخذ القوم بهذا السحر ويسلموا لأبناء الشرق بأخبار السماء وأسرارها مادامت الأرض في أيديهم يحكمونها كما يشاءون، ويحبسون من الكهان والسحرة من يبايعهم عليها باسم السماء !

لهذا زحفت على العالم لروماني حلة «مثرا» ونحلة «إيريس» ونحلة المنتطسين كما زحفت عليه حلة أورفيوس اليونانية من سيبا الصعري، ومرجعها هي أيضا إلى لشرق القديم.

وقد شهدت آثار العبادة المثربة في أقصى قطار الدولة الرومانية من المغرب شهدت هي آثار السور الروماني للبلاد الإسطيرية كما شهدت في غيرها، وشاعت العبادة بين شبان الحيش لأن «مثرا» كان شخصية مربوحة تجمع بين صفتين محبوبتين إحداهما صفة النور لدى يبدد الظلام والحق

الذي يمحى السطر، والأخرى صفة المناضل رب الجنود الذي قيل في كنف المحوس المعروف بكتاب «لافسيا» أنه يسوق جحافه منتصرا لتغليب له لحير أورمزد على إله الشر أهريمان، وهو كدات إله محبوب عند غير الجنود كالرعاة والعاملين بالليل، يعبد الرعاة والملاحون ويهيمون بنوره في أعينهم البلية، ويعتقدون أنه يولد في الجسد الآدمي كما يولد الفراء في كهف مهجور، ولهذا يتخذون له المعبد من الكهوف وربما حنبله إلى العباد ذلك، لتحيز اليهود في لباس إلى سيطرة الأسرار ولطموح إلى الترقى في درجات العلم بالمجهول، فقد كبت لعباده درجات سبع يسفلون فيها من درجة إلى درجة على أيدي الأئمة الحباريين، ويتعاطون الشعائر في كل احتفال سرا أو جهراً على ملا من الصفوة المقربين، ومنها تناول الخبز وعتار الشهد المقدس لدى يوضع على اللسان رمزا إلى حلاوة الإيمان.

وامررت نحلة «إيزيس» المصرية بنحلة (مثرا) لفارسية في غزو بلاد الرومان واليونان، فسماها اليونان «ديمتر» وتخلوها صفتها المصرية وهي صفة الأمومة الكبرى أو صفة الطمعة الأم، وكان عبادها يوحدون بينها وبين القمر ويعتبرونها من ثمرة البحر والملاح، ويرسمون لها صورة حميطة تم على لطهارة والحنان وفي حضنها طفل رشيع يشع النور من وجهه رمز الأمومة والبر والبراءة، وكان كهدها يحلقون رؤوسهم في العرب محاكاة للكهنة المصريين، وكان لها عبيدهم عابدون وعبادات بسمونها حامية البيت والأسرة، ومن ثم شيوع عبادتها بين الرومان الذين اشتهروا بنفاليذ الأسرة وتقديس حقوق الآباء، ولأشك أن المراسم السرية التي تلتزم نحلة إيزيس كان لها أثرها في تشويق الناس إلى بتحابها كم كان لها مثل هذا الأثر في عادة مثرا وم شابهها من العبادات.

وخرحت من مصر أيضاً نحلة قوية على قلة عدد المتحمين إليها، وهي نحلة المنتطسين Therapeus التي ذكرها الحكيم الإسكندري ليهودي قتلون، وكان إن ابتاعها كابوا يجنمسون يوم السبت ويتفرسون بعد ذلك في الصوامع للتأمل والدراسة لفلسفة ورياضة الروح والجسد وأسمهم اليوناني معناه الأساة أو المنتطسين، وأكثر صوامعهم كانت على مقربة من الإسكندرية حول بحيرة مريوط القديمة ويظن بعض المؤرخين أن هؤلاء المنتطسين هم أساتذة السبال اليهود الذين يسمون الأسين أو الأسيفيين، وأشرنا إليهم في الكلام على فرق اليهود.

ومما يلاحظ أن فحلة «أورفيوس» اليونانية لم يكن لها من الأشياء بين
الرومان ما كان يلحل الشرقية الخالصة، ولعلهم كانوا يحسبون «الأسرار»
الدينية اختصاصاً للشرق القديم ويرجعون إلى اليونان في مسائل لفلسفة
والفن والخطابة، وبخاصة بعد أن تحولت الديانة «الأورفية» إلى ديانة شرقية
بحري على سبيل الشرق في التفشي والأخوة الروحية، وقد نشأت الأورفية
ليوباوية بشاة فنية، وقيل في وصف أورفيوس أنه كان يعزف على أوتاره فيقبل
عليه الوحش واسم الطير وتنسى صراويلها وهي تصق إلى ثم أصبح لتأليف
من الصواري والنعيم رمزاً إلى السألف بين القلوب وانتزاع البشر من نفوس
الأنبياء، وجاء عصر الميلاد والأورفيون يديون بالرهة والتفشي ويحرمون
الحموم ويلبسون ثياب البيض ولا ينوقون الخمر إلا في مراسم القربان،
واحتفظوا بعقيدة اليونان لأقدمين في أساطيرهم عن أورفيوس الفنان فزعموا
أنه يرور عالم المهوى ويعود منه، وحصلوا لهم موعداً يحزنون فيه على موته
وموعداً يحتفلون فيه ببعثه، وبشابه الاحتفال ببعثه، والاحتفال ببعث أدونيس إله
الربيع، وكثيراً ما قيل في كتب المقابلة بين الأديان أن آمون الإله المصري
وأدونيس، إله اليوناني وأدوناي بمعنى السيد أو الرب باللغة العبرية أسماء عدة
ترجع إلى مصدرها المصري القديم.

ومن الواضح أن هذه البطل التي كانت مصطفى الأعضاء والمريدين وتحفظ
بالعبادات والرموز للصلوات السرية لم تكن دسات عامة ببشر لأمم كافة
بظواهرها وخوافيها، وإنما كانت هي جوهرها أشبه بالروابط والجماعات التي
تصم إليها المشتعين بقرص واحد أو المتفقين في المزج والعصفة، وكنت أقرب
إلى الجماعات الغيبية لرياضة التي تقوم على تحريم الأنواق وتوحيد العلاقات
بين الأشباه واسطراء، فكان طلابها جميعاً من الشبان الذين يستسلمون حقائق
حياتهم المجهولة ويعتقدون أو يرجحون أن هذه الحقائق سر من أسرار العلم
والدرية يهديهم إليه الحكماء المحرمين المربين وكان لها صلاب من الكهول
والشيوخ بطلت عقيدتهم هي الشعائر العامة فانصرفوا عنها إلى حيث يتفلسفون
الصفيفة ويشعرون براحة لصمير في جو من الآلهة والفق المصالب النفسية
و لفكرة، فمن لم تكن هذه لحل عنده حلقاب رياضية أو غبية فهي عنده بمثابة
الأساية التي تصون روادها من الأحلاط و«الأعبار» ولا سيما الأعبار من ذوي
الحاله والإسفاف.

وتكن الدلالة الكبرى التي تتجمع من شيوع هذه النحل في عصر ميلاد أنها «أولاً» علامة على طلب الاعتقاد وإحساس المخلصين المستعدين للإيمان بما يحيط بهم من الحواء في جو التقاليد والمعتقدات.

وأياً «ثبناً» علامة على التوجه العالمية التي أخذت تسرى في أنحاء العالم المعمور وتؤلف بين أبناء الأمم المختلفة في طلب العقائد الروحية، لأن هذه النحل السرية لم تكن مقصورة على أمة ولم تكن محرمة على أحد من أهل جنسه وأصله، فكل من يفتح وحدانيه لعفنديها وإلهها فهو مقبول فيها مرشح لدرجاتها من أدناها إلى أعلاها

أما جماهير الشعوب فلم تكن تحفل كثيراً بهذه النحل الخاصة المقصورة على طلابها ومريديها. وكانت على أدائها سائرة في عاداتها ومألوفاتها، ولكنها لم تحل في هذه العادات والمألوفات من وجهة عامة ترع الهوارق بين أتباع الديانات المختلفة وتصممهم جميعاً من حين وحر إلى محافل لأعلاء العامة التي تقام لهذا «الرب» أو لملك «الربة» أو يردد في موسم الطبيعة بصيغتها التي كانت يدرج بالدين على عادة الأقدمين، وكانت سياسة الدولة الرومانية تساهل هذا الشعور من تشجيعه وتحص عليه، إذ كانت القاعدة الذهبية عند دهاين السياسة من الرومان أن الشعوب لا تهتم بمن يسوسها متى وجدت الصبر واللعب بين يديهم، ومن اللعب الذي لا يكلف الدولة شيئاً أن يقرح جماهير العامة بالألعاب وتتسابق في لمواسم والمولد وتصيغها كما تشاء بصيغة لعدة، فذاك أسلم من التنازع والفتنة والصدام.

وحملة ما يقار عن الحياة الدينية يومئذ في العالم المعمور أنها كانت حياة تقيد أو حياة نطع ورغبة في الاعتقاد عن بحث وبيئة، أنفة من عقائد التقليد، وأنها كانت تجري في مجراها إلى «العالمية» التي تعم الناس ولا تخص كل أمة بعقيدتها على حسب جديسها وأصلها، وأهم من هذه العالمية في النحل والمحافل «عالمية» في اللغة والثقافة حطمت أقوى الحواجز التي كانت قائمه قبل ذلك زهاء عشرة قرون، فقد كان العبرانيون يؤمنون أن العبرية هي لسان «يهوا» الذي يخاطب به الأنبياء وينجي به الكهان في المحارب، فلم يمتثلوا أن قبلوا الدعاء واستمعوا إلى كتب الوحي باللغة الآرامية، وما مضابها من النهجات السريية ثم سمحت طائفة كبيرة منهم بمرحمة السوراة إلى اللغة اليونانية في القرن الثاني قبل الميلاد، ثم استرسلت هذه الحركة إلى مداها في عصر الميلاد وما

بعده، فكانت الآرامية هي اللغة التي بشر بها المسيح وإتلاميذ، وكانت اليونانية هي لغة الأناجيل، وكانت السريانية لغة السور، والإنجيل معاً ولما بقض أكثر من قرن واحد على مولد السيد المسيح

وأهم الطواهر التي تسجل في سبق الكلام على الشؤون الدينية العامة قبل الميلاد أن العقائد الوثنية كانت هي حالة أشبه ما تكون بحالة التصفية قبل شهر الإفلاس، فقد روى المؤرخ سسوينوس أن القيصر أوغسطس جمع في سنة (١٢ قبل الميلاد) قرابة ألفي قرطاس من ثبوءات والصلوات المكتوبة باللاتينية والإغريقية وأمر بها فأحرقت علانية واحتفظ بقليل من المحفوظات الماثورة ووضعها في صندوقين مذهبين ونقلها إلى معبد الإله أبولون، وفي هذا الصبر خلاصة أخسر العقائد الوثنية في ذلك الجيل.

الحياة الفكرية

في عصر الميلاد

كست المذاهب الفكرية التي يتحدث بها المثقفون شائعة في بلاد الحين حيث ولد السيد المسيح، وحيث احتلظ الغربيون والشرقيون كثيراً قبل عصر الميلاد بنصفه قرون، وأكثرها الفيتاغورية والأبيقورية وأروافيه، وهي التي تعنيت فضلاً عن شهرتها، لأنها هي المذاهب التي تتخص بالسلوك ولاعتقاد ومنها مذهبان طهرا بين اليونان في عصر يشبه عندهم العصر الذي ولد فيه السيد المسيح، وهم الأبيقورية والروافية، فإن هذين المذهبين - على تنقصهما - رد فعل لحياة واحدة عمرت البلاد اليونانية بعد انصارها على الدولة الفارسية، وهي حياة الحرف والتدح والبهو والطعن من جانب السادة وحالة النعمه من جانب العبيد واسحرين.

وهذه المذاهب الثلاثة تتلاقى في عادة واحدة هي طلب السكينة والراحة، إلا أن الفيتاغورية التي ظهرت قبل عصر الترف والسلطان كانت أقرب إلى الروحانية والمزج بين عقائد الأمم المختلفة من اليونان ومصريين والعرب والهنود، وهي حميع أقرب إلى ليشاة الشرقية، لأنها نشأت بين قبرص واسيا الصغرى.

وقد كان أنبا ع فيثاغوراس طائفة تحتمع في «خوه» داب شعائر وصلوات، بعضها معقول وبعضها من قسرين المحظورات وأحرمات التي تشع بين القبائل البدائية ويسود عنها عادات مقدسة أو امتناعاً عن بعض اعبادات، وقد كانوا يعتقدون في ربسهم فيثاغوراس أنه ابن الإله «أبولون» وأنه لم يميت وسيبعث بعد حين. لأنهم يؤمنون كأهل الهند بناسخ الأرواح، وأن الروح في الصند عريبة تلمس لكك ولا مكان لها بغير صالح الأعمال، وهم يخرمون أكل الحيوان ويحرمون كذلك كل الفول ويستحسنون احناب القول على العموم، ومن محرمانهم العجبية ألا يأكلو من رعيص صحيح وألا يستقطوا شيئاً وقع على الأرض ولا يقطعوا ازهر من الشجر ولا ينظروا في المرأة إلى جانب النور، ومهم من كان يعظ الحيوانات لأنهم يؤمنون أنهم يخاطبون أرواحاً

سكنها إلى حين، وعندهم أن الناس درجات؛ بشر ونصاف من بشر وألهة،
وفيثاغوراس أحد هؤلاء.

وكان فيثاغوراس يقلل الرجال والنساء في أخوته ويوجد المشاركه في
الاقوات والمقننات التي تصل إلى أيدي الجماعه، ويؤمن أنبأه بعد موته بأنه
يلهمهم الكشوف العلمية ولقد هم عضات الحكمة والخلائق الحسنة وأن الحياة
كنت «فرجة» عنده وهي كذلك عند من يشبهوه، فنعالم في رأي الفيثاغورس
كساحة الألعاب الأولمبية، يقصدها أناس للنكس وهم أحسن الرابرين،
ويقصدها أناس للمباراة وهم فوق ذلك، ويقصدها أناس لفرجة وهم أرقى منهم
جميعاً، وكذلك الفلاسفة الذين يزورون الدائم للتأمل والنظر هم أرفع المتكسبين
والمتنازعين على جوائز اميدان.

والأفكار الفلسفية نفسها هي وحي من الله، ويردون اشتقاق الكلمة ثيوري
«Theory» إلى اسم الله ثيوس Theos باليونانية، فكل حكمة عندهم فهي من الحكمة
الإلهية يتلفها، لماحت بالرياضة والمباحاة «والانسحاب» بينه وبين موسيقى
الكور، والكور كنه عندهم بسب عددية موسيقيته وصوره كماله عدد الأربعة،
ولعله كذلك عندهم لأنه يجمع العناصر الأربعة التي تخلق منها جميع الأشياء.

وقيل أن بهم أعرض سياسييه وإيهم كنوا يحامرون على الدولة في اجتماعاتهم
السرية وقد عاش فيثاغورس في القرن السادس من الميلاد وساح في بقاع العالم
المحصور كله، وبقيت نحلته أو أخوته في جميع الأقطار، ولا سيما الأقطار التي أقام
فيها اليونان المستشرقون.

أما الأبيقورية والرواقية فقد ظهرت في عصر واحد، وانتشرت بين متقنين في
جميع أنحاء العالم المعمور ويبدو عليهما أنهما متناقضتان ولكنهما في الواقع
متقربتان أو يمكن أن تتقاربا عملاً على حسب لتفسير والسكول في المعيشة.

نشأ أميقور بين القرن الرابع والقرن الثالث قبل الميلاد، وولد على الفول
الأشهر في حريرة ساموس على مقربة من شواطئ اسيا لصعري، ولاد
بأسما الصعري مع أهله هرباً من الاضطهاد، وقد أقبل على دراسة الفلسفة
وهو في نحو الرابعة عشرة، ومنتج مدرسته في حديقته المشهورة بأثينا سنة
٢١١ قبل الميلاد وهو في نحو الثلاثين.

وإذا قسيت فلسفة أميقور على معيشته لشخصية فهي حياة سناك متقشفين،
لأنه كان يعصى معظم أنامه على الخبز والماء أو على لحم ولحي، لكن اسمه

اقتترن بالذات والشهوات لأنه كان يعصم تلاميذه أن السرور هو غاية النجاة وأفضل السرور ما لم يعقب ألماً ولا ندماً، ولهذا كان يجنب الشهوات البهيمية ويجعلها من قبيل السرور «المتحرك» وهو السرور الذي يقتترن بالجهد ويعقب التذامنة والعناء، وقد كان يقسم السرور إلى نوعين: سرور متحرك وسرور مستقر أو ساكن، وأفضلهما كما تقدم سرور المسكينة والاستقرار ويعنى به سرور التأمل والراحة والقناعة.

وكان أبيقور يقبل في مدرسته العبيد والراقصات والمأخورات ولا يرى حرجاً في طلب السرور حيث يوجد بريقاً من الألم والندم، من لا يرى كيف يتخيل الحكيم «الجر» إذا أخرج من حسابه مسرات الدوق والنظر والسمع، ومن أعرض عن سرور يستطيعه في غير ألم ولا ندم فهو أحمق وليس بحكيم

وقد أثنى أبيقور على الديانات اليونانية وعبرها من ديانات زمانه أنها محشوة بالحرافات والأكاذيب، وعلم تلاميذه أن الآلهة موجودة ولكنها مشعولة بسعادتها عن شئون الدنيا فلا قدر لها فيها ولا قصصاء، ولا فرق عده بين الأرباب والمخلوقات إلا في لطافة المادة وبقاوة التركيب فكلها من المادة وليس لغير المادة وجود..

ومن هنا كان يقلل من تفسير تطواهر الوجود يرجع بها إلى الأسباب الطبيعية، ويرفض كل ما كان مرجعه إلى الأرباب والعيوب، ويواجه الموب نفسه على مذهبه في السرور ولألم، فإن لم يكن في الموب مسرة فهو خلاص من الأم الحياة، وبهذا شاع مذهب أسقور في عصور لشك وإسماء وفهدان اليعين والإيمان بالعناية، وفضله المكذبون بالديست على مذهب الرواعيين لأن الأسقورية - خلافاً للرواقية - لا تعفى أصحابها من التكليف ولا تفرص على عقولهم أو ضمائرهم واجباً يتنقل على كواهلهم، ولكنها مع هذا كانت تجمع قواعدهم ووصاياهم في أصول منظومة أشبه بالأوراد الدينية التي يستظهرها المريد وترسمها ترسم الإيمان والعبادة.

وإذا أردنا تلخيص المذهب الروافي في كلمتين اثنتين فهاتان الكلمتان هما الصبر والعفة

الصبر على الشدائد والعفة عن الشهوات، ولا سعادة للإسمان من غير نفسه وصميره، فمن راض نفسه على مغالته الألم والحزن وقمع الشهوة ولهوى فقد

بلغ غايه السعادة المقنونة لأبناء العناء، وهم يؤمنون بالقدر ويعتقدون أن الكون كله نظام متقن سبق بجرى على حسب المشيئة الإلهية، والوحى والرؤيا والقال وطولع النجوم من وسائل العلم بأسراره وحفاياه، ويؤمنى الإنسان بأن العقل مع الآلهة وبأنجسد مع الحيوان الأعجم، وفصيلته الإنسانية هي أن يطيع العقل ويعصى الجسد، وعصاياه الحسد هو مقاومة الشهوات، وطاعته العقل هي طلب المعرفة، وسعادة الإنسان كلها هي السعادة التى تنتهى له من الاستعناء عن الشهوة وتحصيل العلم، فما زاد على ذلك من السعادة فهو وهم لا يدرك أو هو فصول لا خير فيه.

وقد مشأ الروافقون الأول ماديين يؤمنون بأن الوجود كله أصل واحد، ولكهم تدرجوا فى الروحانية وانتهى خلفاؤهم فى عصر الميلاد وما بعده إلى الإيمان بحرية الروح هي مواجهة لمادة، فالإله الأكبر «ريوس» لا يستطيع أن يجعل الجسد حرّاً من قيود المادة ولكنه يعطى قيساً من روحه الإلهية نصيح بنعمته إخواناً لا يعرق بينهم وطن ولا جنس ولا لغة وأينب يكونوا فهم مع الله، لا حاجة بهم إلى هيكل أو معبد، هبما القداسة فى النفس التى تعبد وليست لقداسة فى مكان للعبادة يصنع البناء والحداد. ومن صلواتهم الصلاة المشهورة، التى أثرت عن رعيهم كليبنتس قبل الميلاد (٢١ - ٢٢٠) حيث يناحى ريوس قائلاً « هدى ب ريوس، ايها القدر خذ سدى إبنى حيث ردت ان ترسلنى، خذ ييدى أنعل عير مكص ولا وحل فبر خامرى للريب فأحجمت ونريثت فمن اتبعك لا مهرب بى ولا نجاه »

« يسع الرواقى طريق لقدر لأنه هو احير وليس هو الضرورة وكفى فإن الاله الأكبر لا يرب شراً ولا يحنقه، وما هذه الشرور التى فى الدنيا إلا نقائص محنومة يستلزمها وجود الخير ولا يفعل الخير بغيرها فلا محل للراحة بغير التعب ولا محل للشمع بغير الجوع ولا محل للرحمة بغير القسوة، وإذا كانت القسوة رذيلة فالرحمة التى تسلم النفس للحرز والنعم ليست بالقضية الإلهية، وإنما تكون الرحمة فضيلة إذا تنصرت كما يتبصر الإله فى قضائه، فتتكر القسوة ولا تخضع للحرز والنعم بغير حيلة، فإن الحكيم يحمل فى حكمته تريق كل سم وبواء كل بلاء.

وقد أخذ الروافقون من الهند - بسنبل ميتاغوراس على ما يظهر - أن العالم ينقضى ويعود فى دورات أبدية لا تعرف لها نهاية، واعتقد بعضهم أن أرواح

الحكماء تبقى هي كل دورة إلى ههينها، ثم يشملها ما يشمل العالم كله من حريق ابدى الأبدية وهي النار التي تظهر جميع الموجودات لتخلص من أوشبها ثم تعود نواليت في وجود بعد وجود وعالم بعد عالم وقيامه بعد قديمة.

والمدسة الرواقه بأسرها مدنة للأمة الشرقيين ولا سيما القطين الكبيرين هي هذه المدسة زينون (٢٤٠ - ٢٧٠ قبل الميلاد) وبوزينيون (١٣٥ - ١٠١ قبل الميلاد) فهم جميعاً من لفيفقيين أو من اليونان الذين استشرقوا وأقاموا منذ زمن في البلاد الشرقية، وخلاصة مذهب الإمام الروافى لأكر - ربيون كما لخصه في كتابه عن الله «إن الإله جوهر بومادة» Soma و أن الكون كله هو قوام جوهر الإله، وأن الإله يحلل أجزاء الكون كما يتحلل العسل قرص الحلات، وأن الناموس Nimos - وهو عبارة أخرى مرادف للعقل الحق Onthos Logos، والكلمة الحق - هو والإله ربيوس شيء واحد يقوم على تصريف مقادير الكون، وكان ربيون يرى للكواكب والأيام صفة إلهية ويعتقد كما سلفه أن الفلك ينهى بالحريق ويستكن في ناره جميع خصائص الموجودات لفعله وأسمائها ومقاييرها، فعنونه كره بعد كره بفعل العن وتقديره ويشملها قصاء مرم وقنون محكم كأنها مدنية يسهر عليها حراس الشريعة والنظام، ويتردد عنده معنى الله والعقل والقدر وربوس، فكلها وما شابهها من الأسماء تدل على موجود واحد، وقد كان هذا الموجود الواحد منفرداً لا شريف له فشاء أن يخلق انديا فأصبح هواء وأصبح لهو ماء، وحررت في الماء مادة الحلق Sparmatikos Logos كما تحرى مادة الوليد في الأحياء، فبرزت منها مبدئ الأشياء، وهي البر والماء والهواء، والثراب، ثم برزت الأشياء كلها من هذه المبادئ على التصريح، وتعريف القدر عند زينون أنه القوة التي تحرك الهوى، وهي قوة عاقلة، لأن ما يتصف بالعقل أعظم مما يجرد منه، ولا شيء أعظم من الكون Cisman فهو عاقل لأنه عظيم ويفسر زينون تعدد الآلهة في معتقدات العامة بأنهم بحثوا عن الله في مظاهر الطبيعة لمكائره فعدوها وبسجوا حولها الأساطير من تشبهت الحيات، ولكن هذه تشبيهات إن في إلا رموز مجازية تدل على حقيقة واقعية».

وأخر الأقطاب الرواقين قبل الميلاد بوزينيون الذي اشرب إليه كان يعلم بتلاميذه أن الأرواح لا تبقى بعناء الجسد وأنها ترتقى صعوداً في أسماء على حسب ارتقائها في المعرفة والفضيلة فمن الأرواح ما يرفرف على مقربة من الأرض ومنها ما يحق بين الأهللاك العلى ويسبح معها ويجمع بالنصر إليها

والاستماع إلى ألقائها في مسراف إلى يوم القيامة. وقد كان هذا الحكم معيباً بالهند في بحوثه الجغرافية الفلكية كما كان معيباً به في بحوثه الفكرية الدينية، فقرر فيما رواه عنه صاحب كتاب «لرواقيون والشكوكيون» Stoics and Sceptics إن المسافة بين قادش والهند سبعون ألف ستادة، وهي مقياس يوناني يساوي نحو مائة وخمسة وسبعين متراً، ويقال إن هذا التقدير كان في حساب كوسس عسما قصد إلى الهند من طريق البحر الغربية.

ويتفق مؤرخو الفلسفة على قوة الأثر الذي أعقبته المذاهب الرواقية في العالم الروماني إلى أقصى أطرافه، وتظهر قوة هذا الأثر وسعة مداه من اتساعه لتبشير الملوك ولأرقاء بعد ظهور إمامه لأول - زينون - بنحو أربعة قرون، فكان من أئمه العبد الرقيق ابكتيس (٦٠ - ١٠٠ بعد الميلاد) والإمبراطور الكبير ماركس أورليوس (١٢١ - ١٨٠ بعد الميلاد) وفاخر بالانتماء إلى هذا المذهب قادة ورؤساء من النجس زاروا الشرق وأقاموا فيه.

أما فلسطين خاصة حيث ولد السيد المسيح فقد كان هذا المذهب ومذهب الأسقوريين يتقاسمان فيها أفكار المتدينين وغير المتدينين، وتغلغل المذهبان بين الطوائف الإسرائيلية كأنهما ريس من أزياء لثقافة التي يقرأعي بها أدعياء العلم والمدنية، فكان الصدوقيون يميلون إلى الأسقورية وكان الفريسيون يأخذون بالحكمة الرواقية على كراهتهم للتشبه بالأحانب، ولكن شيوع الأقطاب الشرقيين بين الرواقيين كان يصيب بطلهم بالصيغة الوطنية التي لا يتحرج الفريسيون من محاكاتها تمشياً مع نزعهم إلى التجديد.

ومن المصائد التي تساعد على تتبع أثر المذاهب الفكرية في العالم الإسرائيلي أن عصر الميلاد أحب أكبر الفلاسفة الإسرائيلية في العصر القديم وهو يهودافيلون، الذي ولد بالإسكندرية سنة (٣٠ قبل الميلاد) ومات سنة (٥٠ بعد الميلاد) ومرج هي فلسفته بين عقائد عصره ومذاهبه الفلسفية من كل مذهب ولا سيما من الإغريقية الإسكندرية. وقد أخذ القول بالكلمة Logos من الرواقيين عن هيرقسطس أول القائلين بها في الزمن القديم، وقال إنها هي واسطة الله في علاقته بهذا العالم وأخذ يفسر الرموز الدينية من العبادات السرية كعبادة إيزيس وعبادة اوزيريس سرافيس التي أسست بالإسكندرية وتبرعت هي أثيث ويومس وروما وبعض المراسم الأسيرية ثم طبق هذا التفسير على رموز التوراة فشرحها شرحاً عقلياً يخالف في كثير من المسائل شروحها

التقليدية، وقار في كلامه عن خلق العالم إن موسى عليه السلام لم يأت بأسلوب كئسوب أصحاب الشرائع الذين يحصرون أحكام قومهم في الحلال والحرام بغير تصرف ولا تنقيح، ولا بأسلوب كئسوب أصحاب الشرائع المبهمة التي محيط بها لالعاز والرياءات، و نه روى قصة الحليفة روية تتضمن أن الدنيا مصابقة للنظام (أو الشريعة) وأن النظام مطبوع للناس، وأن الإنسان الذي يسمع الصوامع موطن صالح للعالم كله، يسير في عمله وفقاً لشئنة الصلابة التي تسير الدنيا كلها وفقاً لشئنتها.

وقد كان ميلون رواقياً على حافة الأنيقورية، فقال في كلامه عن إبراهيم مفسراً اسم إسحق «إن معنى إسحاق في لغتنا الصالح، ولكن الصالح هنا غير الصالح الذي يأتي من سرور الجسد، فهو سرور المعرفة الصالحة، هذا هو الفرح، هذا الفرح الذي روى لنا أن الحكيم إبراهيم قدمه قرباناً إلى الله مبيناً ذلك في هذا الرمز أن الفرح على صلة وثيقة بالله وحده. إذ الإنسان عرضة للحزن والخوف من الشرور الحاصرة والموقعة، ومن الحزن ولا الخوف من طبيعة الله».

ومذهب فيلون في الصلاة أن الإنسان يصلي شكراً لله على ما في الكون كله وحلائقه كلها ومنها بنو اسم جميعاً رجالاً ونساءً ويومان وبراره، ومنها ذات المصلى جسداً وروحاً ومصطفىً وعقلاً وحسناً، فإن الصلاة على هذا المثال جذيرة أن تستجاب.

وينقسم الإنسان عند فيلون إلى ثلاثة أقسام ولابد الأرض، ولابد السماء، وولابد لله، هوليد الأرض من يطلب متاع الجسد، ووليد السماء من يطلب متاع الفكر، ووليد الله من تحرر عن الدنيا وأقبل بجملته على عالم فوق هذا العالم معصوم من القاء براء من المادة، في زمرة الهداة والمرسلين.

وليس فيلون من دعاة العزلة في الصوامع، لأن اختلاف المكان لا يمنع شيئاً وإنما الحير كله من الله حيث كن، وهو كائن في كل مكان يهدي ركاب الروح إلى حيث يشاء.

كذلك لم يكن يستعظم ضحية القرايين كما قال في كلامه عن الشرائع الخاصة، «إن الله لا يفرح بالضحايا ولو حسنت بالثبات لأنه مالت كل شيء ومعطى الناس كل شيء ومن عطاياه تلك الضحايا وقد يكون التقرب بحبر الشعير أقوم عنده من التقرب بالنفاس والدخان، بل من تقدم إليه بنفسه لا

يحتقِب شئاً عبر الصديق وخلوص النية نكرم عنده ممن يبدل الأموال وسىء الأقوال والأفعال».

وقد كان قبلون عملياً بخاطب بنى الإنسان كافة، وكان يقول إن إسرائيل إنما سُمي بهذا الاسم لأنه ينظر إلى الله، فكل من نظر إلى الله إسرائيل ولكن هذه الدعوة انعاسة لم يصرفه قط عن العصبية القومية، ولم يبس قط في كلامه عن بنى إسرائيل أنهم هذه الأمم، وأنهم أحق عشائر الإنسان بإعجاب جميع العشائر، فإن الآثيين يرفضون شعائر القدموبيين، كما يرفض القدموبيون شعائر الآثيين، ولم يعهد في المصريين أنهم يأخذون بتقاليد السيثيين، أو هي السيثيين أنهم يأخذون بتقاليد المصريين، وأهل أوربة يعرضون عن عادات أهل أسيا وأهل أسيا يعرضون عن عادات أهل أوربة، ولكن اليوم السابغ الذي يستريح فيه اليهود مرعى الحرمة عند جميع الأقوام، ويوم الكفارة من كل سنة أقدس من أشهر احرام هي عرف الإعريق؛ إذ هو شهر يبطل فيه القتال ولكنه يغرى الناس بالإفراط في الشراب والطعام وشهوات الأحسان، وشين هذا من موسم الصيام عند بنى إسرائيل.

يقول هذا عن قومه، هي كلامه عن حبة موسى عليه السلام، ولكنه يقول في كلامه عن الشرائع الخاصة أن إسرائيل بين الأمم كالبيم لمصع بين الغرياء، لا يأخذ بناصرهم أحد إذا تألفت الأقوام وتعضبت العشائر، وديهم عند الناس أنهم يدينون أنفسهم بالفرائض الصارمة ويتزمتون هي المعيشة والصرامة ثقيلة على الطباع والبرمت بغيض إلى النفوس. ومع هذا يقول لنا موسى إن يتم إسرائيل يستجلب لها شفقة الله مدبر الكون الذي وقعت إسرائيل من نصيبه وبرزت من العالم كما تقرر بواكير الثمار هدية للحديق والآب الرحيم».

تلك غاية الشوط الذي انتهى إليه مسون في زمعه ولا يعتبر قبلون من الأئمة نوى الاتباع في الديانة الموسوية، ولكنه يعتبر نموذجاً صالحاً لتلك الديانة كما يفهمها الحكيم المطلع المتدين في أوئل عصر الميلاد.

الباب الثالث

تاريخ الميلاد

أرض الجليل

ولد السيد المسيح بأرض الجليل - أو جليل الأمم كما كان يسميها الإسرائيليون، لأنها كانت إقليمًا مفتوحًا لجميع الأمم الشرقية والغربية، ولم يخلص سكنه للإسرائيليين وحدهم في زمن من الأزمان.

ومعنى الجليل بالعبرية الدائرة الإحصاء، لأنها اتسعت لكثيرين ممن يحال بينهم وبين الإقامة في بلاد أخرى من فلسطين ولا سيما الجنوب.

وكانت الجليل جزءًا من أقاليم الشاطئ الشمالي التي عرفت في التاريخ القديم باسم كنعان، ثم أطلق عليها اليونان اسم «فينيقية»، من اللون الأحمر عى ما يظهر، وهو لون الصخور والحبال.

وقد امتازت كنعان قديمًا بالموانئ الصالحة ووقوعها على طريق التجارة من البحر الأبيض إلى خليج فارس إلى أقصى المشرق واشتهرت في هذه الموانئ صيدا وصور وحيفا، وكانت تجارة المشرق والمغرب تنحصر في صيدا وصور، لأن الشواطئ الجنوبية خفت في الزمن القديم من الموانئ الصالحة، ولم يكن لها موانئ مطروقة للبحر عبر مسالك الصحراء وهي يومئذ قليلة، لأن كثرة الكاليف.

ولهذا الموقع الفريد جعلت أرض الجليل من قديم الزمن بالسياح والمقيمين من جميع أمم الحضارة في المشرق والمغرب، وتوثقت صلاتها بجميع الحضارات الآسيوية، وراجت فيها الصناعات والمعارف العظيمة والبشرية، ولا سيما المعارف التي لها علاقة بالملاحة كفن بناء السفن ورصد الكوكب والكتابة، حتى توتر أن تحار الفينيقيين وملاحهم هم الذين نشروا الأبجدية في بلاد البحر الأبيض، ومنها انتقلت إلى سائر الأمم الأوروبية.

وقد دخل بعض بلاد الجليل - أو كنعان - في مملكة داود بعد إنشائها، ولكن العلاقة بين الجليل واليهودية ظلت على النوام علاقة حرة وجفاء إن لم تكن علاقة حرب وعداء، وكان أثر السيطرة اليهودية على بلاد الكنعانيين أن اليهود أخذوا من الكنعانيين معالم حضارتهم وعربوا عليهم في الصناعة والتجارة، وجاء في العهد القديم غير مرة ذكر الاستعانة بالصناع والخبراء من أهل كنعان في

تشبيد الهيكل والتصور اليهودية، ومن ذلك في سفر الملوك أن سليمان أرسى إلى حيرام ملك الكنعانيين يرحوه أن يأمر بقطع الحشب ل بناء الهيكل ويقول له «إنك تعلم أنه ليس بيننا أحد يعرف قطع لحشب كالصينيين»^{١٠} . ومنه وصف المهندس الذي كان أبوه من صور وأمه من سبط نفتالي «وكان ممثلاً حكمة وقهماً ومعرفة لكل عمل في القدس».

وقد جاء في الإصحاح السابع وعشرين من سفر حرقبيل أنهم كانوا ينجرون بالخدمة والعمل والرب ولبسان و لحوى وغيرها من منغولات الأمم الأخرى

واعتمد اليهود على الكنعانيين في مشئون الثقافة والفن، ولم يسه اعتمادهم عليهم عند مطالب التجارة والصناعة، فنقلوا عنهم الكناية وأوران الشعر وأشيد الصلوات، وحدث غير مرة أنهم تركوا عقائدهم وتحولوا عنها إلى عقيد الكنعانيين، وإلى ذلك يشير العهد القديم في سفر القضاة حيث يقول «وفعل بنو إسرائيل الشر في عيني الرب وعبدوا العفليم، تركوا إله آبائهم الذي أخرجهم من أرض مصر» وإلى ذلك أيضاً يشير العهد القديم في سفر الملوك الأول حيث يقول لبي إيل «إن بني إسرائيل قد تركوا عهدك وتقصوا مداخلك وقتلوا أسبغك» إلى أن يقول «وقد أنقست في إسرائيل سبعة آلاف وهم كل الركب التي لم تجث للبعل وكل فم لم يقبله»

ولما تكثر عدد اليهود المقيمين في الأقاليم الشمالية من فلسطين كالجليل والسامرة، تغيرت عاداتهم ومآثور تهم وبظر إلها أبناء اليهودية نظرتهم إلى الخورج الذين انقطعوا عن أصولهم وتابعوا العرباء على عاداتهم وأسابهم، وكان الواقع أن أهل الحبل خاصة تعوبو الكلام بالآرامية وهي لغة أهل سورية الداخلية، أو بالسودسة، وهي لغة القادمين من البحر أو من آسيا الصغرى، واقتبسوا كثيراً من مآثورات الفرس و الهند والعراق، لأنهم كانوا يلتقون بأبناء هذه البلاد القادمين مع القوافل الشرقية، ويرجح بعض المؤرخين أن العبيقيين الأقدمين جميعاً كانوا من قبائل الحليج الفارسي التي حلت عنه وبسارت مع طريق القوافل حتى استقرت على شاطئ بحر الروم وضلت محافظه بعد ذلك على عملاقتها بالبحار الشرقية

(١) الإصحاح السابع من الملوك الأول.

وسبق من بعض أهل اليهودية لأبناء ملتهم في الشمال أن «حت هيرك نوس»
 المكابي أعار على الأفليم الشمالية، ومنها بلاد في السامرة وبلاد في الحليل،
 فأعاد من فيها من اليهود إلى الجنوب وحير المقيمين في الشمال بين الهجرة
 أو قبول الختن وشارات اليهودية ففضلوا البقاء على المهاجرة من بلاد آبائهم
 وجداهم أو من أبلاد التي استوطنوها منذ زمن طريل، ولت لسامريون
 مفردين بتقليدهم، ولت لمن الحليل متهمين محظوراً إليهم بعين الرسة
 والاستغراب

ومما انفقت عليه أقوال المؤرخين وتروى كثيراً في روايات التاريخ أن حميرة
 كبيره من أهل الحليل كانوا عرباً يتكلمون الآرامية ويلفطون عبرية بلهجه
 أعجبية يلحسها أهل الجنوب ويميزون المنكلم بها من كلمات قليلة يسر منه
 عرضاً على غير روية وكذلك عرف الصواريون في الهيكل كما كانوا يعرفون في
 كل فلسطين

وقد كن من الأمثال لسائرة على السنة اليهود المبعصين لتقليدهم وعاداتهم
 «نه لا خير يأتي من الحليل» وفي إنجيل يوحنا أن تشدليل عجيب حين قبال له
 صاحبه «أبنا وحدد لدى اننا عنه موسى» وأنه من الناصرة في الحليل، فأجابته
 مستغرباً «أمن الناصرة يجيء شيء صالح»^(١)

وفي إنجيل يوحنا أيضاً يروى عن رجل الهيكل أنهم كانوا يقولون متهمين
 «إنه لم يقم ببى قط من الجليل»^(٢).

كانت السماحة لأسبى وقلة النحر هما سبب هذه البقمة على الجليل وأهلها
 هي بفرس أئد، اليهودية المنكرين لكل سماحة ولجاءدين على كل حرج، ولكن
 هذ السبب بعينه هو الذي جعل أرض الحليل اصلح منبت للدعوة الإنسانية
 انى ترقبها العالم في ذلك العصر، فب كن من ايسير أن تنبثق دعوة الإخاء
 بين الأمم في كف الحجر والجمود.

وقد تنفق بعد مولد السيد المسيح ببضع سنوات أن الحليل خرجت من
 سلطان ملت اليهودية على أثر وفاة هيرود الكبير، وأنها دخلت هي وثادية
 المحاورة لها في مصيب ابنه هيرود انساس وربما كن عليه السلام في العشرة
 من عمره حينئذ هدم الرومان عاصمة الأمير الجديد، وبنت العاصمة الجديدة

(٢) الإصحاح السابع.

(١) الإصحاح الأول.

١٠ رية على . قرية من الناصرة حيث نشأ عليه السلام، ولا شك أنه في محبة العاشرة يسمع أخبار هذه الضربة ويسمع أخبار الثورة التي تقدمتها وأعقبت بعدها ما أعقبته من جرائرها، وقد كانت مشكلة النعصب أو مشكلة السماح الدينية حديث صباه وأول ما طرقت مسمعه من مشكلات لسياسة والدولة، ولما سميت بعصبة الجديدة باسم العافى الروماني طيبريوس يسمع ولا شك تعقيب الكبر على ذلك التلق الروماني وشهد العهد من نوى السياسة والإمارة قبل الأوان، وأدرك أن العواصم تهتم وتبني، وأن الدول تسول، وأن الطغمة يتترف والمتترف يطغى، وأن مجد الرياء زيف وخواء، فسيحت نفسه البريئة في أفق غير هذه الآفاق وصور إقواده الذكي ملكوب السماء في صورة غير الصورة، يحلفها ولا ترأل يحلف عنها كلما تقدمت به الأيام.

متى ولد المسيح؟

يعلم من رقم التقويم الميلادي أن السيد المسيح ولد في السنة الأولى للميلاد، وعلى هذا الحساب يجري العمل بين الأمم الأوربية منذ سنة ٥٢٢ للميلاد، وهي السنة التي دعا فيها الراهب ديبوسيس الصغير (Exegus) إسي تاريخ الأيام من السنة الأولى للميلاد، وصح الحساب على تقديره ثم جرى العمل على حسابه إلى الآن.

ولم يكن الرجل صغيراً في مكانه لذيبيته، ولكنه أطلق لقب الصغير على نفسه من قبل النواصب والاكسائر، وقد حقق بحثه ومراجعاته ما استطاع في زمانه فلم يمسلم من الحضا في حساب بضع سنوات، ثم تعدل إصلاح هذا الخطأ عند ثبوته فتقرر استدراكه بإضافة أربع سنوات إلى التقويم القديم لدى يحسبه أصحابه منذ بدء الحقيقة، واعتبروا أن السيد المسيح ولد في سنة أربعة آلاف وأربع بحساب ذلك التقويم.

أما القول الراجع في تقدير المؤرخين الدينيين وغير الدينيين فهو أن ميلاد السيد المسيح متقدم على السنة الأولى ببضع سنوات وأنه على أصح لتقدير أن لم يولد في السنة الأولى للميلاد.

ففي إنجيل متى أنه عليه السلام قد ولد قبل موت هيرود الكبير، وقد مات هيرود قبل السنة الأولى للميلاد بأربع سنوات.

وقد جاء في إنجيل لوقا أن السيد المسيح قام بالدعوة في السنة الخامسة عشرة من حكم القيصر طيبريوس وهو يومئذ يناهز الثلاثين، وقد حكم طيبريوس النوبة الرومانية بالاشتراك مع القيصر أوغسطس سنة ٧٦ من تأسيس مدينة روما، ومعنى هذا أن السيد المسيح قد بلغ الثلاثين حوالي سنة ٧٧٩ رومانية، وأنه ولد سنة ٧٤٩ رومانية أي قبل السنة الأولى للميلاد بأربع سنوات.

وبذكر إنجيل لوقا أن القيصر أوغسطس أمر بالاكساب - أي لإحصاء - في كل المسكونة، وأن هذا الاكساب الأول جرى إذ كان كيرنيوس والياً على سورية «مذهب الجميع ليكتبوا كل في مدينته، وصعد يوسف من مدينة الناصرة إلى

اليهودية، ليكتتب مع مريم امرأته المحطوبة وهي حسلى، وتمت أيامها هناك فولدت ابنها البكر.

والمقصود بالاكنتاب هنا على ما هو ظاهر أمر الإحصاء الذي أشار إليه المؤرخ يوسفوس وأرخه بما يقابل الستين السادسة والسابعة للميلاد ولا يمكن أن يكون قبل ذلك لأن تاريخ ولاية كيربيوس معروف وهو السنة السادسة، فيكون السيد المسيح إذن قد ولد في نحو السنة السابعة للميلاد، وتكون دعوته قد بدأت وهو في الثالثة والعشرين أو الرابعة والعشرين، وهو تقدير يخالف جميع التقديرات الأخرى ويخالف المعلوم من مآثورات الإسرائيليين، فإن الكاهن اللاوي عندهم كان يباشر عمه بعد ثلثين، وكان الأحبار اجتهدون عندهم ينفقون الخمسين من الخلوص لتفسير والإفتاء في مسائل لفقه الكبرى، وبهذا قالوا عن السيد المسيح أنه لم يطلع لخمسين بعد ويدعى أنه يرى إبراهيم ويستنمع إليه، ولو أنه بدأ الدعوة قبل الثلاثين لكان الأخرى أن يعجدوا بكلامه قبل بلوغه سن الكهنة اللاويين.

ويغلب على تقدير المؤرخين الثقات أن الإحصاء أشار إليه هو الإحصاء الذي ذكره ترتليان Tertulhan وقال إنه جرى في عهد ساتورنيس Saturnus وإلى سورية إلى السنة السابعة قبل الميلاد، فإذا كان هذا هو الإحصاء المقصود فالسيد المسيح كان قد بلغ السابعة في السنة الأولى للميلاد

ومن القرائن التي لا نريد أن نهملها قرية الكوكب الذي قيل إن كهان المحوس تتعوه من المشرق ليهتدوا به إلى المكان الذي ولد فيه السيد المسيح.

فمن المعروف أن خبراء فييقية وفارس كانوا يشتعرون بالفتك و لتنجيم، وأهم كبرا في عصر ميلاد يرقبون حاداً جلاً في التاريخ لشرى حوالى سنة الميلاد وكانو كذلك يرصدون النجوم ليعرفوا من طوالعها بشائر ذلك الحوادث الجلل المترقب من حين إلى حين، وكان قران المشتري ورحل من الطوالع الهامة عند سكان المشرق على البحر حيث ترصد الكواكب للملاحة والتناول، وفي داخل البلاد لفارسية حيث ترصد الكوكب للعبدة وأسبحاء الإرادة الإلهية، وبكى أن نذكر بقيا هذه العادة في النبقعة الفيتيقية إلى ما بعد أيام المعرى لنعلم شأن الأرصاد هناك كما كانت في الزمن القديم، وقد

كان المعري الضمير يعنى نفسه بهذه الأرصاد ويقول عن قران المشتري
وزحل حاصة هي لزومياته .

قران المشتري زحلاً يرجى	ليقظ النواظر من كراها
وهيهات البرية في ضلال	وقد فطن اللبيب لما اعتراها
وكم رت الفراق والثرى	قبائل ثم أضعت في ثراها
تخفى الناس جيلاً بعد جيل	وخلفت النجوم كما تراها

قارداً كان هذا ما حذف من العناية بالأرصاد في البقرة الفبيعية إلى أيام
المعري فليس من الأمانة للبحث أن يهمل قرآن الأرصاد كل الإجمال، لأننا
نرفض التنجيم ونرفض دعوى المجوس فيه.

فمن المفعول أن ننكر على النجمين عنهم بالعيب من رصد الكوكب وطولع
الأفلاك، ولكن لا يلزم من ذلك أن ننفي ظهور الكوكب الذي رصده، وأن يبطل
دلالاته مع سائر الدلالات، وبخاصة حين تتفق جميع هذه الدلالات.

وقد ذكر فريدريك فراير في كتابه «حياة المسيح»^١ أن العلكي الكبير كيلر حقق
وقوع الصراع بين المشتري وزحل حوالي سنة ٧٤٧ رومانية، ويقول فراير في
وصف هذه الظاهرة «إن قران المشتري وزحل وقع في الثلث نفسه مرة كل
عشرين سنة، ولكنه يتحول إلى مثلث آخر بعد مائتي سنة. ولا يعود إلى الثلث
الأول بعد مرور فنت البروج كله إلا بعد انقضاء سبعة وأربع وتسعين سنة
وأربعة أشهر وأثنى عشر يوماً، وقد تراجع كبير بالحساب هتئين له أن لقران
على هذا النحو حدث سنة ٧٤٧ رومانية في الثلث لنوبيين أو الحويين وأن المريخ
لحق بهما سنة ٧٤٨ رومانية.

ويظهر من هذا الحساب أن تاريخ الميلاد مضاهي التاريخ الذي يستخلص من
التقديرات الأخرى على وجه التعريب، وأن السيد المسيح ولد في نحو السنة
الخامسة أو السادسة قبل الميلاد

وبعود فبقول إن إثبات الرصد لا يستلزم الإيمان باطلاع المجوس على العيب
من مراقبة الأفلاك، وكل ما يفهم، ولا يحوز أن يهمل، أن الدين كتبوا تاريخ
السيد المسيح بعد عصره بنحو جيلين كانوا يتناقلون خبر تلك الطاهرة ويؤمنون

(١) الجزء الأول صفحة ٢١ الطبعة الثانية من مطبعة كاس.

بإلالتها على بها حدث عظيم فعربوا بينها وبين ميلاد المسيح المظهور، ولعل الأناجيل قد بويت والناس يتحدثون بقرآن فلكي من قديم ذلك لقرا في حكم القبط هادريان فقد ظهر يومئذ مسيح كذاب امن به ارياني عقبه ليدحض دعوى المسيحيين وسماه بن الكركب «بار كوكبه بالعبرية» ونفس على العملة التي سكها صورة كوكب فعاد الذاكرة بكتاب الأناجيل إلى تلك لطاهرة البكية أمدرة، بعد الدعوة المسيحية نحو سبعين سنة.

على ان الدراسات الأخيرة في علم المعاني بين الأدباء تسوق لمؤرخ الذي يكتب عن تاريخ المسيح حتمًا إلى مبحث عويص ادق جدًا من البحث الذي يدور حول السنة الميلادية فإن القرن الثامن عشر قد أخرج للناس مدرسة الشك المطلق في مقررات العلم القديم ووقائع التاريخ اسوتر، فشك الكتاب في وجود الأنبياء والمرسلين، وكان الشك يتناول كل نبي وكل صاحب دين غير محمد عليه السلام شكوا هي يودا كما شكوا هي إبراهيم وموسى وعيسى، وسرى الشك إلى الأدب كما سرى إلى الدين، فشكوا هي شخصيه هوميروس وهي شخصيه شكسبير وظن بعض اثنتين لشخصيات المتأخرة في التاريخ انها وجدت فعلاً ولكنها لم تضع ما نسبوه إليها ولم تكتب ما ينشر بأسمائها

وقد زار فولتير - إمام الساكنين - بلاد الإنجيز هوجد هناك مدرسه بولنصرونك تتحدث بعناية السهوية في شبهاتها عن وجود السيد المسيح، وكان باطون يسأل العالم الأديبي ويلاند هل يعتقد أن المسيح شخص تاريخي وجد كما وصفوه ؟.. وجاء القرن اساسع عشر وقد طغت على مدار الدراسات الدينية موجات من الكذب التي ألقها الألمان والديمركتيون والهريسون والإنجليز يفتنون بها - هوان امورحين ويرجحون أن السيد المسيح شخصيه من شخصيات الخيال، ونس من المصطنع في هذا الحيز ان نورد أقوالهم مقصدة أو مجمل في هذا الموضوع. فإن أسماء المؤلفين والمؤلفات وعناوين المسائل التي طرقتها وخلاصة اسرارهم التي شفَعوا بها بيان تلك المسائل تستغرق وحدها كتابا كهذا الكتب، ولكت محذرى بتلخيص الأساسي لهما من الدين قامت عليهما مدرسة الشك في وجود السيد المسيح، وأحدهما أنه عليه السلام لم يذكر في التواريخ القديمة التي فصلت أخبار عصره، والآخر أن روايات التلاميذ عنه قد سقطت رويتها عن شخصيات أخرى من شخصيات الترمين لتقدم وبعضها أقرب إلى الأساطير والفروض.

أما المؤرخون الذين حصوهم بالذكر قههم يوسفوس Josephus وناسيوس Tacitus وسوتنيوس Suetonius وكلهم ممن أرحوا عصر الميلاد ولم يثبتوا وجود السيد المسيح بما كتبوه عن أيامه.

نعم وردت في نسخ من تاريخ يوسفوس إشارة مقتضبة إلى «عيسى القديس» ولكن انقضاء التاريخين بجزمون بأنها مضافة إليه، ويؤكدون أنها أضيفت بقلم أحد القراء المتأخرين الذين عجبوا لخلو التاريخ من الإشارة إلى أعظم الحوادث في ذلك العصر، فأباحوا لأنفسهم أن يضيفوا تلك الإشارة كأنها من كلام يوسفوس على اعتبار أن الحقائق التاريخية امانة عند من يعلمها وليست امانة المؤلف وحده سواء عرفها أو لم يعرفها، وما كان من المعقول أن المؤرخ اليهودي الذي يكر المسيحية يكتب عن رسول هذا الدين فيقول: «إنه في ذلك العهد عاش عيسى ذلك الإنسان القديس - إن حار أن يسمى إنساناً - بعدما نرى من المعجزات البات وعلم الناس ونفى الحق فاستبشر به، وأبعده كثير من اليهود والإغريق، وكان هو المسيح».

قلوا إن يوسفوس اليهودي الذي مات على دين لا يكتب هذا ولا يؤمن بإيمان المسيحيين، ولو أنه أمر كما أمروا له اكفى بتسجيل ذلك الحادث العظيم في ثلاثة أسطر جاءت عرضاً بغير تعقيب أو تفصيل

ومن اللاهوتيين الذين عقنوا على هذه الملاحظة لقس هورن Home الذي ألف كتابه «مقدمه الدراسة النقدية والتعريف بالكتب المقدسة» وأدرك به هجمة الشكوك الأولى في سنة ١٨٣٦^{١١}

فقد ذكر هورن أن هذه العبارة موجودة في جميع النسخ المخطوطة والمطبوعة التي حفظها مكتبة امثيكان من الترجمة العبرية وأن العبارة نفسها موجودة في النسخة العربية التي تحفظها الطائفة المارونية بلسان، وأن كتاب القرن الرابع والقرن الخامس من السريان والإغريق والمصريين قد أطلعوا عليها واستشهدوا بها وأن يوسفوس قد أُنشِر في موضع آخر إلى جيمس بانسقف أورشليم حيث قال «إن حيانا عهد السهدين اليهودي وأحضر أمامه جيمس أحد عيسى المسمى بالمسيح ومعه آخرون ثم أمر بهم أن يرحموا عقاباً لهم على عصيان الشريعة».

قال هورن ولو أن أوسيبوس Eusebius أو من استشهد به كعبرة المتقدمة كان قد أثبتها مختلف لها لما عدم تدهاً يكشف تسيسته من المطلعين على كتاب يوسفوس وهو كتاب به مكتبة موقرة بين الرومان من قديم الزمان، ويفسر هذه المكتبة كسب يوسفوس شرف الوطنية، الرومانية، بل كان من الراجح جداً أن يتصدى اليهود لن يدس تلك العبارة في تاريخهم الأشهر فيفصحوه نفسداً له وتفيداً للديانة التي يدعيها.

والع هورن إلى الشكوك التي تحيط تلك العبارة لأنها لم تذكر قط في كلام معروف قبل أوسيبوس، فقال إن هذه الشكوك لا تقيم حجة لأصحابها لأن أقطاب المسيحية كانوا في غنى عن الاستشهاد بأقوال المؤرخين مع استماعهم أن يثبتوا رسالة السيد المسيح في نبوءات كتب النوراة.

وختم هورن ردوده بتوجيه عبارة يوسفوس إلى معنى لا يستلزم أن يكون المؤرخ اليهودي مؤمناً بالمسيحية أو برسالة المسيح المنظر، ولعله سماه «مسيح» رواية عن أتباعه الذين كانوا يدعونه مسيحاً ويعرفونه بشهرته العاليه.

أم المؤرخ الروماني تاسيتس الذي كتب تاريخه حوالي سنة (١١٥ ميلادية) فاقدم ما ذكره عن السيد المسيح لا يرجع إلى أقدم من سنة أربع وستين ميلادية، ولم يذكره مباشرة بل أشار إلى اسمه في سياق الكلام على حريق رومة، حيث قال إن الإمبراطور نرون أطلقه اتهام الدس بياه بإحراق المدينة فألقى لتهمة على صنفه العامة الذين يسمون بالمسيحيين ويُسبون إلى المسيح الذي حكم عليه بونتياس بيلاطس ماتوث في عهد القيصر طيبريوس»

ولا يعرف الآن علام يستند تاسيتس في رواية هذه النسبة، ولكنها كانت على كل حال رواية شائعة بين أناس كثيرين لم يشهدوا عصر المسيح.

وكذلك لم يذكر سوسيبوس خبراً مباشراً عن السيد المسيح، ولكنه قل في تاريخه للقيصر كلوديس «أنه نفى من رومة جماعة اليهود الذين كانوا على الدوام بشرور المذابح بتحريض كريسستس» وكتبها هكذا باللاتينية Christian لأن الاسم القيس عليه بين كريسستس بمعنى الضيق وكريسستس بمعنى المسيح

وأياً كان مستند هذا المؤرخ فلا يستفاد من روايته إلا أن العاصمة الرومانية كان فيها أناس يعرفون باسم المسيحيين عند منتصف القرن الثاني للميلاد، وأنه كان يحسب أن الرعيم كرسستس كان يحرص أتباعه بنفسه في ذلك التاريخ.

وقد عاش في عصر السيد المسيح نفسه كتاب ومورخون من اليهود مثل
الفيلسوف فيلون الذي سبق ذكره و لقرح جسيس الطبرى الذي عاش في
الجيل أيام الدعوة المسيحية وكتب تاريخ قومه عن عهد موسى إلى نهاية القرن
الأول للميلاد ولم ترد في تاريخه إشارة مباشرة أو عبر مباشرة إلى الدعوة
المسيحية

تلك خلاصة الحجة التي تقوم على خلو التواريخ من ذكر الدعوة المسيحية في
عصرها.

أما الحجة الأخرى وهي حجة التشابه بين القصص المروية عن السيد
المسيح والقصص المروية عن الأرباب في الصادات شرقية لقدمية فهي
تعتمد على تفصيلات كثيرة تحيط بتأثير المعجرات والشعائر في ديانات
الأقدمين من المصريين والبابليين والفرس واليهود والكنعانيين، وأكثر المقادير
المتشابهة بهذه الحجة من علماء المقابلة بين الأدباء المطلعين على أدب
المشرق في لغاتها، ويغلب عليهم مريح القول بأن أحداث المسيح بقية من
بقايا الديانات الشمسية يدل عليها عدد «اثني عشر» الذي يشير إلى الروح
ويشير إلى عدد الالامبيذ، ويدل عليها الاحتفال بالملاد في يوم الاعتدال
الخيرفي على حساب الأقدمين، والاحتفال بيوم «الأحد» الذي اعتقدوا قديم أنه
يوم الشمس ويعرف حتى اليوم في لغات الأوربية بهذه السمة، وذلك عدا
اعتباة في سم لام ولولادة في انود وركوب «الصارفين لأثر» وغير
ذلك من الشعائر والمعجرات.

والغريب في شأن هؤلاء العلماء أنهم لم يكفوا أنفسهم تفسيراً مقبولاً
لوجود المسيحيين بهذه الكثرة بعد جيل واحد من عصر الميلاد، فإن
التفسيرات التي فرضوها تبسح لشكوك كثيرة كلها أعرب من القول بشخصية
المسيح التاريخية، ولا يكفي أن يقال إن أحداث المعجرات والشعائر قديمة
لتفسير الدعوة المسيحية بغير داع وبغير محور معلوم تدور عليه، وقد نوهي
بولس لرسول في نحو سنة سبعة وستين ميلادية وعاش قبل ذلك نحو ثلاثين
سنة يبشر باسم المسيح، ولم يكن قد طار العهد بتاريخ الدعوة ولم يحدث
خلال ذلك ما يفسر تكويتها من المعجرات والشعائر التي طلت قبل ذلك مئات
السنين متواترة على الناس وكان قواها قديماً أقوى وأشيع من قواها بعد
تقادم العهد وبسبع السنين

وكل ما يفهم من سكوت المؤرخين المعاصرين على سبيل الجزم أن المؤرخين لم يدركوا خطره ولم يميروها من الحركات المتفرقة التي كانت تختلج بها صوائف اليهود على صفة عامة، ويعزز هذا أن الطائفة الجديدة لم تذكر باسم خاص في الأناجيل حميف غير ثلاث مرات، فذكر أتباع السيد المسيح باسم المسيحيين في الإصحاح الحادي عشر من أعمال بولس لرسول حيث قيل إن استلامنا دعوا «مسيحيين» لأول مرة في مدينة (أنطاكية) ثم جاء في الإصحاح السادس والعشرين على سبيل التأكيد تفريده أنه قال محتجاً «أهرون بما تقنعني به أن أصير مسيحياً» وجاء في الإصحاح الرابع من رسالة بطرس «إن غيرتم باسم المسيح قطوبى لكم.. إن أحدكم لا يتكلم لأنه قسبل أو سارق أو فاعل شر، و صاحب فضول، فإن تكلم لأنه مسيحي فلا يحجل».

وحمله ما يؤخذ من الكلمة في هذه المواضع الثلاثة أنها كانت نسبة إرذراء وتعير على السنة أعداء المسيحيين، وليس من الصعب أن يصعب الكلام عن طائفة لا عنوان لها من يكتب عن جماهير ذلك الزمن في عمار انتواريخ، وبخاصة إذا كانت لم تبلغ من الخصر ما يدركه مؤرخ الحوادث الكبرى، وكان من هم أولئك المؤرخين أن يستصغرو شأنها لأنها طائفة معصوب عليها في مراجع الدين ومراجع الدولة، فالحكل يكرها والحكومة الرومانية تترفع عنها، ولم يحدث قبل ذلك أن طائفة من طوائف فلسطين جمعت بين غضب السلطين، وهي مع ذلك غير معروفة بعنوان تدور عليه الأخضر^١

ويبدو لنا أن بشوة العلم الجديد - علم المقالة بين الأديان - هي التي دعوت أصحابها في القرن الثامن عشر إلى تحميل المشابهات والمقاربات فريق طائفتها فإننا نرى أمامنا في هذا العصر أن هذه المشابهات لا تنفي ولا تثبت، بل لعلها إلى إثبات أقرب منها إلى النفي على الإجمال.

نحن نرى في هذا العصر أن أتباع الطرق الدينية يفسسون فيسب كل منهم إلى وليه المختار كرامات جميع الأولياء الآخرين لأنه يؤمن بتلك الكرامات ولا يشك في وقوعها ولكنه يعتقد أن ولياً واحداً هو الجدير بإيادها وهو لولي الذي اصطفاه وفضله على غيره من الأولياء.

ونحن نرى في هذا العصر وفي جميع العصور أن المشهور في صفة من الصفات تضاف إليه نواذر تلك الصفة وعجائبها ويصبح علماً لتلك الصفة في كل ما يروى عنها ويحسب إليه، فالمشهور بالكرم تنسب إليه المكارم جميعاً بغير

سند، واشتهور بأشجاعة بذكر بعد ذلك كأنه هو صاحب تلك البادرة أو صاحب نادرة مثلها إن لم يكن بقوقها وتزيد عليها في بابها.

وينبغي أن نذكر أن المسحبة وجدت قبل أن تقتن بها تلك المراسم و لتقاليد، وأن المسيحيين الأوانس أعرضوا عن كثير منها واستكروه ومنعوه، ومنهم من كان يحرم الاحتفال بمولد المسيح في يوم كائن ما كان وعلى رأسهم أوريجين العقي العظيم. وقد مضت ثلاثة قرون قبل أن تحتفل كيسة من الكنائس المعتمدة بعد الميلاد في تاريخ من النواريح، ثم احتفلت الكنائس فحتفت الكنيسة الشرقية بالميلاد في السادس من شهر يناير واحتفلت به الكنيسة الغربية في الخامس والعشرين من شهر ديسمبر، ويرجح أنها اختارت هذا اليوم لتصرف المسيحيين عن حضور الحافل الوثنية التي كانت تتخذ عيداً للشمس وتعلن فيه الأفراح بانتصار، لتور على الظلام، لأن الاعتدال الحريفي هو الموعد الذي يقصر فيه الليل ويطول النهار.

ولا ينبغي أن نولس الرسول قد ولد في طرسوس وهي مركز من مراكز الديانة أمثية، فلبس من المستعرب أن تعلق بذهبه بعض مصطلحاتها وعباداتها، وأن يكون قد تقل بعصها شيسراً لإقناع أتباعها بالدعوة الحديدية، فلم يول من سياسة الششير في جميع الدعوات أن يسير في هذا الباب ما يستطع تيسيره، وقد ظلت هذه أسياسه مرعية عدة قرون، إذ نقل الرهب Bado في تاريخ الكنيسة الإنجليزية خطبا لغريغوري الأول (تاريخه سنة ٦٠١ ميلادية) يستشهد فيه بنصيحة المستشار بالبابوي ملبتس Melatus الذي كان ينهى عن هم المعاند الوثنية ويرى الإبقاء عليها «وتحويلها من عبادة الشيبين إلى عبادة الإله الحق، كي يهجر لشعب خطايا قلبه ويسهل عليه عشرين المعاهد التي تعود ارتيادها»^(١).

ولا خلاف في تكرار العيد «أثنى عشر» في كثير من الديانات، ولكن تكراره هذا لا يستلزم أن يكون كل معدود به حرافه أو أسطورة غير تاريخية وقد كان خيفاً باتصحاب المقاربات والمقابلات أن يذكروا هذه الحففة بصيغة خاصة، إذ أقرب المؤرخين إليهم سوتتيوس صاحب تاريخ «القاصرة الاثنى عشر» وكلهم من «الشخصيات التاريخية».

(١) كتاب من الوثبة إلى المسحة في الدولة الرومانية (العمل الثاني)

Paganism into Christianity in the Roman Empire by Hyde

وفى تاريخ الإسلام تفصيل مذهب الشيعة الإمامية وهم يدينون بالولاء لاثني عشر إماماً معروفين بأسمائهم ليس منهم من يمكن أن يقال فيه إنه «شخصية غير تاريخية».

على أن البقاد الذين شكوا فى وجود السيد المسيح قد شكوا كذلك فى وجود يوشع بن نون وظنوا فيه كما ظنوا فى السيد المسيح أنه رمز من رموز لعبادات الشمسية لأنه يسير الشمس ويوقفها عن مسيرها، ولم يصر إلى علم هؤلاء البقاد أن اسم يوشع بن نون وجد مدفوساً على حجر عند «يوميد» مشمال إفريقيا حيث أقام العبيقيون مستعمرتهم (قارة حداثه) التى عرفت فيما بعد باسم قرطاجة. وعلى ذلك الحجر الذى كشف (سنة ٥٤٠ ميلادية) كتابه بالعبيقية يقول كاتبوها «إتنا خرجنا من ديرنا لننجر شمسنا من قاطع لطريق يوشع بن نون»^(١). وليس كاتبو هذا الكلام عن لى لإسرائيليين ممن يتهمون بالحرص على إثبات وجوده ونفى الشبهات عن سيرته وتاريخه.

وقد تعب أصحاب المقارنات والمقابلات كثيراً فى اصطبات المشابهات من هنا وهناك ولم يكلفوا أنفسهم جهداً قط فيما هو أولى بالجهد والاجتهاد، وهو استخدام المقارنات والمقابلات لإثبات سابقة واحدة مطابقة لما يفرضونه عن نشأة المسيحية، فمتى حدث فى تاريخ الأديان أن أثبتت معشرة من الشعائر والمراسم تلتق بنفسها وتخرج فى صورة مذهب مستقل دون أن يعرف أحد كيف تلتقت وكيف انفصلت كل منها عن عذبتها الأولى؟ ومن هو صاحب الرغبة أو صاحب المصلحة فى هذه الدعوة؟ وأى شاهد على وجوده فى تواريخ الدعاة المعاصرين لسنة الميلاد؟ وكيف برز هذا العامل التاريخى الدينى الحظير على حين فجأة قبل أن ينقضى جيل واحد؟ ولماذا كان يخفى مصادر لشعائر والمراسم الأولى ولا يعلنها إلا مسوية للسيد المسيح؟

إن استخدام المقارنات والمقابلات فى تحقيق هذه المسابقة أولى بمؤرخى الأديان من كل ما جمعه أو هرغوه لينتهوا به إلى فرض مقطع الطير

* * *

على أن صناعه النقد التاريخى تتهم نفسها بالعجز الدلغ إذا لم نستمع أن تعتمد على الكلام المروى فى تقرير «شخصية الفل» وتحقيق مكانه من التاريخ، ودين أدينا كلام السيد المسيح كما روته الأناجيل ينبتنا فى هذه الناحية عن كثير

(١) الفصل الرابع من المجلد الثالث من صحائف شميرز

فمهما يكن من عصر لقول في استفلال كل إنجيل أو أعتد بعصها على بعض هذه
علامات واصحة لا يمكن أن يقصدها كتب الأناجيل، لأنها علامات يفهمها الآن وفقاً لـ
نرسنه من نظير الدعوة المسحة ولم يكن لها محل في روعس الرواة اشاهدين أو السقلين.

فإن روايات الأناجيل تطابق التطور المعقول من بداية الدعوة إلى نهائسها،
ومن التطور المعقول أن تبدئ الدعوة فومية عصرية ثم تنتهي إيساسة عادية، وأن
تبدئ في تحفظ ومحفظه ثم تنتهي إلى الشدة والمخالفة، وأن تبدئ بقليل من
الثقة في شخصية الداعي ثم يسهي باشعة النى لا حد لها في نفوس الأتباع
والأشيع، وهكذا كانت الدعوة المسيحية كما روها الأناجيل لوز أن يعتمد
كذبها نطوب أحوال التطور أو تلتفت أهائهم إلى معنى تلك الاحوال.

وربما كان أوضح من هذا في الإبنة عن شخصية الداعي أن أقواله نضم
نقداً لجميع المذاهب التي كانت شائعة في عصره، وأن هذه الأقول تشير إلى
وجهة نظر واحدة لم يكن لها وجود في غير تلك الشخصية.

فالأقوال المسيحية تنقد الفريسيين ولكنها لا تصدر في نقدهم عن وجهة نظر
الصدوقيين أو السامريين.

وتنقد اصحاب النصوص ولكنها لا تصدر في نقدهم عن وجهة نظر
الإباحيين والمتطهرين.

وتنقد الاسين المتعصبين ولكنها لا تدين براء الفلاسفة أو الأبيقوريين والرواقيين.
وتنقد السامريين ولكنها لا ترفض السامرة بدناً ولا ترفض عبري من لنحل
كل الرقص من حاسب محدود.

وتستشهد بأقول موسى وأبراهيم والأنبياء ولكنها لا تنقيد بكل قول منها تنقيد
لمحاكاة ولا بعدى بها اقتداء التابع للمبوع.

وإن جمعنا وجهه النقد جمعه وحدة امكن أن مردها كلها إلى وجهة نظر متساقطة
وقوام شخصي مرسوم، وقد يقع فيها الاستثناء حيث ينبغي أن يقع، لأن التساق
الذي يجري مجرى الأعمال الآلية وترة واحدة لا يوفق طبيعة الدعوات الحية
المفهمة ولا سيما الدعوات في عصر الهدم والبناء والمراجعة والتثيت.

هذه علامات «موضوعية» لها شأنها الأكبر في إبنته عن شخصية السيد المسيح،
وأصدق بلن العلامات، بعد هذا كله أن الدعوة جاءت في إيمانها وفقاً لمطالب زمانها،
بحيث تكون الغريبة أن يحنو الزمن من رسول يقول بالدعوة ويصلح لامتتها، لأن
يوجد الرسول ويستعرب أن يكون، ولو أن مؤلفا بعد ذلك العصر أراد أن يخلق
رسولاً يوافق رسالت المشوبة لوفقه به الحيال دون ذلك التوفيق المطبوع

صورة وصفية

من أقدم الصور الوصفية التي حفظت للسيد المسيح صورة تداولها المسيحيون في القرن الرابع وزعم روايتها أنها كتبت بقلم بيلرس لنيولس صديق بيلاطس حاكم الحليل من قبل الدوة الرومانية، راعها إسي مجلس أشيوج الروماني في عصر الميلاء، وجاء فيها «إنه في هذا الزمن ظهر رجل له قوى حارقة يسمى يسوع ويدعوه تلاميذه بإس الله، وكان للرجل سميت نبيل وقوام بين الاعتدل، يفيض وجهه بالحنان والهيئة معاً، فيحبه من براه ويخشاه. شعره كلون الحمر مشروح غير مصقول، ولكنه في جانب الأذن أجعد لماخ، وحنينه صلبت باعم، ويدس في وجهه شمية، غير أنه مشرب ببضرة مبردة. وسيماه كلها صدق ورحمه، وليس في قمه ولا أنفه ما سباب وعناه ررقاوان بلمحدر، محيف بلام أو أنب، وديع محجب إرا دعنا وعلم لم يره أحد بصمحك، وراه الكترون يسكي، وهو طوير له يدن جمالتن مستقيمتن، وكلامه متزن رصين لا يميل إلى لإطباب، وملاحنه في مرآه تفوق المعهود في أكثر الرجال»

إلا أن هذه الرواية مشكوك فيها وفي أسديف لتاريخيه ومثلها جميع الرويات التي تداولها الناس في ذلك العصر أو بعده، ومنها ما لا يعقل ولا يظن به إلا أنه مدسوس من أعداء المسيحية في العصور الأولى، كقول بعضهم إنه كان قمياً أهدب بميم الصورة فإن الشريعة الموسوية كابت بشرط في الكاهن سواء الخلق وسلامة الجسم من العيوب، ولا ترسم لخدمة الدين من يعينه نفس أو تشويه، فمن عبر المعقول أن يتصدي للرسالة من يعاب بالحدب والدمامة أو تشويه، وإن يحلو الكلام المنسوب إلى خصومه أو أنصاره من الإشارة إلى ذلك في معرض المذمة أو معرض العجب ومدراءه العيوب الجسمانية بالمحاسن الروحية

نعم إن الأنبياء في بني إسرائيل لم يكن لهم راسم يرشحهم لنبوة بشروط معلومة كشروط الكهنة، ولكن اتصاف النبي بالدمامة والحدب لا يبقى في طي الكتمان مع الحدث عنه وعن المشوهين وأصحاب الآفات الذين يرثهم ويسافرون إليه ليشفيهم من الشوهة والآفة.

وليس في الأناجيل إشارة إلى سمات السيد المسيح بصريح أو تلميحاً يفهم من بين السدائر ولكن مؤخذ من كلام تثنيل حين رآه لأول مرة «ه رائع المصير ملكي الشارة. إذ قال له أنت ابن الله. أنت ملك إسرائيل». وأراد المسيح أن يفسر ذلك بأنه تحية يحبب بها الهى على تحيته. ولكنها على أية حال تحية لا تقل للأحباب ولا للدميم المشنوء.

غير أننا نفهم من أثر كلامه أنه كان مأثوس الطلعة يتكلم فيوحي النفة إلى مستمعيه. وذلك الذي قيل عنه غير مرة إنهم أخذتهم كلماته، لأنه «يتكلم بسلطان» وليس كما يتكلم الكتبة والكهان.

وقد كان ولا ريب مصيح اللسان سريع الضمير، يجمع إلى قوة العارضة سرعة الاستشهاد بالحجج الكتابية التي يستند إليها في حديث الساعة كلما موجي باعتراض أو مكابرة. وكانت له قدرة على وزن العبارة المرتحلة، لأن وصاياه مصنوعة في قوالب من الكلام الذي لا ينظم كنظم الشعر ولا يرسل إرسالاً على غير تسق، ويغلب عليه إيقاع الفواصل ويريد اللوازم ورعاية الجرس في المقابلة بين الشطور.

ونرى الصمائل باد في شعوره كما هو باد في تعبيره وتفكيره، والتفاتته الدائم إلى الأزمات والكروم وأجداث التي يكثر من التشبيه بها في أمثاله، عنوان لما طمع عليه من تروق الحماة وإعجاب محاسن الصبغة، وكثيراً ما كان يرنو المروج والحدائق بسلامة وينحد من السفينة على البحيرة - بحيرة طبرية - مبرر يحط به استمعيون على شاطئها المشوش كأنما يوقع كلامه على هرات لسفينة وصهقات الموج وخفقات السسيم، ولم يؤثر عنه أنه ألف المدينة والحاضرة كما كان يألف الحلاء الطلق حيث يقضى سويغات الضحى والأصيل أو سهرات الربيع في مشجاة العوالم الأبدية على قمم الجبال ونحت أنفة الرقء.

وقد اطلعت روايات الأناجيل على أنه كان عظيم الأثر في نفوس النساء، يتبعنه حيث سار ويصغين إليه في محبة ووقار، ومن عظماء الرجال من تتعلق بهم نظرات النساء كأنهن مأسورات مسحورات، ومنها من تتعلق بهم نظرات النساء لأنهم يلعبون فتدتهن بحوالي اللحم والدم وبرعات العرائر والأهواء. ولكن ارحس العظم الذي يجذب إليه قلوب النساء لأنه يشيع فيها السكينة وينسط عليها الطمئينة ويععمها بحدن الصهر ولفداسة ويريحها من وسوس المسعف والفنة، أعظم في نفوسهن أثراً من كل عظيم. وهو الذي من أجله يسرين الجسد ويرتفعن بحبهن له فوق مناط الظنون.

لهذا لا سنغرب أن يقال إن قرينة بيلامس كانت تحذر قرينها أن يمس ذلك الإنسان الصالح وأن تغلب محبة التقوى على محبة الدنيا في نفوس تبعته وهجرت زينة الحياة. ومبهن العوامى اللوامى نستدعنهن الحياة كل يوم بداع مطاع

وقد وصف نفسه بأنه «وديع مواصلع الفؤاد» وقال إن الوداعة مفتاح لسماء ولا يدخلها غير الودعاء، وتمثلت الوداعة في كثير من أهواله وأفعاله، ومنها الرحمة بالخطائين والعائرين، وهى الرحمة التى تبلغ العبد حين تنقذ من رسول مبرأ من الخطايا والعثرات

إلا أن هذا الرسول الوديع الرحيم كان يعرف العصب حيث تضعيع لوداعة ورحمة، وكانت شيمته فى رسالته شيمة الرسل جميعاً حين تغلق عندهم أواصر الروح على أواصر اللحم والدم، وتتقدم حقوق الهدية على حقوق الآباء والأمهات «من هى أمى ومن هم، حوتى؟» من يصنع مشيئة أى فى السموات هو أخى وأختى وأمى». «من ليس معى فهو على ومن لا جمع معى فهو يفرق». «وإن كان أحد يأتى إلى ولا يبعص آياه وأمه وامراته وأولاده وإخوته، حتى نفسه، فما هو بقادر أن يكون لى تلميذاً».

وهذه وأشامها من الشروط الصارمة التى كان يفرضها على مريديه، هى الشروط التى لا غنى عنها لكل دعوة مستسيلة أمام السيطرة والجبروت، ومبها يكن فيها من أساليب المحار والكتابة فالقول الصراح لدى لا خلاف عليه أن التردد من أواصر المنافع والشهوات أول الآداب التى يتأدب بها، لتعود فى كل محنة جنود الحرب فى ميادين الصراع على فتوح الحكم والسياسة هما بالناس بجنود الحرب فى فتوح الروح ومطالب الكمال.

ولقد كان عليه السلام يأمرهم أن يقدموا على المضطر فى سبيل الحق ولهداية ولكنه كان يقيم لهم حدود المخاطرة حيث يجب الإقدام على الموت وجرياً لا مثوبة فيه، فالخطر على الروح إذا كان موت الروح فى الحساب، فمن لم يكن خطر على الحسد ولا على الروح فلا خير فى المحاصرة.. وكونوا بسطاء كالحمائم وحكماء كالحيات.

وفى إنجيل مرقس أن السيد المسيح نجا بنفسه إلى جانب البحر حين علم أن القريسيين والهيروذيين يسمون به لإهلاكه وفى سائر الأناجيل أنه كان يشكو حزنه وبشه حين أحرق به الخطر، وأنه كان يدعو الله أن يحنه الكأس التى هو

وشيك أن ينجرعها، وأنه كثر يقول لتلاميذه «نفسى حد خريه.. امكثوا هاهنا واسهرُوا..» وأنه كان يعيب عليهم حين يراهم نياماً على مقربة منه وهو يعانى برحاه وأشجابه ويقول لهم ما قُدرتم أن تسهروا معى ساعة واحدة؟ ثم قال لهم أحر الأمر وقد حم لفضاء الآن ناموا واستريحوا!

فليس الإقدام على الجهاد أن تتحرد النفس من طبيعتها هي وحده اسحاويف واسلاف، وليس محصوراً على النفس في سبيل ذلك الجهاد أن تأخذ بالحيطه أو تلود بمن تحب وتستمد بعون من عواطف المحبين وإيم المحظور عليها أن تحشى الخطر على الجسم حيث يجب الحشية على الروح وهى غير ذلك لا حشية ولا مضطرة ولا ملام.

ومن تحصل إحاضل أن يقال إن السيد المسيح خلق على فطرة أمثله من أصحاب الرسائل الكبرى الذين لا يقطعون لحظة عن الرخصة الروحية، وهذه الرخصة الروحية هي التي يجعلهم منذ صباهم عرضة للقلق، والتفتيق في أعماق ضمائرهم لعهم يعرفون مداهم من لاقتراب أو الابتعاد عن طريقهم إلى الله فهم مشرعون على النور حبوا وبحقنونه عنه حباً ويعودون إلى طوابهم في كل حين بحاسموها على إشرافه أو أحسبها، ويستششرون تارة لأنهم يامحون معالم الطريق، وينجون على أنفسهم باللامه تارة لأنهم يتهمونها بالرجع عن الجادة والامحراف عن المسواء، وفيما بين هذا القلق والانسابة تنمو النفس على الرخصة وتتهيا للشاب والاستقرار وتتخذ العدة لنفوس والإيمان.

لا ريب أن هذه الرخصة هي التي عاها كتاب الاناحين بفترة لتحرمة هي البرية حيث تعيش اشياطين وما للشياطين هنا من وسواس غير وسواس القوق وصراع الفسة وغواية الطمع بين الإقدام والإحصام، حيث تضمنت نفس ساعة ثم بعض هذه الصماتية بالنجريه ساعة أخرى، ثم تعاف التجربة لأنها تسمم بالشل حيث ينبغي التسليم بالله لأن رسالة الله حقيقة بكل فداء وأهل لكل شمن وكل جراء، ولكن من لك أمها الضمير، إنك أنت المخار لرسالة الله؟ أو تطلب الفرها؟ فمن أين لك أن تجمع بين طلب الفرها وبين صدق الإيمان.

وفد نعلب المسيح على هذه المحنة كما نعلب عليها الأنبياء المرسلون بعد قلق وحهاد وصبر أليم، ونحسبه بعد ذلك كان بعالج لقلق من هذا القبيل بالسليم للواقع، وكان بسطهم الحواث إرادة العيب حيث يحتجب عنه هذه لإرادة فيترك الحواث تمضى ويمضى معها وينظر ما تعكم به لمساير وهى هذه

المواقف يحيفه أن يحجم وينهم صميره بالإحجام مخافة العواقب فذلك مسعاه إلى بيت المقدس في أخريات رسالته مرتين. مرة وهو يدخلها بين المرحيب والتهليل، ومرة وهو يدخلها بين النمر والشبك وخيانة الأصحاب وبسيسة الأصدقاء.

كانت هذه الخطوات من خطوات التسليم الذي ينطوي فيه حب الاستلهاج والاستطلاع خبيراً، من طلب البرهان وخيراً من الكوص ما لم يكن هناك برهان، وما قل فائل هي أمثال تلك المواقف ليعمل الله ما يشاء، لا وهو يتركه للمقادير أن تظهر من محرى الحوادث حيث تحرى بها مشيئة الله.

في لحظات كهذه اللحظات يعرض الإنسان كله في أعماق صميره، ولعل لحظه من تلك اللحظات هي التي قال فيها الناظرون إليه به عائب عن نفسه، أو هي التي صمت فيها لا يحير جواباً لأنه هو يترقب جواب لغيب المصور مما عسى أن يكون عن قريب، أو هي التي أقدم فيها لا يبالي بسلامته وعاقبة أمره، ولم يكن فكره قاصراً عن استطلاع العواقب جميعاً في موقف من تلك المواقف الحاسمة، ولكن المشكلة الكبرى كلها هي استطلاع العواقب فهل تراه لا يقدم على العواقب إلا بصمان من البرهان ؟

إن أعمال أصحاب الرسالات لا تفهم على حقيقتها ما لم نفهم معها هذه القاعدة الأساسية في طبيعة الرسال. وهي أن الشك أخوف ما يخافونه. وأن استسقاء الإيمان عذبة ما يمنعونه، وكثيراً ما يقدمون على حسم الأمور لأن السلام أقرب إلى الإيمان، ولأن الإحجام شك أو انقصر برهان، ولشك وانقطاع البرهان يستويان في بعض الأحيان.

وقد نوتت الروايات على أن السيد المسيح كان يسهل إلى الله في تحريبات رسالته قائلاً «ألهم جنيتي هذه لكأس، لكن كما تريد أنت لا كما أريد»

وفي هذا الاتهل مفتاح كل عمل أقدم عليه بعد ذلك، أو أقدم عليه في مثل هذا الموقف فبه لم يحبب الكأس كما يريد بل ترك لله أن يجتبه إياها كما أراد. وموضع التشبه في نفسه الشريفة أن لسلامة هي ما يريده، وأن الكول هو طريقه إلى احساب الكأس، فلنكن مسيرته إذن في غير هذه الطريق، ولكن التسليم هو طريق الإيمان.

الباب الرابع

الدعوة

دعوة المسيحية

توزيع الأديان جميعاً تثبت الحقيقة الواضحة التي لا معنى لكتابة النوارخ مع الشك فيها، ونعني بالحقيقة الواضحة: طراد السنن المكتوبة في الحوادث الإنسانية الكبرى، فلا يحدث طور من أطوار الدين أو الدنيا إلا سبقته مقدماته التي نهدف لحدوثه، وجاء سريانه في العالم على وفق لوائمه ودواعيه

وليست المسيحية شذوذاً عن هذه القاعدة، بل هي من أقوى الطواهر التي تؤيد وتسر في مسراها، وسراها، وسري بعد الإحاطة بالفصول السابقة ولفصول التالية أن الصلة لم تنقطع كل الانقطاع بين العصرين، وأن العصر القديم كان يلتفت ببطره شيئاً فشيئاً إلى وجه العصر الحديث، وسري غير مرة في هذا الكتاب أن الدعوة لمسيحية جاءت في إبانها وفاقاً لمطالب زمانها.

وليس أقرب إلى جلاء هذه الحقيقة من تلخيص صورة العصر كله في كلمات معدودات يحصر بها أهله النازرة ونهتدي بهذه الأمانات إلى علاجها الموكول إلى العقيدة.

فما هي أمة العصر التي برزت في التاريخ واتفقت عليها أوصاف المؤرخين الذين توقعوا الانقلاب فيه من طريق الدين أو من غير طريق الدين ؟

كتب له اثنان بارزتان إحداهما تحجر الأشكال والأوضاع في الدين والاجتماع، والأخرى سوء العلاقة بين الأمم والطوائف مع اضطرابها إلى المعيشة المشتركة هي بقعة واحدة من العالم لعموم وعي لخصوص تلك الأقاليم التي سمعها اليوم بالشرو الأدي.

تحجرت الأشكال والأوضاع وعلبت المظاهر على كل شيء، وتهافت الناس على حياة لغشور دون حياة اللباب، فكل معنى الحياة عندهم سميت ورساة وأبهة ومحافس وشركات، وانتقلت الحصار من الداخل إلى الخارج أو من النفس إلى الجسد، كما يحدث دائماً في أعقاب الحضارات تبدأ في عالم الفكر والوجدان ثم تستعصي العمارات فنملي إلى التحسم والتضخم ونفقد من قوة النفس والصميم بمقدار ما تكسب من مظهر المادة والمال.

تجمعت الثروة و لكسل فى باحية وتجمعب المصقة والجهد المرهق فى ساحة
اخرى فغرق لسانه فى اسرف ونحرق العبيد والأرقاء فى الشقاء، ومسدت
حياة هؤلاء وهؤلاء

وتحجر نظام المجتمع فأصبح أشكالا ومراسم حبرا من المعنى والمعاني،
وتصحرت معه اشترائع والفوائين فلم يكن غريباً أن ينقش على حجارة وأن
يرتفع منارها فى يدي عدالة معصومة العينين، وأن تفرع الكهان هسويين
لأنهما فارغان !

وتحجرت لعقائد الوثنية فى الدولة الرومانية وتحجرت العفد الكنبية بين
بني إسر ثبل فأصبح فرق الشعرة بين النصين بفيم الحرب الحامسة على قدم
وساق، وأصبحت التقوى علماً بالنصوص وبحثاً عن مراسم التسريعه، وعلب
المظهر وإن اختلفوا على اللفظ والناويل.

أشكال وقشور، لا جوهر هناك ولا لب.

وساعت لعلاقة بين الأمة والأمة وبين الطائفة والضافة، ولع الحس بسوئها
عابيه، لأن الدس يعاون من سوئها يعيشون فى نطاق واحد ويخصعون لحكم
وحد، فلا هناك منه بحال.

دنيا فيها مظهر النرف ومظهر العفيدة، ومن وراء ذلك باطن هو ، وضمير
حوا ، فلا جرم تكون خلاصتها فى عهيدة لا يؤمن بشيء كما تؤمن ببساطة
الضمير ولا تعرض عن شيء كما تعرض عن المظهر، ولا تضيق بحلاف كما
تضيق بالحلاف على النصوص والحروف وفوارق اشعره بين هد الناويل وبذلك
الحنبل.

عقيدة قوامها أن الإنسان حسر إذا ملك العالم بأسره وبعد نفسه، وأن
ملكوب السماء فى الضمير وليس فى القصور والعروش، وأن المرء بما يضمره
وفكره قبله وليس بما يأكله وما يشربه وما يلبسه وما يقيمه من صروح المعابد
والمحاريب.

هل كانت الدنيا آفة غير الله المظهر والتناحر على المظاهر ؟

وهل كان لتلك الآفة خلاص غير ذلك الخلاص ؟

وهل كانت المسيحية إلا العقيدة التى تدعو إلى خلاصها من حيث يرجى
وهبات لها فى غيره خلاص ؟

وتقصت لأسباب بين الأمم وبين الطوائف وبين الاتحاد، واسم المصير كله
بالعصبية في السائد والمسيود والحاكم والمحكوم.

الروماني سيد العالم بحقه، والإسرائيلي سيد العالم بحق إلهه، واليودي
والأسيوي ولصري كل منهم سيد الأمم وكل منهم مثاى الهمجية، والمولى يخرج
العبد من زمرة الأدميين، والعبد يمقت اسيد مقت الموت او بفصل موت على
أبرق الذى يجمع عليه بين لذل والألم والجوع، وأبناء الأمة الواحدة طوائف
تشيع بينها التهم وتعمها البغضاء

ويأتى إلى هؤلاء الشير ليطور قماًدا يقول لهم إن لم يقل لهم إن الله رب
بنى لإنسان وإنه هو ابن لإنسان. وإن الحب أفضل العضائل وأفضل الحب
حب لأعداء. وإن الكرم أن تعطى فوق ما تسأل وأن تعطى بغير سؤال، وإن
منكوب السحاب لا تفتح الأموال، وإن ما لقيصر لقيصر وما لله لله، وإن
المجد الذى يمدحه طلائه لا يستحق أن يطلب، وإن المجد الذى يستحق أن
يطلب لا موضع فيه لزاع.

ولم يأت هذا الشير فضولاً على غير انتظار أبناء قومه موعودون به فى ذلك
الزمن، ونساء لأقوام ينظرون شحناً لا يعرفونه ولكنهم يعرفون أن زميرهم لا
يطاق، وأن حانهم لا بد لها من تحويل.

أفلس العبادات، وجاء أحد المعبودين - قيصرو رومة - فأحرق الأسفار
والنبوءات، ولم يبق منها إلا ما هو أقرب إلى الفن فى محراب أبولون إله
الفنون

أم العسادة التى لم تنفس فقد كان رأس مالها كله سيئة مبطرة.. وهذه
علامات أسداد يستشتر بها لمصيق ولا يمجدها انكر، وإما هو خلاف على
العلامات، وعلى مصداقها من العيان والسماع.

لقد كاس الدعوة طناق الزمن وقد بدأت فى أوانها لم سقدم ولم تتأخر، وكفى
بذلك برهاناً على موقعها الصحيح من التاريخ، فقد كان بلاء الدس أنهم خربوا
بنظيرهم وعمروا صايرهم، فجاءهم الرجاء الذى يصلح لذلك البلاء، مشارة لا
تعالى أن يخرّب ظاهر الالب كله إذا سلم للإنسان بمن لصير

وهذه هى دعوه السدد لمسح كما ساقها العيب وبرقها العالم الذى سبقت
إليه، ولو لم تكن هى طليته يومئذ لما استولت عليه قبل أن تنقضى عليها أربعة
قرون

وقد لقيت الدعوة أشد ما يلقاه دين من مقومة فلا يفهم من هذا أنها شاعت في العالم الإنساني على الرغم منه أو على غير حاجة منه إليها، وإنما الدين المطلوب هو الدين الذي يدعو أسباب قبوله على أسباب رفضه. وليس هو الذي يقبله الناس جميعاً طائعين مستسلمين كنه عفى عمن يدعو إليه وما من دعوة قط تستغنى من مبدأ الأمر عن لدعاة.

ولقد تصدى رسول الإخاء والسلام لدعوته وهو يعلم أنها أخطر الدعوات وأنها أخطر جداً من دعوة البغضاء والقسوة، لأن الذي يدعو إلى الإخاء يدعو إلى اقتلاع جذور المعصاة، والذي يدعو إلى السلام يدعو إلى تحطيم سلاح الأقوياء، وليس اقتلاع جذور البغضاء بالأمر الهين وليس تحطيم سلاح الأقوياء علالة حالم وليس اسبيل إلى ذلك سبيل الرضا والوفاء.

لهذا كان يقول: «حب لألقى على الأرض نارا فحذا لو تصطرم». وكان يسأل تلاميذه وسامعيه «أتحسبونني أتب لأمنح لأرض سلاماً؟» ثم يابرو ويقول: «كلا» وإنما هو الصدام والانقسام خمسة في البيت ينقسم ثلاثة منهم على اثنين، وثنان على ثلاثة، ينقسم الأب على ابنه، وابن على أمه، وينقسم الأم على بنتها والبنت على أمها، وتنقسم الحماة على الكنة والكنة على الحماة.

ولقد كان كلام كهذا يبار على السمة بني إسرائيل كما قال ميخ: «ما هي الناس من مستقيم كلهم يكمن للدماء وينصب أشبك. لا تاتمبوا صاحباً. لا تنفقو بصديق وأوصد فمك عن تلك التي تضطجع في حضنك، إن الابن يأتيه مسبهين، وإن البنت على أمها نائرة.. والكنة على الحماة، وللإنسان من أهل بيته أعداء»

ولكن هذه الأقوال وما شكلها كانت وصفاً لما هو حادث ولم تكن نبوءة عما سيحدث من الشر في سبيل الخير، ومن البغضاء في سبيل الإخاء، ومن الحرب سعياً إلى السلام.

وقد صحت نبوءة الرسول في بني قومه فباصموه أعداء لأنه يبسط الدعوة إلى الإخاء ويعم بها «طيور السماء» وهم رمز للطراق في جميع الأرجاء.

ومن الواضح أنه كان يؤثر قومه بالحرب لو استمعوا إليه وأسمعوه، ولكنهم مدعوون إلى وليمة يرفصونها فمن حضرها يغير دعوة فهو أولي بها، وكذلك صرب لهم المثل بوليمة العرس وقد أرسل الداعي عنده في طلب ضيوفه فقال هذا إني شترت حفلاً وعلى أن أخرج هائطره. وقال ذاك إني اشتريت

أزواجاً من النقر وسامصى لأجربها.. فغضب السيد وقال لعهده أذهب عجل
إلى طرقات المدينة ورفضها وهت إلى من يراه من المساكين. فعاد العبد وقال
لسيده قد فعلت كما أمرت ولا يزال هي لرحمة مكان قال السيد فادع غيرهم
من أعطاف الطريق وزواياها حتى يدخلني بيتي قلن يسوق عشيتي أحد من أولئك
الذين دعوت فلم يستجيبوا الدعاء».

ويمكن أن يقال هي وصف تلك الدعوة العامة كثير لا يحصى على حسب
لمطرة لتي بنظرها لقارئ إلى كلام المسيح في الإنجيل.
يمكن أن يقال إنها دعوة إلى حين ينتهي وشيكا بانتها. لعالم كله في امد
قريب، ويمكن أن يقال إنها دعوة ملكوت يدوم ولا يعرف به انتهاء.
ولكننا على التحقيق نطابق حوهرها كله إذ وصفها بأنها « تعبير وجهة »
وافتاح قصة، ولا سبيل إلى الجمع بين الوجهتين ولا إلى التردد بين القستين، فمن
يخدم أحد سيدين.

قصة الروح أو قلة الحسد.

قصة الله أو قلة « مامون »^(١) إله المادة والمال

معبد الصمير أو معبد الصخر والخشب

هنا أو هناك..

فالهم هو الاتجاه أين يكون، وإلى أي امد يدوم، وكل ما يلي ذلك من تفصيل
فهو خطوات الطريق تتسع أو تضيق وتسرع أو تتردد متى استقبل لسلك
قبلته وأدر ظهره له وراءه ولاند من المفسر الحاسم بين القبتين، ولاند من
حيره بين السيدين

(١) كلمة ارامية برمر إلى نظام الميوسا واشتهر الصمير ونظمه إلا أن هي لغات لأدبية على إله
المادة والمال

اختيار القبة

كان الموقف كم قدماً - على مفترق الطريق، وكان على السالك أن يختار وجهته وقبلته، ويحسب لها كل حسابها، فيأخذها بكل ما لها وما عليها أو يرفضها بكل ما لها وما عليها، ويجمع قلبه كله في خدمة الرب الذي يعده، فليس في مفسوره أن يعبد ربهين وأن يدين بالخدمة والإخلاص لسيدتين

وعلى هذا لوجه وحده تفهم الدعوة المسيحية على حليتها، وبزول البس عنها بل يروى عنها ما يبدو عليها من النقائص والأضداد لأنها عند تصحيح الاتجاه تعادل على طريق مستقيم

إذا كان الجبل مقبلاً على محراب « مامون » بقلبه وقلابه، فالوجهة الأخرى على الطرف الآخر من هذا المحراب.

إن عباد « مامون » غارقون في هموم الطعام، لا يفرغون لحظة لغير الشهوة والطعام، فالذي يستدير هذه لقبة فيمكن قلبه حيث لا ظل لذلك المحراب ولا أنقص لأركابه وأوثانه، وحيث المطلوب كله هم الروح والضمير، وحيث المنبوذ كله هم المادة والجثمان.

أو كما قال لهم الرسول الشير « أحياء أفضل من الطعام، والחסد أفضل من اللباس وزنايق الحقل تنمو ولا تتعب ولا تعزل، وسليمان هي كل محده لا يلبس كم تكبس وحدة منها فإذا كن العشب الذي يقوم اليوم في الحقل ويترج عداً في التور يلبسه الله فما أحرأكم أن يبيسكم يا قلبى الإيمان. »

« نعم. وإذا نهالك أعم العالم على الطعام والشراب وقلق العيش فاطلبوا أنتم ما هو أفضل وأبقى... اطلبوا كنوز لا تنفد في سمواتها حيث لا تنلها يد اسارق ولا يسبها السوس. »

من استدير قلبه « مامون » فهذه هي القبة التي تنجها، وهذه هي عابها القصوى، وإن لم تكن هي كل خطوة في الطريق.

وعلى هذا ابوجه يفهم السمع رسول الرحمة حيث يقول « ما هو بقادر أن يكون لي تلميذاً من لا يقدر على أن يبعض أباه وأمه وامراته وبنيه وأخوته، بل ينقص نفسه.. »

وما هو بقادر أن يكون لي تلميذاً من لا يقدر على أن يحسن صلته ويتبعني في طريقى »

قائل هذا هو القائل

« أيها السامعون أحبوا أعداءكم، أحسبوا إلى مبغضكم باركوا لاعنيكم، ادعوا لمن يبغضون إياكم، من لطمك على خدك الأيمن فحول له الأيسر، ومن أخذ رداً منك فامنحه ثوبت، وكل من سألَكَ فاعطه ومن أخذ ما في يدك فلا تطالبه، وما تريدون أن يصنعه الناس لكم فاصنعوه لهم أنتم، وأي فضل لكم إن أحسنتم لدين يعبوبكم ؟ إن الخطاة ليحبسون من يحبهم.. وأي فضل لكم إن أقرضكم من يرضون قرضكم ؟ إن الخطاة ليقترضون من يقترضهم.. بل يحبون أعداءكم وتحسنون وأنتم لا ترجون أحركم... ».

وقائل هذا هو القائل :

« إن أخصاً أخوك هو يوحنا. وإن ناب فاعبر له، وإن أخطأ إليك سبع مرات وناب إليك سبع مرات فتقبل منه توبته ».

وهذا يقض داك

هذه الرحمة التي تعم لأعداء والأحباب تقبض ابغضاء التي تشمل بها أحب الناس إلى الناس : لأبَاء ولأمهات والأبناء وبنى الرحم والقربى،

إنهما تساقضان عداية لساقص لا على وجه واحد، وهو توجهه لنظر إلى قبلة غير القبلة ووجهة غير الوجهة، وعناية قصوى غير تلك العناية القصوى التي تسديرها

وإذا افترقت الطريقان ووجه عليل أن تمضي هنا أو هناك، فلا جناح غلبت أن تمضي حيث سمعت خطاك ولو كرهت بنفسك وحملت صليبك واقطعت عن نوبك، وما من أحد نأسي أن يحب نوبه وأن يحبه نوبه إذا ساروا حيث سار واسبقوا معه حيث استقام، فليس عن هذا يجري الحديث ولا في هذا موضع للنصيحة والتفصيل، وإنما يجري الحديث ويستمع الصبح حيث يشعشع الطريقان ويتناقضان

وإنما يجري الحديث ويستمع الصبح حيث يقابل الفيلسان، وحيث تقصى هذا مع الله وتمضى هناك مع مأمور.

ولا ينفذ في هذا اعترق بين نصيحة من تلك النصائح أو آية من تلك الآيات، فكلها على نهج واحد من أول الطريق إلى غايته، ولهذه العناية القصوى ينبغي أن يتمول من يعمها يخطأ وأثرها بهواه.

وعى مثل من الأمثلة التي نعلم بها أقوال المسيح عبر بهم عن الموقف كله بأن يحسبوا لبقية كلها قبر بباء حجر في البرج اششامح.

« من منكم وهو يريد أن يبني برحاً لا يجس ليحسب نفقته ويعلم من
ليه ما يلزم لكماله؟ ».

فهذا حساب النكسب جميعاً قبل وضع الحجر الأول في أساس البناء، ولا
حجر ولا أساس ولا برج هناك، وخير لمن تخذله القدرة ونعمه النفقة أن
يترك الأرض والحجر والساء.

فمن نظر إلى الأرض مرأى شعباً تتقاطع ومفارق تختلف فليرفع نظره من
ذلك الشعب ولنظر إلى لائق الذي ينص إليه الركاب، فهذه القلة التي يتلاقى
عندها ما شعب، وينهى إليها ما أعوج أو يستقيم من الدروب.

ولقد كان المستمعون إلى السيد المسيح، وأولهم تلاميذه وأتباعه يعجبون منه
لأميرين ترحيمه بالأطفال لصغار وحطابه للمبؤذين المحقرين، فاسهرهم حين
رأهم يعبثون عنه أفعال القرى وقال لهم

« سموا الأصفال يأسون إلى ولا تمعوفهم.. فمن لم يقس على ملكوت الله طفلاً
فلن يدخل إليه ».

وقد لقوم أيقبوا أنهم أبرار واحنفقوا لمشهورين بالذنوب، « صعد اثنين إلى
الهيكل يصليان، فريسي وعشار.. ».

سأما الفريسي فراح يقول في صلاته حمداً لك يا إلهي، « لست كسائر
هؤلاء الخطيئين الصالحين امرأة، ولا كمثل ذلك العشار، أصوم في اليوم مرتين
وأزدي حق العشر عن كل ما أقتنيه.

وأما العشار فوقف من بعيد لا يشاء أن يرفع عينيه إلى السماء وقرع صدره
واسهل إلى الله ارحمني يا إلهي أنا الخطي، فهبطا إلى بيتهما هذا مستجاب
وبذلك غير مبرور ».

وتكرر هذه الأمثلة فنكرر معها العجب من المستمعين إليه من آمن به وأحبه
ومن كفر به وحقق عليه، ولو أنهم إذ كانوا يعجبون ذلك العجب قد عرفوا رسالته
وسنقبوا قبلته لما أنكروا عينه أن يشخص ببصره إلى بعيد، وأن يزهق في
يومه ثم يمشي بالرجاء إلى غده، فبما في بعد يوم أولئك لأفعال المرتقب، وإنما
يرجى لتبديل الحال من لا يعيبه من الحاضر إلا أن يزول.

وجماع أهول أن الدعوة الجديدة، كبت ككل دعوة جديدة عربية مناقضة لما
حوالها، ولكنها تنقص عنها كل عرائبها وتناقضها إذا نظرت إلى القلة التي
تستقبلها فهناك تلقى اشعاب ويحسن المآب.

تجارب الدعوة

استوفت الدعوة تجربتها في فترة قصيرة ثم نطل أكثر من ثلاث سنوات، ولكنها كانت كافية. لأنها كانت في الواقع تحريش ودعوى، قام بهما رسولان مختلفان في الطبيعة والطريقة، وهما يوحنا المعمدان (يحيى العتسل) وعيسى ابن مريم.

كان يوحنا المعمدان مثل الناسك الصارم الذي لا يحابي ولا يتردد، نشر كثيراً ومشتراً قلباً، ويصع القاس على أصل الشجرة، ولا يبالي أن يلقى بها حطباً في الأنون.

ولد لشيخين كبيرين بعد يأس، كلاهما من سلالة الكهنة أبناء هرون وهما زكريا والنصبات.

وفي نجيل لوقا شرح لقصة هذا المولد في شموخه لأب والأم جاء فيه أن زكريا كان يتولى الخدمة الدائمة في بوبه فأصابته الفرعة بدخول الهيكل وإطلاو الحور، فصار مكنه في احزاب وجمهور لصلي يترقب ويتعجب، حتى عاد إليهم صامتاً لا يتكلم، فعلموا أنه قد حلت به لرويا داخل احزاب، ثم روى أنه بصر عيسى يمين المديح ملك واقف فاصطرب وعرفته رجفة فقال له الملك لا تخف يا زكريا. إن الله قد أجاب سؤالك وستلد «مراك» ولداً وسميه يوحنا وتفرح به ويفرح به كثيرون، لأنه يولد من بطن أمه ممثلاً بالروح القدس ويرد بني إسرئيل إلى إلههم، ويتقدم بروح إيليا (إلياس) وقوته .

وقد ذكرت قصة زكريا في سورة آل عمران من القرآن الكريم

﴿ هَذَا نَذَارٌ كَرِيمٌ ﴾

قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿١٣٨﴾ فَانَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْغُرَابِ أَنْ اللَّهَ يَنْشُرُ لِرَبِّهِمْ مَعْدَنًا يَكْتُمُونَ ﴿١٣٩﴾ فَوَصَّاهُ وَنَبَّأَهُمُ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٠﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ

يَفْعَلْ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ إِلَّا أَنْ تَكَلِّمَ النَّاسَ
وَجَعَلَ ابْنُ مَرْيَمَ وَآمَنَ بِآيَةِ رَبِّهِ وَأَتَاهَا إِلَى رَبُّوهُ ذَاتِ قُرْبَىٰ
وَمَعِينٍ ﴿٤٠﴾

وذكرت في سورة مريم

﴿ كَيْصَ ۝ ذِكْرِ مَرْحَمٍ رَبِّكَ عِنْدَ رَسَدٍ ۝ إِذْ نَادَىٰ رَبُّهُ بِدَاۤءِ
خَمِيۤئَةٍ ۝ قَالَ رَبِّ ابْنِ وَهَمٍ الْعَظُمِ مِنِّي وَاشْهَدْ لِرَأْسِ شَيْءٍ وَلَمْ أَكُنْ
بِدُعَايِكَ رَبِّ شَقِيۤئَةً ۝ وَإِنْ خِفْتُ أَلْوَالِي مِنْ وَرَدِي وَكَانَ امْرَأَتِي
عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيۤئًا ۝ يَرْبِّي رَبِّ ابْنِ لِي مِن نِّعَمَتِكَ وَلِجَعَلْهُ
رَبِّ رِضِيۤئًا ۝ يَذْكُرۡنَا إِنَّا سَمِعْنَا بِغُلَامٍ اٰسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ
مِنْ قَبْلُ سَمًّٰى ۝ قَالَ رَبِّ اَنْ يَكُوْنَ لِي عِلْمٌ وَكَانَ امْرَاَتِي
عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيۤئًا ۝ قَالَ كَذٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلٰى
مَا يَنْۢوِيۡ وَوَقَدْ خَفَضْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ شَيْۤءًا ۝ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي
آيَةً ۝ قَالَ آيَتُكَ اِلَّا اَنْ تَكَلِّمَ النَّاسَ تِلْكَ لَيَالٍ سَوِيۤءًا ۝ فَخَرَجَ عَلَىٰ
قَوْمٍ مِّنَ الْمَرْجَابِ فَأَوْحَىٰ اِلَيْهِمْ اَنْ سَبِّحُوْا بِحَمْدِ رَبِّ عِشِيۤئًا ۝ يَبۡحِثُ
خِذَا الْكِتٰبِ يَقُوۡفُوۡا ۝ اٰتَيْنَاهُ الْحِكْمَ صَبِيۤئًا ۝ وَحَسَّ اٰتَمَ لَدُنَّا
رَزَقُوۡهُ وَكَانَ نَبِيۤٔا ۝ وَرَآ اٰوَادِيۡهٖ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًۤٔا ۝
وَسَلَّمۡهُ عَلٰٓيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوۡتُ وَيَوْمَ يُنۢشِئُ حَيًۡٔا ۝ ﴿٤١﴾

وقد بدأ بعمل منثوراً للمثولة. وذلك معنى وصفه في القرآن الكريم بالحصون،
وكان عالماً بالكتب السبعة، يسمعها من أنوبه ويتلوه في خلوته، وكان كثير
أعربه شديداً على نفسه في بهجته وبسكه، فلما ظهر بالسحوة رآه الناس في
ثوب حشيش من لوبر بلغ حقويه بمسطحه من الحديد، يصوم أكثر الأيام ويقف

من الجراد والعسل البرى ويهيب بالناس فى صوت قوى صارم توبوا واستمعوا قد وضعت العنس فى رأس الشجرة وكل شجرة لا تأسى بثمر حصد تقصع وتلقى فى النار . صوت صارخ فى البرية كما قال الأنبياء الأقدمون .

ولم يكن ينفى حركاً فى كلامه عن نبي خطبنة أو دنس، فراح يحى بهذا الصوت القوى الصراح على الملك هيرود لأنه سرح من هيروديه أخته و زوجها لا يراى بعبد الحبه . فلما اعتقله الملك وجيء به إلى حضرة لم يسكت ولم يكف عن استدبد به وبأخته وأمره بتطبيقها فرر من غضب الله .

وهى سهره من سهرات اللهو التى تعود هيرود أن يحييها فى قصره رفعت بنت حنه (سلامة)^(١) بين يديه فستخفه الطرب و وعد أن يعطيها سؤلها كائنا ما كان فلم تسأله شيئاً غير رأس يوحنا فى طبق، وأصرت على طلبها فأعصاها ما سألت وهو كاره، ونجا بفعلته لأن يوحنا كان شديد اللسان على الكهان والفقهاء، فثقلوا تلك الجريمة بغير تشهير أو اعتراف .

وقد تنكر الكهان والفقهاء للرسول لثأر قتل أن يتكر لهم، كما يفعل لاديين «المحترفون» عادة بالوعاظ الذين لا يتسبون لهم ولا يعيشون فى زمرةهم فكان يوحنا يصيح بهم «ما أولاد الأعدى . لا بهحسن مأخلاقكم أنكم تنسبون إلى إبراهيم.. إلى أقول لكم إن الله قادر أن يحرر من هذه الحجارة أبناء إبراهيم» .

وكانت هذه أول صيحة من ذلك الرسول الثائر سمع فيها الناس أن الخلاص نعمة يسعها الله على من يشاء ولا يحصى بها بناء سلاله دون سائر اسلالات البشرية، وكانت علامته على قبول لمسيحين لدعوتة أن يذكر اسم الله ويرشهم بالماء ويمسح على رؤوسهم، مهم بعد ذلك، هل للسخرى فى زمرة التائبين وطلاب الخلاص ولو لم يكن لهم نسب فى آل يعقوب وإبراهيم .

هذه لدعوة لصارمة لم تلت أن اضطلعت بعمية الشهوات وعباد العزور، ولكنها لم تذهب سدى بن الدهماء التى لا تضلها أهواء السيادة، وبقي اسم يوحنا مقدساً محبوباً بخاف الأعدىاء أن يجثروا عليه، فلما أراد الكنيسة والدموسيون أن يخرجوا السيد المسيح بالأسطة والمعصيت رد عليهم حرجهم وقال لهم أحيوبى (أولاً) هل كانت رسالة يوحنا من اسماء ام من الناس ؟

(١) المشهورة باسمه سالومي .

فهم يستطيعوا جواباً لأنهم إذا اعترفوا برسالتهم أنهموا أنفسهم وإذا أنكروها غضب الشعب عليهم فصمتوا صممتين.

وليس أدل على مكانة يوحنا من ثناء يوسفوس المؤرخ الكبير عليه، وهو شديد الحذر من إغضاب نوى الرأي والسلطان، فقد قال عنه « إنه كان إنساناً صالحاً أوصى اليهود أن يبر بعضهم ببعض وأن يتقوا الله » وهذه شهادة من المؤرخ يريد بها شهادة قومه، وهى شهادة للرسول وشهادة على أنفسهم، وقد باع دعوة الرسول الصارم بإحدى التجاربين اللذين مرت بهما دعوة الخلاص فى عصره، فخرج الرسول الصارم من الدنيا وهو يعلم أن دعوة الخلاص ضائعة إذا انحسرت فى قبيل واحد، وأن الخلاص مرهون بمن يصلبه ويخشى من قواته، ولو لم يكن من ذلك القبيل.

* * *

والسيد المسيح طسعة أخرى غير طسعة يحيى بن زكريا، فلم يكن مبادئ ولا ناهراً من الناس. بل كان يمشى مع الصالحين والباطنين، وكان يشهد الزلائم والأعراس ولم يكن يكره التحية الكريمة التى تصدر من القلب ولو كانت مبهمة نفقة وكلفة، ويوخ تلاميذه مرة لأنهم تقشفوا وبزمنوا فستكثروا أن تربق إحدى انصاء على رأسه ضرورة طيب تشتري بالديابىر، وقالوا لماذا هذا السرقة ؟ لقد كان أخرى بهذا الطيب أن يباع ويعطى ثمنه للفقراء، فقال لهم عليه السلام « ما بالكم ترمجون المرأة ؟ إنها أحسست بى عملاً وإن الفقراء معكم اليوم وغداً، ولست معكم فى كل حين ».

هذه السماح قد اصطدمت بعمامة الشهوات وعاد الغرور كما اصطدمت بهما تنب الصرامة. وقد أحصى السيد المسيح على عصره هذه الصدمة وتلك الصدمة فقال « إن يوحنا جاءهم لا يأكل ولا يشرب فقالوا به من شيطان، ثم جاء ابن الإنسان يأكل ويشرب فقالوا إنه إنسان أكل وشرب محب للعشاريين والخطاة ».

وسأنة قد استوتت تجربتها بل تجربتها، وخرجت من التحريتين معاً إنسانية عالية تنادى من يستمع إليها، وتعرض عمن أعرض عن دعوتها بل دعوتها دعوة الغيرة الصارمة الأبى، ودعوة لعيرة لسمحة الرضية، ووقدر بها أن تعيش فى قبيل واحد لاستمع لها ذلك القبيل فانعزلت معه، فلم يسمع بها العالمون.

أشريعة

كل مرجعه تاريخية لذلك العصر تنهى من جانب البحث السياسى وجانب
البحث الاقتصادى أو جانب البحث الاجتماعى، أو الدينى، أو الثقافى إلى نتيجة
وحدة وهى أن ضحايا النذخ والرياء قد طغوا فيه من كثرة العدد وسوء الأثر
حداً بقوى حتمى عصر واحد، فلا يطبق أن يسفر به إلى انصر الذى بعده دون
أن يطرأ عليه طارئ، وإن يكون ذلك الصدى غير ماضى أفعال شامل.

سعى فب ضحايا النذخ والرياء غلبة ما سلطوه فى عصر واحد وقد يقال إنهم
ضحايا ثرىاء بألوانه الاجتماعيه والنفسيه، فما كان النذخ إلا صرخاً من ثرىاء
الاجتماعى، لأنه معلق فى جميع أحواله بفحمة الظهور، وسيار ولع النفوس
بفحمة لظهور الأخوف وولمها بالرياء.

وفى عصر كذلك العصر تلزم الرسالة.

لكنها لا تلزم لتأتى العالم بمرید من الشريعة، ولا بمرید من تطبيق الشريعة،
فقد تكون لحصيه كلها هى تطبيق الشريعة إذا جرت على سنة الرياء، وغلب فيه
اتفاق على الصنق والإنصاف.

إنما تلزم الرسالة فى أمثال ذلك العصر لتعطى العالم ما يحتج إليه، وتنفذ
ضممايه

والآداب، الإنسانية هى الحاجه العظمى حين يحضر السوس باطن العرف
ولشريعة، وضمايا الرياء هم أول من يتلقف تلك الآداب الإنسانية ويشعر بتلك
الحاجة العظمى.

إنها رساله قلب كبير يشعر فيجب إليه كل شعور، ولا سيم شعور الضحايا
ولمطومين.

ويوشك مع الظلم أن يكون كل متهم مظلوماً، لأن الجريمة كلها فى جانب
الحاكم لا فى جانب المحكوم عليه

وحيث يكون الظلم هو الآفة فاللهمون هم أولى الناس بالرحمة والعطف
ولإفاد

وقد كان لهمون هم أولى الناس بالرحمة والعطف والإفان في أحضان الدعوة الجديدة: أحضان الرسول المشر بالخلاص والنجاة.

طوبى للحناني طوبى للمساكين طوبى للجياع وانطماء، طوبى للمضطربين في سبيل البر، طوبى للودعاء والرحماء، « تعالوا إلى يا جميع المتعبين والمثقلين.. احملوا نيري عليكم وتعلموا مني.. فتجدوا راحة نفوسكم. لأن نيري هين وحملتي خفيف ».

أما لويل فهو ويل الشباعي الذين لا يعلمون أنهم جاثعون، ولأغنياء الذين لا يعلمون أنهم معوزون، والمضطربين الذين لا يعلمون أنهم مساكين، والتكبريين الذين لا يعلمون أنهم منكسرون.

* * *

واستجاب ضحايا الرياء لمسيحة الرسول الكريم على قدر شوقهم إلى العزاء، وعسى قدر ما يحملونه من أوقار اشريعة العمياء، والتقوى المريفة، وربما كان الأصح أن الرسول الكريم بذل عطفه لضحايا الرياء على قدر حاجتهم إليه وشعورهم براحمته ورحمته، وعلم أن لشكران على قدر الغفران، وأن لأم في الدوبة على قدر الكرم في الحب، « مديان على أحدهما حسمائة دينار وعلى الآخر خمسون. ليس لهما ما يوفيان، فأجزلهما شكراً من سوبح في الدين الكبير ».

وكانت ضحية الضحايا في ذلك العصر المرأة، لأنها لم ترل ضحية الضحايا في كل عصر يطعم عليه البذخ من جانب ويطفئ عليه الحرمان من جانب، ويغم الرباء في كلا الحاسين، ولم ترل في كل عصر كذلك العصر تنوء بشقاء الفتنة على ألوها قصة لعوانة وفننة الفاقة وفننة الأسيرة المنحلة وفننة الحيرة التي تعصف بالثقة... والطمأنينة ألزم ما يلزم المرأة في كل زمان.

ونظرت تلك الفريسة التي لاحقتها اللعنة نحفاً بعد أحقاب، وأطبقت عليها فننة في ذلك العصر خاصة أكاماً فوق أكام - فاد جنان ظهور يغمر ضمعها ويجبر كسرها ويمسح اليأس من قراره وحدابها ويشيع الأمل في رحمة الله بين حوانحها، فعلمها درس من دروس الحب القدسي ما لم تتعلمه من دروس العقاب في شريعة المنافقين وموازين القسطين وبرزت على صفحة الزمن في ساعة من ساعات ذلك العصر المريج صورة مشرفة زلت شرائع الهيكل، وزالت شرائع رومة، وهي باقية عالمة، صورة لغفران مثلة في شخص الرسول

الكريم، وصورة التوبة ماثلة في شخص فتاة منبوذة جاثية على قدميه، تسكب عليهما الدمع والطيب وتمسحهما بفدائر رأسها.

والتفت السيد إلى تلميذه وإلى المتفجعين من حوله، يتسألون: كيف يزعم أنه نبي ويجهل أنها امرأة خاطئة، فقال: «أتضر إلى هذه المرأة! إنني دخلت بيتك فلم يكن لقدمي فيه مسحة من ماء، ولكنها غسلتهما بالدموع ومسحتهما بشعر رأسها، ولم تمنحني قسلة وهي مند دخلت لا تكف عن تقبيل رجلي، ولم تدهن رأسي بربيت، وهي قد دهنت رجلي بالطيب. ومن أحب كثيراً غفر له الكثير من خطيئته...».

توبة صادقة ورحمة مستجيبة لا غرو بصع على الشريعة الكاذبة هراسها، ونخشي النقوى الرائقة على فحرف وكربها، وويل لمن يفتح باباً للتوبة والرحمة ولا يبالي الأبواب التي فتحت لسفمة والعقاب.

* * *

مند الخطوة الأولى اتى خطها السيد المسيح في التبشير برسائله أخذ على نفسه أن يعتزل «السلطة» ويتنحى لها عن ميدانها، فلا يتصدى لها بإبطال أو بإنقاذ، لا يبذلها ولا يدعى لنفسه ولايتها، وحق لكل معلم قاصر أن يسلك تلك النمطة في زمنه، فإنه كما تقدم قد نشأ في دينا تشكو الكفة من الشرائع والأوامر والنواهي والحكام والمنسحكين ما فاض من رومة الشرائع تملأه مراسم الهيكل وشعائره ومجلائه ومحرماته، وما فاض من رومة ومن الهيكل ملأه سيطرة هيروا وأبنائه وأدبائه وقائعه ولا حاجة إلى مزيد من الأحكام مع فساد الحكم، فإذا وجب إصلاح بعضها فالخير من إصلاحه لا يسارى جهد الحرب التي تشنها طائفة ضعيفة على دولة الرومان، وعلى دولة الهيكل وعلى الدولة الأنومية اليهودية التي تشايح البولتين وتعمل لحسابها بعد حساب هاتين القوتين، ومن المحقق أن الشر الذي يجمع من ذلك الجهد أخطر وأقبح من الخير الذي يتأتى من ورائه، إن تاتى، وقد يدرك بإصلاح الصمائر ومهدب الآداب الإنسانية وتعليم الأحاد أمثلة من الأخلاق يهدى أصحابها حيث تصلهم الشرائع والقوانين.

إلا أنه بهذه الحيدة عن طريق السلطة قد ترك ميدانها فلم تترك له ميدانها، وسرعان ما أقبل عليه الجموع حتى أجمعت السلطة - سلطة لادين قبل كل شيء - بالخطر المقبل من ذلك الداعية المحبوب، وكل داعية محبوب خطر على سلطة التقاليد والحمود.

حاج هو ميد به بعد أن ترك لهم مبدأهم، ووقع الاشتباك الذي لابد منه بين سلطه شعارها المتأله في الاتهام والبحث عن المحالقات والعقوبات، وبين دعوة شعارها تيسير التوبة للخاصين وتمهيد سبل الرجاء في العفراء

كان التبعشير بالعفراء والتوبة أكبر ذنوب الداعي الجديد، لأن الخطايا والعقوبات بضاعة السلطان القائم، وهي على كونها مصححة مريضة باب لفخر والكبرياء.

فجاء يسوقونه إلى حيث أبي أن يساق وكان همهم الأكبر أن يثبتوا عليه أنه يبطل شريعة أو يتصدى لتعذيب ذريعة، فاعتنوا عقولهم في البحث عن المشكلات والأغراض التي يفتي فيها بما يخالف الشريعة الدينية أو القوانين السياسية، أو يقى فيها بما يخالف أدب الرحمة ووصايا السماحة والصلاح.

برز له مرة واحد من جموع السامعين فقال له أيها المعلم ! مر أخى يقسمنى الميراث... وطن أنه يتولى هنا سلطة التقسيم بحق الكرامة على تلاميذه ومستمعيه، فما زاد على أن قال أنها الإنسان، من أقامى عليكما قضياً أو حسيباً ؟

وتعمدوا وهو فى الهيكل أن يضطروه إلى موقف الحكم أو إنكار الشريعة فاقحم عليه الكنية والفريسيون يرويه ومعهم امرأة تدفعونها إلى وسط الحلقة، وراحوا يتصايحون أيها المعلم، هذه امرأة أخنت وهى تزنى، وقد أوصانا موسى أن نرجم الزانية، فماذا تقول أنت ؟

ماذا يقول هو ؟ ما بالهم يسألونه ويستأذنونوه وهو لا يملك أن يمنعهم لو ذهبوا بها إلى قضاتها ؟ إن الشراك مكشوف على وجه الأرض، وليس منه مخرج فيما حسبوا وخمنوا ... إن قل ارجموه فذلك حق الولاية يدعيه، وإن قال أطلقوه فتلث شريعة موسى ينكرها فى قلب الهيكل، فكيف الخلاص من جاسى الشراك، ولو أنه مكشوف معروف.

سبق إلى ظنهم كل خاطر إلا أنه ينتهى من القضية إلى حل لا يدعى به السلطة ولا ينكرها، ولا يتساق فيه إلى مجاملة لرياء بالدين وكبرياء بالتقوى، ولبنوا يترقبون ولا يبررون كيف يخرج من المأرق لذى دفعوه إليه، وهو يستمع إليهم ويحط بأصبعه على الأرض حتى فرعوا من جيبهم وسؤ لهم، فوقف قائماً ورد عليهم رياءهم فى وجوههم وكسر الشراك بقدميه من كلا طرفيه، وهو يقول لهم «من كان منكم بلا خطيئة سيقدم ويرمها بحجر».

لا يفتقر شريعة موسى ولا يدعى تنفيذها ولا يجامل رباهم بل يدعهم هم يحاولون الخلاص من الخيرة والحل بالروغان !.

ويقول المراء المسكينة واقعة وحدها أمامه، فسألها سؤال العارف أين المشتكون منك ؟ أما دانتك أحد ؟ . فقالت لا أحد أيها السيد. فأرسلها وهو يقول ولا أنا أدنك. فاذهني ولا تخطئي.

نعم. لا يسبها ولا يحسب عيب أنه لا يدينها في تلك القضية ولو كان هو قاضيها، لأن القاضي لا يدين عبر شكوى، ويعبر شهود ويعبر بيعة !

وتناول مسألة الزواج والطلاق، وقد بلغ من سهولتهما في ذلك العصر أن تصدع الأسرة وأن تصحح الروحة أصعب من الحليلة في عرف قومها، فقال إن الزوج وأروجة جسد واحد لا يفصلهما إلا سائر وقد جمعهما الله « ومن طلق امرأته إلا لعله الزنا دفعها إلى الزنا، ومن تزوج مطلقة فإنه ران »

ولم تحدث مناقشة قط من هذا القبيل بينه وبين المتفهمين من متحدي العلم صناعة وأصول إلا ارتبوا منها مفحمين، وخرج منها مجيباً أحسن جواب يل أكرم جواب.

فلم يصعب عليه أن يحطم « لشرك السياسى » الذى يصبوه له ليسمعوا منه إشارة بإعطاء الجزية أو يعصيان الدولة، وأراهم أنهم يتعاملون بنقد قيصر ويكثرون منها الثروة والمال، فلماذا لا يعطون ما لقيصر لقيصر وما لله لله ؟

ولم يصعب عليه أن يسكت الصديقين والفريسيين معاً، والأولون ينكرون السبت والآخرون يؤمنون به جسدياً وروحياً على السواء. فلما قيل له إن شريعة موسى توصي الأخ أن يننى بـروجة أخيه المتوفى حفظاً للأسرة، وسأله: لمن تزول في يوم القيامة زوجة تعافبها مسعة إحوة ؟ حين إليهم أنه لن يستطيع أن يجيب عن هذا السؤال جواباً يرضى الصديقين أو يرضى لفريسيين فكان جوابه مقحماً لهؤلاء وهؤلاء، لأن الأحياء في العلم الآخر لا يترجون زواج هذا العالم، ولا يتناسلون !

والحق أن الأنجيل لا مروي لنا من هذه المساحلات إلا ما تشهد أمثاله اليوم في كل درس من الدروس العامة يتصدى فيه المتعاملون المتفهمون لتعجير المعمين والوعاظ. وإن اختلفت المقاصد من أسئلة السائلين في كل حققة على حسب الموضع والموضوع.

والحق ان قدرة السيد المسيح على الردود السريعة والأجوبة المسكنة لهى دليل آخر إلى جانب أدلة كثيرة على « الشخصية » الناريحة، و لدعوه المتدسسه، لأنها قدرة من وراء طاقة التلاميذ والمستمعين، بل هم يروونها ولا يعطون إلى أهم لبواعث عليها فى سياسة الرسالة المسيحية، فمن هذه الرسالة قائمة على أجساد التشريع واجساد المعص له بالإنطال أو الإيدان، ووجهنها على الدوام أنها لا تدعى سلطة من سلطات الدنيا وأدين، وأن مملكة المسيح من غير هذا العالم ونسبت من ممالك النول والحكومات كذلك فإن لكهان الهبكل وكذلك قال لسيلاطس حاكم الرومان، وعلى ذلك جرى أسلوبه فى كل أمر وفى كل موعظة فهو أسلوب الآداب والمثاليات وليس بأسلوب النصوص والقوانين، وكلامه عن رضى المطلق وعن رضى العين التى تقلم إذا صرت مظرة اشتها، وعن حصينة اليد التى تقصع إذا وقعت فى العثرات، لا يحمله أحد على محمل التشريع وليس فى مسكك المسيح كله هى رسالته ما يجريه مجرى الإلزام، ومع هذا يجب على الرواة من يحسبه تشريعاً مقصوداً بحرومه، وفل من الرواة من فرق فى فهمه بين أسلوب التشريعة المقصودة بحرفها وأسلوب الآداب الإنسانية التى ترتفع إلى الأكمل فالأكم وتنفذ إلى المعاشى من وراء الألفاظ، ويرجع الأمر فيها إلى صغير يحاسب صاحبه ولا يرجع إلى قضى يشمل عند أو يدخل فى الصدور ليتسمع فيها بواعث الاشبهاء، ولو خلصت هذه المعاشى إلى سامعيها جميعاً كما عبها السيد المسيح لما ثبتت له كما ثبتت من اختلاف لفهم والتأويل

شريعة الحب

الجمود والرياء كلاهما موكل بالظواهر، فالجمود يقف بصاحبه عند الكلمات والنصوص، يخيل إليه أنها مقصودة لذاتها فتصبح شعلاً شاملاً له بمعنى في تنويعها وتوجيهها واستخراج العقد والألغاز منها، وينتهي الأمر به إلى اعتبارها مسألة براعة وفطنة واعتبار الأحكام والعقوبات فرصة للشارع لا يجوز أن تغفل من بين يديه، وإلا كان ذلك مطعناً في براعته وقطبته وهريمته له أمام عرمة انقصوديين بتلك الأحكام والعقوبات.

ومن الجامعين من يفخر بعلمه بالنصوص ولشرائع، ويقيس علمه بمبلغ قدرته على خلق العقد والعقوبات من خلال حروفها ومصورها أو من المقابلة بين سوايقها ولو احققها بين مواضع التوافقة والمناقضة منها، ويحدث هذا لكل «شريعة» صارت إلى أيدي الجامعين والحرعيين فقد أدركنا في مصر أننا من كتاب الدواوين يفخرون بقدرتهم على توقيف العمل بين المراجعات والبرود، اعتماداً على هذا النص أو تلك الحاشية، واقتنائاً منهم في عصر العبارات وببش الدفائش وقامة الدليل من ثم على سعة العلم ولعلية في ميدان الحوار ومجال التف والبوران.

ولا حساب للنفس الشريرة بطبيعة الحال عند هؤلاء احاملين الحرفيين، وإنما الحساب كله للنص المكسب من جهة وللسوى العم والتخريج من جهة أخرى وإنما النفس الشريرة هي الفريسة التي يتكفل العقاب باصيدها ويتكامل العلم بإغلاق مفاصل النجاة في وجهها، ويقذف في غرور العالم المحيطة بأسرار الشريعة وحفاياها أن تتمكن النفس المسكينة من الهرب وأن يرجع العقاب بخير فرصة .
وتلك خيبة لشرائع ولقوانين، خيبة لها أن تفتح مداخلها ثم تنجح للصحايا والقرايين أن تغفل منها !

فالشارع اماهر في عرب الجمود هو أقدر الشارعين على مد الحبال واقتناص الضحايا.

والفخر كل الفخر لخدام الشريعة أن يوقروا لها الصيد ويحكموا من حوله الشبكة

وقد سنفخ الأوداج بهذا الفخر علانية، ويصبح أحق الناس بالمفخرة أقدرهم على إدامة الآخرين.

ويتمادى الأمر حتى تصبح الاستقامة براعة في اللعب بالأكماما وتعجيزاً للجهلاء، نالحبل والقنوى، وحتى يرول الجواهر في سبيل العرض، ويرول للرب في سبيل العشور، ويرول الاستقامة وطهارة الصمير في سبيل الكلمات والنصوص، وتزول الحقائق في سبيل الظواهر والأشكال.

وإذا صار أمر الفضائل إلى الظواهر والأشكال تسبى فيها الصديق والرياء، فإن غاية الصديق والرياء معاً شكل ظاهر باطنه حواء، فلا فرق بين المرائى وبين الصادق في فضيلته، ما دامت الفصية جموداً لا حس فيه ولا حباه ولا عسار فيه للنفس البشرية وراء النصوص والأحكام وراء الأوامر والنواهي، وراء العقاب والاحتياال.

إن اجمود والرياء كلاهما موكل بالظواهر.

وعالم الظواهر غير عالم الصمير.

وهذان هما العالمان اللذان تقادلا وجهاً لوجه عند قيام لدعوة المسيحية

عالم كله قيود وأشكال.

وعالم طلق من القيود والأشكال، في ساحة الصمير.

روى إيجيل متى في الإصحاح الخامس أن السيد المسيح قال: « لا تطبوا أسي جنت لأنقص الناموس أو الأنبياء، ما حثت لأنقص بل جئت لأكمل ».

وربب الأناجيل أنه عمن في يوم السبت وسفر من المحرمات التي لا تدنس الإنسان، وخاطب الناس بغير خطاب الناموس.

فهل نقض المسيح من تقدموه أو اتبعهم في كل ما أبرموه ؟

إن شئت فقل إنه نقض كل شيء.

وإن شئت فقل إنه لم يقض منه مثقال ذرة

لأنه نقص شريعة الأشكال والظواهر وجاء بشريعة الحب أو شريعة الصمير.

وشريعة الحب لا تبقى حرفاً من شريعة الأشكال والظواهر، ولكنها لا تنقض حرفاً واحداً من شريعة الناموس بل تزيد عليه.

ويبقى هنا أن نصصح معنى الناموس في الأذهان، فإن معناه هو « القوام » الذي يقوم به كل شيء، وناموس العقيدة هو الأصول الأنديه التي يقوم بها

ضمير الإنسان ما دام للضعير وجود، قلن بزل قائمٌ كما قال السيد المسيح - ما قامت الأرض والسموات.

ولقد كمن المسيح شريعة الناموس حقاً لأنه جاء بشريعة الحب، وهي زيادة عليه.

إن الناموس عهد على الإنسان بقضاء الواجب أما الحب فيريد على الواجب، ولا ينتظر الأمر ولا ينتظر الجزاء

الحب لا يحاسب بالضرور والشروط، والحب لا يعامل الناس بالصيكون و لشهود، ولكنه يفعل ما نطلب منه ويزيد عليه، وهو مستريح إلى العطاء غير متطلع إلى الجزاء.

بهذه الشريعة - شريعة الحب - نقص المسيح كل حرف في شريعة الأشكال والظواهر.

وبهذه الشريعة شريعة الحب رفع لناموس صرخاً بطول السماء، وثبت له أساساً يستقر في الأعماق.

وبهذه لشريعة شريعة الحب قصي على شريعة الكبرياء ولرباء، وعلم الناس أن الوصايا الإلهية لم تجعل الرهو والدعوى واسيه بالنفس ووصم الآخرين بالنهم ولذوب، ولكنها جعلت لحساب نفسك قبل حساب غيرك، وللعطف على اناس بالرحمة والمعذرة، لا لاقتناص الزلات واستطلاع العيوب.

وفي اعتقادنا أن « شخصية » السيد المسيح لم تثبت وجودها التاريخي وحلالها الأدبي بحقيقة من حقائق الواقع كما أثبتتها بوصايا هذه لشريعة شريعة الحب والضمير

فكل كلمة قبلت في هذه الوصايا هي الكلمة التي ينبغي أن يقال، وكل مناسبة رويت هي المناسبة التي تقع في خاطر ولا تصل إليها شبهة الاختلاق

يلزم في شريعة انكرياء من يتحد الدين سبيلاً إلى التعالي على الآخرين، ويلزم في شريعه الحب من يقول لك المبحالي على غيره المتقاسي بنفسه «لماذا تنظر إلى الفدى في عين أخيك ولا تنظر إلى الخشبة في عينك ؟».

يلزم في شريعه لفرح بالعقاب والسعي وراء العورات من يسوق المرأة لحصنة في المواقب ويحف إلى موقف الرحم كأنما يخف إلى معازل الأعراس،

ويلزم في شريعة الحب من يهوى ذلك لجمع المباقي ويكشف له رياءه ويرده إلى
الحياة، وقد أريد إلى الحياء حين استمع السيد يتأديه « من لم يخطئ منكم
فليرمها بحجر... ».

ويلزم في شريعة الرياء والكبرياء أن يفخر المصلي بصلاته وأن يعلن الصائم
عن صيامه ويتحده رياءً ينم عليه بنحوه وصحته، ويلزم في شريعة الحب من
يهوى الناس عن صلاة الرياء وصيام الرياء لأنهم يحبون أن يصنوا قنمين في
المجامع وفي روايا الشوايع .. « ومتى صمتتم أنتم فلا تكونوا عيسى كالمراشدين،
فربهم يغفرون وجوههم لظهوروا للناس صيامهم فقد استوفوا أجرهم فلا أجر
لهم، وأم أسم فمنى صمتتم فادهموا رؤوسكم واغسلوا وجوهكم، لا تظهر صيامكم
للناس بل لأبيكم المظلم في الصدور ».

يلزم في شريعة الرياء والكبرياء أن يفخر المعطي بالعطاء وأن يستصيل به على
الفقراء، وأن يصوت قدامه لأنواع ويعين صدقته في الطرق والأسواق، ويلزم
في شريعة الحب أن يسر أعمال الحسنيين، فلا تعلم الشمال ما تفعل اليمين.

في شريعة الكرب تنقئ المتكبر تقواه ليتكبر بها على المذنبين ويلوم المرشد
المصلح لأنه يجلس مع العشاريين والخطاة وفي شريعة الحب والصميم يقال
للمتروعين يتقواهم ما ينبغي أن يقال لهم إنما يحتاج المرضى إلى الطبيب
وإما يكون الحب على قدر الغفران

وقد بلغت فتنة « الصواهر والأشكال » غايتها وطعت من الهيكل إلى البيت،
ومن المكتب إلى السوق، ومن البحر إلى المائدة حتى لقمة الطعام أصبحت لا
تحل أو تحرم إلا بمقدار ما يتلى عليها من الأوراد والعزائم، وما تحاط به من
الشعائر والمراسم، وما يرسمه الكهان من أحكام النجاسات والولائم، فيحقق
بصطدمها عالم الطواهر وعالم الصميم، ويحق يقال للمصطهرين يغسل
الأيدي والسلاوة على لقم الطعام وصحاف المائدة « إن ما يدخل الفم لا يدس
الصميم، وإن الدنس إنما يخرج من القلب الذي فيه الشر والزور والعسوق
والكفران ».

* * *

ومحمل انقول أن الضرر كله كان في حكم شريعة الطواهر والأشكال، شريعة
الكبرياء والرياء، مسألة « أمصار وسمي » بحذره أصحابه بقصص السلافة
واحصص ويرجع الأمر فيه إلى الموروثات والمأثورات.

فالفضل بين الأمم « امتياز رسمي » محتكر لإسرائيل لأنهم أبناء إبراهيم. والفضل بين الإسرائيليين « امتياز رسمي » محتكر لأبناء هارون وأبناء لاوي أصحاب الكهانة بحق النسب والميراث، والفضل في الدين والعلم حرقه يحتكرها الكتبة والناموسييون أو فقهاء ذلك الزمان، بل كادب محبة لله لسببه المخار أن تكون « وثيقة هي صدك مرسوم » تضمن الإيثار لذلك الشعب وإن هبطت به أعماله دون سائر الشعوب... « فلا لأنكم أكثر الشعوب لأنكم الرب واحنا ركم فإياكم أقل من سائر الشعوب. بل هي محبة وحمله القسم الذي عاهد عليه آبائكم ».

قلما قامت لدعوة المسيحية بشريعة الحب والصميم كانت كلمتها هي الكلمة التي تقل في كل ما ادعوه وما استأثروا به واحتكروه

ليس الخير حكراً للنسب والسلالة « بل الذي يعمل بمشيئة الله هو أسمى وأحق وأسمى » « بن كثيرين يأتون من المشرق والمغرب ويتكلمون مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب على أرائك المكوث، وأم بنو المكوث فيطرحون إلى الظلمة بالعراء ».

وإن الرحمة عمل. لا نسبة ولا حرفة.. وصرب لهم مثلاً « إنساناً خرج عليه الصلوص في طريق فلسطين وصربوه وتركوه بين الحياة والموت، وعبر به كاهن فأمله ومضى في طريقه، وجاء لاوي فمضى ولم يلتفت إليه. ولكن سامرياً راه فاشفق عليه وضمد جراحه وأركبه على دابته وأتى به إلى فندق وأولاه عناية ثم أخرج لصاحب الفندق عند سفره دينارين ليفقها عليه ويعني به ومهم يفق عليه فهو موفيه عند مرجه «... قال السيد المسيح لتلاميذه وقد ضرب لهم هذا المثل « أي هؤلاء، ثلاثة أقرب إلى ذلك لصريع الجريح » « ولصواب الذي لا خلاف عليه بدهاة أن السامري المنبؤ أقرب إليه من أبناء هارون ومن اللاويين المصلطين ».

وراح يجيه فطاحل العلماء التياهيين بما علموه وحفظوا وتفننوا فيه من ألعاز الفقه وأحجى الشريعة فقال لهم « إن الدين بما تعمل لا بما تعلم... » خبر أتباعه ومريديه أن يقتدوا بهم في عملهم وأن يدعوا مثل دعواهم « لأنهم يحرمون الأوقار ويسومون الناس أن يحملوها على عوانقهم ولا يمتدحونها إليها أصعب يرححونها، وإنهم يعملون عملهم كله لينظر الناس إليهم، يعرضون عصائبهم ويطيئون أهداب ثيابهم، ويستأثرون بالمتكأ الأول في الأروام والمجالس

الأرلى فى الجامع، ويبتغون التحبات فى الأسواق وأن يقل لهم سيدى سيدى
حيث يذهبون...»

ثم يهتف بأولئك المباحين التياهيـن: «أيها القادة العمدان الذين يحاسبون على
العموضة ويبتلعون الجمل. إيكـم تتقون ظاهـر الكأس والصحفة وهما فى الباطن
مترعدان بالرحس والدعارة.. ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراعون - إيكـم
كالقبور المبيضة، حارجها طلاء جميل وداخلها عظم نخرة.»

ولما تعاموا عليه بالأسئلة عن أسرار الكتب وألغاز الفرائض والوصايا، وسأله
أيهما أعظم فى الداموس؟ حسبوا أنه سيقب بين السطور وطيل البعث بين
الأسرار والألغاز، ولكنه ترك السطور والنصوص وجمع لهم الدين كله وكتب
جميعاً فى كلمات معدودات. «أن يحب ربك بجماع قلبك ومن كل نفسك وفكرك،
وأن يحب رقيبك كما تحب نفسك.»

هذا كل ما يلزم العابد الصالح أن يحتقبه من القماطر والأوراق، ولا تكون
العقوبة أنه يهدر الفرائض والأحكام وأنه يستريح فى لا يباح، بل لعله يتشدد
حيث يترخص النصوصيون والحرفيون، كما يشدد الإنسان حيث يحاسب
ضميره ويصنع فى سبيل الحب ما لا يصنع فى سبيل الواجب، وكل ما هناك
أن تصبح الفضيلة وحى نفس وحساب ضمير، ولا يصبح قهاراها وحى
القانون وحساب الصكوك والشروط، وأساليب الرومان من بين السطور
والحروف.

لا جرم كانت شريعة الحب والضمير أشد وأحرج من شريعة الظواهر
والأشكال، لأن الضمير موكل بالنيات والخواطر قبل الأفعال والوقائع. ولأنه
يحاسب صاحبه على همساته وسأوسه ولا يتركه حتى يعمل ما يضر أو يسوء.

« قيل للقدماء: لا تقتل ومن يقتل يجب عليه العقاب. أما أنا فأقول لكم: إن من
بعضب على أخيه باطلاً بائـم ويجزى... فإن قدمت قربانك وبكرت حقاً لأخيك
عيك، فدع قربانك أمام المذبح وأذهب قبل فصالح أخاك.»

« وقيل للقدماء: لا تزن أما أنا فأقول لكم: إن من ينظر إلى امرأة فيشتتها
فقد زنى بها فى قلبه، فإن كانت عينك اليمنى تلقى بك فى العثرات ماقلعها
وألقها عنك فخير لك أن يهلت عضو لك من أن تهلك كلك...»

« وقيل للقدماء: لا تحنث.. وأما أنا فأقول لكم: لا تحلفوا.. وليكن كلامكم كله
نعم نعم. لا لا وما زاد على ذلك فهو من الشيطان..»

« وسمعتكم أنه قيل، عين بعين وسن بسن، وأما أنا فأقول لكم، لا تقابلوا الشر بالشر، ومن لصمك على خدك الأيمن فحول له الأيسر.. ومن سخرت ميلاً واحداً فاذهب معه مبلين...».

« وسمعتكم أنه قيل، تحب قريبك وتبغض عدوك، وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم، باركوا لاعينكم، أحسنوا إلى مبغضيك، وادعوا لمن يسئ إليكم وبطركم لكي تكبروا أبدأ أبيكم الذي في السماوات، فإنه يطلع شمسه على الأشرار والصلحين ويرسل عينه للأبرار ولطالبن. وفي آخر لكم إن أحببتكم من يحبوكم. أليس العشارون يفعلون ذلك؟ فتعلقو أنتم بالكمال، فإن الله كامل.. يحب الكمال »

هذه شريعة تهدم كل عرف قائم وبعصف بكل شكل ظاهر، ولكنها لا تهدم الباموس ولا تعصف بركن من أركانه، وقد يريد هراتسه ولا تنقص حرفاً منها حيث سقلها من الأورا، وبماطر العباب إلى الضمائر والقبوب، لأن الإنسان بحاسب نفسه إذا أحب حسناً لا تتركه لشرايع ولا يطلع عليه القصاء.

وقد كان المصطدم بين لشريعتين حيث يتوقع وكب يتوقع، وكان السجل بينهما هو السجل الذي تملبه شريعة الحب والصميم وشريعة الظواهر والأشكال، ولم تسقط من ذلك السحال كلمة كانت منطوية من دعاه لرياء والكبرياء. ولم يكن اجواب على كلمة منه عرضاً غير مقصود في جهته أو جراف بقوله كل قائل ويأتي لغير مأسسة، ومن ثم يقول إن الشخصية التاريخية والدعوة المتناسقة لم تثبتا ببرهن أصدق من هذا البرهان، وأن المصطدم بين اشريعين لا يختلف المحتلق إن شاء، لأنه من وراء طقة المحتلق أن يلحق بطبيعته اشريعين؛ شريعة الحب والضمير وشريعة الرياء والكبرياء، ويدفع بهما حيث تندفعان ويملي عليهما ما تسألان عنه وما تحيان

تلك معاليم واضحة ومقاصد بية معروفة لمحي، فإذا وقع اللبس مرة فليس أسير من الحسم في مواضع اللبس على نوى انية الحسمه، فكل ما وفق شريعة الحب والصميم وحاف شريعة الظاهر والأشكال فهو هذا وكل ما مشى في سبيل الضواهر والأشكال وأعرض عن سبيل الحب والضمير فهو هناك، وإن يطول اللبس في معنى من معاني السيد المسيح إلا على عباد الألفاظ والنصوص، وليس من الإنصاف ولا من حسن الفهم أن تحكم الألفاظ والنصوص في الدعوة التي تزريها وترجع كل شيء إلى مقاصد الحب والضمير. ذلك كما قال السيد المسيح هو وضع الخمر الحديد في الرق القديم فوضع الرقعة الفشبية على الثوب القديم.

آداب حياة

كان « أوريجين » فيلسوفاً ملحوظاً للمكة فى تاريخ الفلسفة والديانة المسيحية ويرى الكثيرون أنه أكبر المفكرين الدينيين الذين تبعوا بين القرنين الثامن والقرن الثالث للميلاد، ومن لم يره كذلك فلا خلاف عنده فى حسبه بين ثلاثة أو أربعة من كبار المفكرين فى عصره، غير مستثنى منهم أساتذته الأولون

هذا الرجل مرأ فى شعبه قول السيد المسيح أن أناساً يخصيهم الله وأناساً يخصيهم إبليس وأناساً يحصون أنفسهم فى سبيل لله، فحمله على معناه الحرفى وجب نفسه ليفهم بعد ذلك على تعليم النساء وهو ابن، ولكنه أدرك خطأه بعد ذلك وعدل عن هذا الفهم الحرفى لأقوال السيد المسيح.

إلا أن ثروت هذه الرواية فى سيرة رجل من اعلام زمانه يبطل العجب من روایات كثيرة بقيت بين أحبار الدعوة المسيحية فى عصرها الأول، فقد كان الرجل بفقاً عينه إذا علم أنها نظرت إلى امرأة نظرة اشتهاه. وكان يمسح جسده مسحاً إذا رأودته الشهوات، حتى لبتساقط معه الدود وهو بقيد حياة، فإذا كان شاب فى دكاء « أوريجين » وهوة قطعتهم يفهم العظات المسيحية على هذا الوجه فلا عجب أن يشيع هذا الفهم بين طائفة من البسطاء الذين لا يبلغون مصفاة فى العظة والبرابة.

لكن « أوريجين » نفسه قد عدل عن خطئه بعد زمن كما أسلفنا، وسبقه وجاء بعده أناس من طائفته أيقنوا أن السيد المسيح قصد المعانى ولم يقصد الحروف حين أوصى بكف الأعضاء عن برغبات الجسد، فلم يعن بعقء أبعد إلا ما نعينه يقطع اللسان حيث نريد به السكوت أو الإسكات، ولم يعن بقمع الجسد إلا ما نعينه يجمع الرياضة والبرية، وكان كلمت الإسكندري يقول بحق إن السيد المسيح لا يعنى بنبيد المال أن نرفضه بقاءً فى جميع الأحوال، إلا لم يكن الإحسان مصلية من أكبر الفضائل فى الوصايا المسيحية، وجاء القديس أوغسطين بعد ذلك معنى أن الدين يوجب الزهد على كل أحد، مع استحسانه الزهد لمن يقدر عليه

إلا أن الحلاف على فهم وصايا المسيح لم يزل قائماً بعد تفسيرها على هذا الوجه مرات في أقوال حكماء المسيحية، ولا يزال هذا الحلاف قائماً إلى عصرنا هذا في الوصايا التي تنبؤ على رفض الحياة خاصة، وغير قليل من المتأولين يسمو منحي الدكتور « شويتزر » Schweitzer الذي يرى أن السيد المسيح قد أوصى الناس بتلك الوصايا، لاعنقاده أن الساعة قريبة، وأن الدين الذي يهجرها مقضى عليها بالفناء في مدى سنوات، فكل ما أوصى به الناس فالفهوم منه أنهم على سفر وأن الزاد للعالم الآخر من غير هذا الزاد الذي يدخره المخزون للدنيا الزائلة.

وفي اعتقادنا أنه لا محل لحلاف على الوصايا التي وجهها السيد المسيح لتلاميذه ورسله المتجردين لنشر الدعوة، فإن كل دعوة هي عصر المسيح أو في عصرنا هذا، وفي جهاد الدين أو جهاد الدنيا، تحتاج من الدعاة إلى مثل ذلك السجود ومثل ذلك الانقطاع عن الشواغل الأخرى، وبظام فترق الفداء في لجيوش الحديثة معلوم لا خلاف عليه، وأول أحكامه أن يعكر « الحندي المجاهد » في الموت قبل تفكيره في الحياة.

إنما الخلاف على الوصايا حين تنجيه إلى عبر التلاميذ والرسول إلى أبناء الدنيا الذين يعيشون فيها ويعملون لأنفسهم ولن يعملونهم من أبنائهم ونزولهم، فهل يطلب من هؤلاء جميعاً أن يتقصوا عن دنياهم ويرفضوا حياتهم وينشدوها بالطير والنبات في اعتمادهم على العدا والكساء؟

أقول حقاً إنني أفهم وصايا السيد المسيح جميعاً ولا أجد في مهمها صعوبة على الإصلاح إذ أنكرنا النجوم على الحروف والنصوص كما كان يكرها عليه السلام، وإذا صعدنا أنه عليه السلام قد قال كل شيء حين قال ولخص حكمته كلها في هذا القول « ليس الإنسان للسبت وإنما السبت للإنسان ».

لقد كان هم السيد المسيح في الإصلاح النفسي تغيير البواعث لا تغيير المقادير.

كان همه أن ينقل الآداب من محور إلى محور، ولا قيمة للمسافات ولا للأبعاد إذا كان انتقال المحور هو المقصود.

كانت لغرض هي المحور الذي تنبؤ عليه حياة الأمم والأحاد في عصره، فوجب أن يكون الجوهر الصميم هو محور الحياة.

كانت « الأشياء » مقدمة على النفس الإنسانية، فوجب أن تكون النفس الإنسانية مقدمة على الأشياء.

وجب أن يكون «مع النفس الإنسانية هو الغنيمة الكبرى، لأن من ربحها فلا جناح عليه أن يخسر العالم».

وإذا كان «الحطام» هو محور الحياة فسيان الكثير والقليل، سيان من يطلب لدرهم لواحد ومن يطلب ملايين الدراهم، فكلاهما مدبره خطأ وسعيه عقيم. إذا كانت «الشهوة» هي محور الحياة فسيان من يشتتهى بعينه ومن يقوم ويقعد ويسهر وينام في طلب اللذة ولغوابة، فكلاهما هارع لهذا المحور الذي بنور علمه.

ولكننا ننقل المحور، أو ننقل القبلة كما أسلفنا في فصل سابق، فننتقل كل شيء ويتغير الباب :أصيل من كل خلق.

إذا أصبح كسب النفس الإنسانية - كسب المحور - هو غاية الحياة فالذي يملك الملايين زاهد كالذي يملك العشرات أو الذي لا يملك شيئاً من الأشياء.

إذا تغير المحور فمساافة الفرسخ وليل كمساافة الشبر والقيراض.

وإذا بقي المحور فالبعيد كالقريب والفريد كالبعيد.

وتغيير المحور هو الذي عناء السيد المسيح.

وبتغيير المحور لازم في ذلك لعصر، لازم في هذا العصر، لازم في كل زمن ينحرف فيه الاتجاه عن سوائه، ولهذا كانت رسالة السيد المسيح نموذجاً لرسالات، ولم تكن آخر الرسالات هي لحياة الإنسانية.

لهذا نعتقد أن السيد المسيح كان يغير المحور تغييراً آخر لو أنه حصر الدنيا بعد عصره ببضعة أجيال، ورأى الناس يفرقون في تعذيب الجسد ويهرجون ببطعته للنود وهم بقيد الحياة.

بس لا حاجة بنا إلى الفرض هذا أو الاحتمال الذي يقبل الخلاف، فإن المسيح قد غير المحور هذا التغيير في زمانه، غيره حين قبل إتيان الدنانير في عطر تمسح به قدماه، وحين قبل أن يشهد الأعراس ويضرب المثل لاتباعه في أفراح الحياة، وهي براءة كل هرج بآي من القنب ويسر الجسد ولا يحرق الروح.

وما كان الإصلاح في الدعوات الكبرى قط مسألة مقادير ومسافات أنت تهتك نفسك لتكرر ميثوث فحسبت أن تهتك نفسك لتكرر عشرة آلاف، ولا تريد.

أنت تنهالك على جميع الندى في جميع الأوقات، فتنهالك عليها أياماً في الأسبوع، وتنهالك على بعصها نون سائرهما في جميع الأيام
أنت مشغول الدهن بالعنوان والبعضاء فاشتغل بهم قليلاً ولا تجعلهما شغلاً شاعلاً بغير انقطاع.

كلا، لم يكر الإصلاح في الدعوات الكبرى قط مسألة مقادير ومسافات، وإيم كان على إدراك مسألة « محور » ينتقل، أو مسألة « باعث » بتعبير، وعسى الدنيا بعد ذلك أن تعرف شأنها في مسافتها ومقاديرها، حتى يبلغ بها الانحراف غايته فتعود أو يعاد بها إلى محورها الذي انحرقت عنه أو إلى محور جديد.

إبتنا لا نصف السيد المسيح بل بنصف أنفسنا حين نعتقد أنه كان يدرك ما يقول وهو يقول: « من أخذ منك رداك فأعطه قميصك مع الرد ».

أنرى السيد المسيح كان يفوته أن الرداء والقميص اللذين يعطيهما لعطى هما الرداء والقميص اللذين يأخذهما لأخذ أو يسلبهما السلب »

كلا، ما كان يفوته ذلك ولا ريب، ولا أنتى ريب

ولكن النفس الإنسانية هي المقصود، وليس المقصود هو الرداء أو القميص.

المقصود هو أن نرفع النفس الإنسانية فوق أشتاتها، بمثل من الأمثلة، يصح أن يكون هذا لمثل ويصح أن يكون مثلاً سواه

فليكن العطاء حباً وطواعية، لأن من يعطى مجبراً أو يعطى ما لا يهمنه أن يعطيه يفقد شيئاً ولا يملك نفسه.

وليس كذلك من يعطى لأنه يريد العطاء إنه يكسب ما أعده ولا يضربه لأن على النفس يقس بما تعطيه، وغنى الجسد يقس بما يأخذه، ومن كان لا يبالي أن يعطى العالم كله ليربح نفسه فخلق به أن يربح نفسه بقليل من العطاء.

أراد السيد المسيح أن يعبد الإنسان سيده واحداً، ولا يعبد سيدين، وهذا كل ما أراد.

فمن يملك أموال الدنيا غير عابد للمال فلا جناح عليه.

ومن يعبد الله ويستعيد المال فلا جناح عليه

ومن حاول عبادة ذلك فهو غير مسيطر، وليس فصاراه أنه غير مشكور أو غير مأجور.

ونحسب أن انتهى عن عبادة سيدي قد أقام الحد واضحاً سهلاً بين ما هو
مباح وما هو محظور في طلب الدنيا ومباها وربتها. فلا حرج على إنسان
يمتلك المال العريض وهو لا يعيد المال ولا يقدم نفسه هرباً على هيكلة ولا نحاه
لإنسان يملك درهمين ولا يتألهما بخير عبادة المال.

ويحسن بما على الجملة أن نذكر أن السيد المسيح لم يقصد إقامة مجتمع في
مكان مجتمع. ولكنه قصد إلى تهذيب آداب إنسانته يقتصر به ضمير الفرد
وضمير الأمة، وإقامتها على أساس واضح في وصايا متعددة لا تضارب بينها
فالجسم أفضل من الطعام واللبس.

والإنسان أفضل من السبب

وغنيمة النفس أربع من غنيمة العالم.

ومملكة الصمير هي قرارة كل إنسان أبقي من ممالك العروش والتيجان
وبساطة الإيمان أصلح من حذلقه العلماء والحفاظ، ولولا هذه الحذقة لما
استعصى على أحد أن يفهم ما يسمع من وصايا السيد المسيح وما جرى
مجراف في كل زمن، فمن دأب الحذقة على الدرام أن تحتهد لكيلا تفهم وليس
من دأبها أن يحسد مره لكي تفهم، وبعدها في كل أوبة سبب لتعطيل كل فهم
وسبب لتعطيل كل عمل وسبب للظهور بصرفه حر الأمر عن بوطن الأمور
وهذه الحذقة التي حالت بين المتحذقين قديما وبين كل عمل وكل وصية، فلبس
عنده مستمع لنبي ولا حكميم.

إن الحذقة هي التي أبت أن يفهم حين قال اقاتل إن العصفور المبكر يحد
الدودة قبل غيره. أفليس في هذا الكلام شيء يفهمه سامع على وفيه نصيح
لمن يريد أن يسمع ويعمل ولكن الحذقة هي التي قالت في جواب تلك النصيحة
إن الدودة لو لم تنكر قبل العصفور لما أكلها العصفور

إن الحذقة تقول هذا لأنها لا تعمل، فهل تراها كسبت شيئاً حين خسرت
العمل؟ كلا فإن سخرتها تستهيم إذا كن أساحير أسلم للدود من المنكر،
ولكهما يستويان على الأقل، إن لم يكن التأخير خليفاً أن يعرض الدبدان لمئات
المنقير ومئات العيون، بدلاً من فرد منقار وفرد عين

كذلك يقول السيد المسيح من طيب منك رد عن فأنصه قمصك مع الردء.
فتقول الحذقة ولماذا يحق للطالب أن يملك قميص والردء معاً ولا يحق لمن
يعطيها أن يحتفظ بهما في حورته؟

أفليس في قول السيد المسيح ما يفهم ؟ بلى، فيه ما يفهم وما يصحح فهماً عسى صلال، ولكن الحذقة لا يريد أن تفهم ولا أن تعمل، ولا تريد إلا ظهوراً «على حساب» الفهم والعمل كما يقولون، ولولا ذلك لما غلب عنها أن الحديد في الأمر هو متحان المعطي الذي يقتدي به في الإحسان، وإن طالب لرغد لا خلاف عليه ولا على قيمة عمله من الفضيلة، وإنما الخلاف الذي يحتاج إلى جديد هو قيمة الإعطاء من فضيلة السماح والإيتار.

لقد كانت أدينا تدور على محور الشر والبعثاء والنفاق، فحسن ولا شك أن تدور على غير ذلك المحور، وإذا انتقلت منه إلى محور القناعة والحيث والحب والصديق فلا مشاحة في قياس المسافات ولا تقدير المهادير.

بل نقول إن الرسالة كاملة وفيه ولو لم يكن هذا الانتقال إلى حين وفي حين محدود، فإنما العبرة بإضافة هذه القيم الجديدة إلى حساب الإنسانية، وشأن الإنسانية بعد ذلك وما تستطيع، وشأن المرسل بعد ذلك وما يستطيعون من جديد لرسالة كلما احترقت الجادة أو احتاج ضمير الإنسان إلى محور جديد

ملكوت السموات

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَئِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

(القصص ٥٦)

هذه آية كريمة لها مرجع من تاريخ كن دعوة ولا سيما الدعوات ادينية الكبرى، وما من شيء هو ادعى إلى التبصر الطويل من المقابلة بين مقاصد أصحاب الدعوات وبين الغايات التي تنتهي إليها دعواتهم على غير قصد منهم، بل على خلاف ما قصدوا إليه، ثم يمضي الزمن وتنطوي المقصد والغايات فينبو أن طريق الدعوات كان أهدى من طريق أصحابها، كأنما الدعوات وادعاة معاً وسيبه مسخرة تسير في عنان الحكمة الأبدية، نون أن يعلم الله أو يعلم المستجيبون لها إلى أين تسير، وإلى أين يسيرون

ماذا لو أن أهل مكة عقلوا فاسبحابوا إلى الدعوة الحميدة ولم يدخل المسلمون مكة دخول الغالين المنصرين ؟

إن الهجرة من مكة إلى المدينة كانت فاتحة الفتوح الإسلامية، فلو أنها ارتفعت من تاريخ الإسلام لتعير ذلك التاريخ، ولكنه لا يستغيب فيما نعتقد برؤال ذلك الحادث الذي كان محسوباً من العقبات، بل أكبر العقبات في صدر الإسلام.

وماذا لو أن بني إسرائيل في عصر السيد المسيح قبلوه وصدقوه وفتحوا له أبواب الهيكل مرحبين مؤمنين ؟

كان غانة الأمر أن نبياً من الأنبياء يضاف اسمه إلى أسماء الأنبياء في كتاب العهد القديم، ويبقى إسرائيل في عزتها كما كانت، ويبقى العالم كله كما كان من هذه الناحية، وتبقى الناصرة كما كانت في التاريخ مسسة لا تذكر، أو تذكر كما تذكر أصغر القرى التي تحكمها رومة الخالدة؛ رومه انقياصرة والخبارين المالين.

فمما لا ريب فيه أن السيد المسيح قد أراد إسرائيل بدعوته الأولى، ومن البديه أن يريدهم قبل أن يريد أحداً غيرهم، لأنهم عشيرته الأقربون، ولأنهم أصحاب الكتب التي تبشر بالسلام وتترقب لرسول المخلص من وراء العيب

وقد كان السيد المسيح يعظ التلاميذ ويقول لهم: ماذا ترونكم للامم؟ لأنهم أبناء أمه أولى بها أن تستمع إلى الحق من أبناء الأمم كافة، وهم غير مختارين

وقد كان يرسل التلاميذ للدعوة وينهاهم أن يدخلوا السامرة، ويحذروهم على العموم أن يطرحوا الألئ تحت أقدام الضالير

وعلى رفقته في الخطب كان يستهر لمراه القبيح فيه أنى أرادت منه كرامته من تلك الكرامات التى يخص بها أبناء يعقوب، لأنه ليس بالحسن أن يؤخذ الجز من أبناء البيت لينقى به إلى الكلاب.

وكان هذا الإيثار بديهاً كفا قلنا من وحي العطرة ووجى الكتب والدراسة، وكفى كذلك حكمة من حكم الدعوة التى يراد لها النجاح، فمن المساواة بين العشيرة الأقربين وبين الغرباء الموتورين كانت خليفة أن تقصى الأقربين، ولم يكن يقيناً ولا شسبه دالسين أن ندسى إليه أحداً من أوثك الغرباء الموتورين الذين يحاربونه ويحاربون قومه ويهدلونهم سوء الظن وتارات الانتقام

فماذا لو استجاب لمسعود إلى الدعوة عسى أحسن حال وأسر احتمال؟ ماذا لو استجابوا بغير عناد وبغير استشهاد؟

إن استجابوا جميعاً إلى الدعوة فقد دحست الدعوة فى بطون «عصبية العصرية»، ولم يعير بها شىء فى غير ذلك الصاق المحدود.

وإن لم يستجيبوا جميعاً، واستجابت منهم فئة من فئات شتى، فعالية الأمر أنها فرقة بضاف إلى فرق العريسين والصوقين والآسين والعلالة، بل قد حدث فعلاً أن فئة من بنى إسرائيل فلتت المسيحية على أنها «طائفة يهودية» سميت بالطائفة «الأيثونية» أى طائفة لعقراء والسراويز، ثم ذهبت هذه الطائفة فى الغمار فلا هى إلى اليمين ولا إلى اليسار، ولم يبق لها نصيب فى تاريخ اليهود، ولم يبق لها نصيب فى تاريخ المسيحيين !

بل حدث فعلاً أن كنيسة مسيحية يهودية محذرت بيت المقدس إلى شرق الأردن، واعبرت كنائس إسرائيل وأقدمت شرفاً حيث تحرم الإقامه على سائر إسرائيل، وظلت ردحاً من الزمن لا هى إسرائيلية حاصلة ولا هى مسيحية خالصة، ثم ذهبت فى الغمار كما ذهب الأيونيون.

لقد مرتبت المثل الذى ضربه السيد المسيح للمدعزين المتخلفين مثل الأمير الذى أولم الولايات، وأرس إلى الصفوة المختارين من الأقرباء ولصحاب يدعوهم

أن يفرحوا معه وبشاركوه في طعامه وشرايه فلم يحبه منهم أحد وتغل كل منهم بعة تزجره إني م بعد يوم الولاية، فاقسم لا يحضرنها أحد ببعته الدعوة، وليمالأها بمن حضر ومن لم يحضر، ومن ثروته الأربعة أو تقديف به الصديق وأنى أن يبقى مكان على المائدة خواً من ضعف وأصبح كل طارق صيفاً مفضلاً على الرب والسعة، وكذا تعمرو وليمة السماء التي بتأخر المدعوين إليها، ويتقدم إليها من هم أحق بها، لأنهم يشبهون ما يعافه المدعوون المتطرون.

قال السيد المسيح لمن دعاهم وألحف في دعواتهم منكره وألحفوا في إنكاره «إن الحجر الذي رفصه البذون صار على رأس الترابية..» من مكوت، الله يتزع منكم ويوهب لأمة تؤتيه ثماره، من سقط على ذلك الحجر رصه ومن سقط لحجر عليه سحقه.. هناك يكون البكاء وصرير الإنسان، هناك يدعى الكثيرون ولا يفتخرون إلا القليلون».

ومنذ استعكمت النبوة بينه وبين الجامدين والمتعصبين فنت وصاياه التي يحص بها «الأمة» ويفردها بين الأمم، وكثرت في وصاياه الآداب الإنسانية التي يستحو بها الإنسان ملكوت السماوات، فرداً فرداً كائناتاً ما كان شأن الأمة التي ينتمي إليها، وفهم السامعون من الملكوت أنه حو من يقصده من ندى الإنسان أحمعين

غير أن ملكوت السماوات لا يفهم على صورة واحدة من روايات الأناجيل المتعددة، من لا يذكر بنقط واحد من جميع الأناجيل، فإن مرقس ولوقا يذكرانه باسم ملكوت الله، ومتى يذكره باسم ملكوت السماوات، ويتفق أحياناً أن يذكر في جميع الأناجيل باسم ملكوت بن الإنسان.

كذلك يبدو من بعض الأقوال أنه حاضر على الأبواب، وإن من الأحياء السامعين من لا ينطق بالموت حتى يرى ابن الإنسان آتياً في ملكوته (١٦ متى)

ويبدو من أقوال أخرى أن الذي بعيد وأن الضلال في دعواه طويل الأمد «لا يضللكم أحد، فإن كثيرين سيأتون باسمي فيضل بهم كثير. وسوف تسمعون بحروب وأنباء ولا يحين، الحين بعد. كل تقوم أمة على أمة ومملكة على مملكة ويحدث محاعات وأوبئة وزلازل في أماكن شتى وهذه كلها بوادر الأوجاع، ويسلمونكم يومئذ إلى الصيق فيفتلون ويتعصمكم جميع الأمم في سبيلي.. ثم يأتي أنبياء كدبة كثيرون ويصلون كثيرين، وتفتت محبة كثيرين، ولكن الصابرين

إلى المنتهى يتجوز، وينادي ببشارة الملكوت هذه في أنحاء المسكونة شهادة لجميع الأمم». (٢٤ متى).

وأحياناً يأتي الكلام عنه كأنه قريب ولكنه مفاجئ مجهول الموعد «اسهروا إذن لأنكم لا تعلمون في أية ساعة يأتي ربكم.. ولو عرف رب البيت في أي هزيع يأتي السارق ما سرى.. فاستعدوا أنتم كذلك. لأنه في ساعة لا تخطر لكم ياتي ابن الإنسان».

ومن البهوات ما يقول إن ابن الإنسان نفسه لا يعلم باليوم والساعة (١٣ مرقس) وإن بودره وشيكه أن تظهر في هذا الجيل

ويشار إلى الملكوت أحياناً بمعنى مشيئة الله وأوامره وفرائضه: «اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره» (٦ متى) «وقد أعطى لكم أن تعرفوا ملكوت السماوات» (١٢ متى).

وأحياناً يطلق على الرسالة التي يتعلمها التلاميذ من السيد المسيح «أجعل لكم ملكوتاً كما جعل لي أبي، ويقول لوف: إن التلاميذ والأتباع كانوا يحسبون والسيد المسيح داهب إلى بيت المقدس أن ملكوت الله عتيد أن يظهر في الحال».

(١٩ لوقا)

وقد رأينا في كتب التعليقات والتفسيرات أن هذه الصفات المتعددة تستغرب وتثير السلبال بين ذوي الآراء، كأنها أمر غير متظر في تقديرهم. وهي في اعتقادنا أقرب شيء إلى البدهاة وطوائع الأمور

فيجب أن نفكر أولاً أن السيد المسيح قد أشار حتماً إلى الملكوت الذي يفهم كل سامع أنه هو العالم الآخر، وأنه يأتي في نهاية هذا العالم وأنه إذا أشار إلى ذلك الملكوت رجع السامعون بالبدهاة إلى النبوءات التي جعلت له علامات ولم يأت كلام المقربين والمترفين الذين قرئوا تلك العلامات بنهاية الألف الرابعة أو نهاية الألف السادسة، واحتفلوا هل سأل السيد المسيح المرتقب ثم يعود، أو ينتهي العالم الأرضي بمجئته ولا يكون مرجعه بعد ذلك في هذا العالم الأرضي المعهود ١٩

وطبعي جداً أن يتكلم السيد المسيح عن ملكوت السماوات بهذا المعنى وأن يرجع السامعون إلى تلك النبوءات ولا موضع للاستغراب في هذا الصدد. بل الغريب أن يخلو كلام السيد من هذا النذر، سواء ظهر في ذلك الوقت أو ظهر بعده في زمن تتطوع فيه الأنظار إلى نهاية وإلى تحقيق النذر والبشائر والعلامات.

هنا إذاً نلاحظ هذا الملكوت بهذا المعنى في تقديرنا فليكن في الحساب أنه باب من أبواب اللبس بينه وبين الملكوت بمعانيه الأخرى، ولا سيما الملكوت الذي تقوم عليه رسالة السيد المسيح خاصة، كما هو الواقع في جميع الرسائل.

وفي رسائل الأنبياء لداعين إلى العالم الآخر جميعاً ملكوت رضوان يتحقق في السماء وملكوت يعمر له الناس في هذه الحياة أو رسالة يستمعون لها في هذا العالم فيستحقون بها الملكوت في العالم الآخر

هذا الملكوت أيضاً - ملكوت الرسالة المسيحية أو ملكوت ابن الإنسان - يقع في البال حتماً أن السيد المسيح قد تكلم عنه ووصف لأتباعه مطالبه ووصاياه.

ولابد من لبس هنا مع اللبس الذي يحدث من توحيه المعنى حياً إلى ملكوت القيامة وتوحيه حياً إلى الملكوت قبل يوم القيامة.

أما اللبس في فهم الملكوت الذي يدور على الرسالة المسيحية أو رسالة ابن الإنسان - فمرجعه من جهة إلى تطور الدعوة على حسب قبول المستمعين لها فالملكوت في الدعوة التي يخص بها الإسرائيليين غير الملكوت في الدعوة التي لا يخصص بها، بل لعلهم يطردون منها، وتعم الأمم أجمعين.

ومرجع اللبس من جهة أخرى إلى سمو الرسالة على مدارك السامعين، ولا مناص من هذا اللبس إذا دعى السامعون إلى رسالة أسمى جداً مما يرقبوه وتطلعوا أن يفهموه.

ولا نرى أن لمسافة الشاسعة بين نفس السيد المسيح وبين نفوس الالامبذ والأنبياء قد برزت في موضع من المواضع ببرزها في الأسئلة التي تواتت منهم عليه وهي الحيرة التي دلت عليها هذه الأسئلة، حتى نيقوديموس عضو المجمع الأعلى لم يفهم معنى الملكوت الذي يستدعي من الإنسان أن يولد ولادة ثانية ويدخل إليه إنساناً جديداً كما يدخل الطفل الوليد إلى هذا العالم، وحتى بعد بلوغ الدعوة حتمها ظل الالامبذ يحسدون أن الملكوت يأتي بدولة بني إسرائيل. «مسألكم قائلين: يارب! هل في هذا لوقت نرد الملك إلى إسرائيل؟ فقال لهم ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والأوقات التي أودعها الأب سلطاناً. لكنكم ستعلمون قوة متى حل عليكم الروح القدس، وستكونون شهداء لي في أورشليم وفي اليهودية جميعاً. وفي السامرة، وإلى أقصى المسكونة.

ونعود فنقول إن اللبس طبيعي جداً في هذا الموقف بين مقصد المتكلم ومدارك السامعين، وإن هذا انفارت البعيد هو الذي يؤدي بنا إلى فهم الملكوت كما

أراد السيد المسيح، لأنه مكنون لم يكن في صاغة التلاميذ أن يحقوه ويصوروه، وكل ما في أسباطهم أن يذكروا له أوصافا متعرفة سمعوها فسلطوها وانتقصوها كما يلتفت السامع ألفاظاً من لغة لا يفهمها، فإذا أمكنت بعد ذلك أن تخرج تلك الألفاظ مفردات متنسقة مفهومة على صورة واحدة فذلك هي الآية على صحة تلك الصورة، وبها هي الوصف القصير.

والأنجيل قد ذكرت وصفاً متناسقاً للملكوت في مواضع شتى ذكرت مملكة ليسب من هذا العالم، وذكرت مملكة قنمة في صميم الإنسبن في كل زمان، إذا ربحها فهو انعم وبذ حصرها فالعالم كله لا يجديه وذكرت مملكة لا يدخلها الإنسان إلا بنفس طاهرة صافية كنفس لطفل النرى، وذكرت مملكة لا يفتحها لسيف لأنه ما بالسيف يؤخذ فبالسيف بضيع «ولما سأله الفرسيون متى يأتى ملكوت اله» أجابهم إنه لا يأتى بمراقبة ولا يقول قائل هو ذا هاهنا وهو ذا هنال، لأنه هو الآن في داخلكم». (١٧ لوقا)

فإذا من استغربوا لأوصاف ولم يروا فيها إلا التناقض والشكوك ماذا يصنعون بهذه الصورة المتنسقة؟ وعلى أية صورة كانوا يسطرون أن تأتى غير هذه الصورة مع المنقوت بين مشارك انعم ومدارك التلاميذ، ومع حصور الملكوت في أذهان السامعين بمعنى القيامة ووروده أحياناً في كلام السيد المسيح بهذه المعنى بل كيف كانوا يسطرون أن تأتى على غير هذه الصورة مع تطور الدعوة تطوراً لاند منه بين كلام موجه إلى أمة خاصة وكلام موجه إلى جميع الأمم ؟

إن الخلاصة المغرلة موحودة بين السفس والحبوب، ولكن الغيب في الغربال الذي لا يعمل عمله وفي حامل الغربال الذي يفسى أن، الغربال لارم وور موضع لزومه على الحصى.

إذا جاعنا رجل لا يعرف اللغة المسيحية، ووضع أمامنا حطوطاً وأشكالاً، وتسمى لنا أن تخرج من تلك الخطوط وأشكال كلمات يتم بها جملة مفهومة، فذلك أمة الآيات على صدق الصورة المنقولة، وتلك الصورة إنس أحق بالاعتماد عليها من كلام الدفل الذي يستطيع أن يريد على الكلام أو ينقص منه، أو يدخل فيه التحوير والتبديد حسب هواه.

تحولت الدعوة من خاصة إلى عامة ومن أمة واحدة إلى سائر الأمم بل إلى «الإنسبن» فرداً كان، أو عنواناً يشمل كل إنسان.

وحدث هذا التحول و لعالم الإنسانى متهيئ للدعوة الجديدة من أعماق وحدانه، وإن لم يكن يسيراً عليه أن يفهمها حق فهمها، أو يسير أعوارها.

والعام الإنسانى نهياً لهذه الدعوات على حسب حاجته إليها، ولا يلزم على الدوام أن يفهمها كما يلزم أن يحتاج إليها أو إلى شىء من قبلها. مثله فى ذلك مثل التربة التى ينفعها المطر لأنها مهيأة له متعششة إليه. ولا محل هنا للحديث عن الفهم ويسير الأعوار.

كانت العلاقة العنيفة، أو العلاقة الإنسانية قد وجدت من وراء أسوار الأمم والأقوام، ولكنها قد وجدت فى بقاع من الأرض ولم توجد فى سرائر الضمير ولعل الناس قد احببوا منها 'صرار الغداء والبغضاء وكبرياء الجنس وفقر العصبية، قبل أن يختبروا منها مزايا الوحدة وينطلقوا من ورأتها إلى الأخوة والصفاء.

بن تحطمت أسوار الأمم والأقوام أمام وطأه الشقاء قبل أن تتحطم أمام دعوة الأخوة والصفاء، فانتسعت رقعة العالم المتوحد لأناس من جميع العصب والسلالات، لا يشعرون بينهم بوحدة غير العبودية والضعف، إنا فى ربة الرق المصرح أو فى ربة أخرى لا تقف عليها فى لقسوة والقيمة، وهى ربة لحرمان والقبوط.

وقد كان من العسير أن يتمخض العالم لوشى عن رسول يجمع الأقوام إلى دين واحد، لأن تاريخ الوثنية لم يعهد فيه أن يخرج للدين رسلاً تملؤهم الحماسة لروحيه ونفص منهم على من حولهم فصلاً عن العندين عنهم، ولم يعرف التاريخ قط داعيه وثياً تجرد للتبشير والإندار غير حافل بالموت ولا مرمدع بما يقيه من روجر الإرهاب والوعيد، وكل ما يحدث فى الأديان الوثنية أن تغلب الدولة التى تدين بها على الشعوب المفهورة فتجعلها على طاعة أربابها كما تجعلها على طاعة قرائنها وأحكامها، وتفرض عليها العبادات التى تتصل بالشعائر العامة والمحافل الرسمية ثم تترك لها بعد ذلك ما يروقها أن تعده من الأرباب والأصنام.

أما، الحماسة الروحية التى كانت لازمة لتوحيد العقيدة فى العالم الإنسانى فلم تعهد قط فى عبر الأديان الكناسة أو الأدبر الإلهية، ولم يكن لها رس قط غير إرسال المؤمنين بيله أعظم من الدنيا وأعظم من الدول وأعظم من كل موجود.

ولحكمة من الحكم الخالدة وجد هذا الرسول مطروداً في قومه، ولم يوجد بينهم مقصور الدعوة عنهم، فوجد فيه العالم بعينه في ساعة الحاجة إليه، وإنها لآية من آيات التي يطول عددها تدبر الباحثين والمؤرخين، لأنها من التوفيقات التي يكون القول بالمساعدة فيها أصعب وأعجب من القول بالتبشير والتقدير.

وتم على يد هذا الرسول بفيض ما يتم على أيدي الوثنية في صولتها وسلطانها، فإن الوثنية تتعلب لأنها دين الدولة الغالبة، أما هذه الرسالة - رسالة الملوك السماوي - فقد نشأت في عشيرة قبيلة ذليلة، تحكمها تارة دولة الرومان الغربية، وتحكمها تارة أخرى دولة الرومان الشرقية، فلم يمس غير أجناس معدودات حتى غرت الدولتين واسسولت على العاصمين، وصح ما روه عن جوليان - سواء فله أو لم يقله - فانتصر «الجيلي» بملكوته السماوي على مماليك لقياصر، وضم القياصر إلى حاشيته، فعنه يتأخرون ما أحذره باسم قيصر وما آخنوه باسم الله !

الباب الخامس

أدوات الدعوة

قدرة المعصم

إذا انتشرت دعوة من الدعوات الكبيرة في العالم ثبت من انتشارها شيان على الأقل، وهما أن العالم كان عند انتشارها محتاجاً إليها، وكان مستعداً لسماعها، وهما شيان مختلفان لا يكرران في معرض المرافقة والمناظر، لأن الحاجة إلى الدعوة كعبية، والاستعداد لسماعها كالشعور بضرورة أو كاستعداد لطلب النواء وقد يتفقان في وقت واحد، وقد توجد العلة ولا يوجد معها طلب النواء ولا قبوله إذا عرض على العليل.

وجملة ما يفهم من تصور النهضة التي لحقت الكلام عليها فيما مضى أن العالم في عصر الميلاد كان محتاجاً إلى الدعوة المسيحية، مستعداً لسماعها، سواء قصرنا الكلام على عالم إسرائيل أو عمما به العالم أجمع.

فعالم إسرائيل كان يؤمن بالمسيح المنتظر ويومعه في تلك الحقبة من الزمن، والعالم المعمور كان يؤمن إيماناً «سلبياً» بإفلاس الوثنية وإقمار النفوس من الرجاء، وكان عامته في بؤس ويأس، وخاصته مستسلمين للمتاع أو مستسلمين للصوف، من كان منهم يفكر بأن اللايقورية أو بأن دائره هية، ومن كان مطبوعاً على التدين والبحث في شئون العيب، بأن نقطة خاصة من النحل السرية التي تحل فيها المراسم، أشعائر من الفرائض والعبادات

وقد يكون الكثيرون من الخاصة بمعزل عن الأبيقورية والواقية والنحل السرية فهم إذن في حالة الخواء الذي يسبق الامتلاء، وأسم ما يقال عنه في صدد العقيدة لقصة أنه لا يملك القوة على مقاومتها بقوة مثلها، وأنه قد يتفتح بقبولها فكرر شعور الخواء من أسباب الإقبال عليها والرغبة فيها.

كان العالم في عصر الميلاد محتاجاً للعقيدة مستعداً لسماعها، ما في ذلك ريب، ولكنه مع هذه الحاجة وهذا الاستعداد لم يكن خصباً أن يظفر تلك العقيدة عفو صغراً يغير جهاد من رسلها ودعائها، وبغير كفاءة عالية في أولئك الرسل والدعاة.

لم يكن احتياج العالم للعقيدة ولا استعداد لسماعها مغنياً للعقيدة عن أدوات الفلاح والحاج، وأولها قدرة الداعي على كسب النفوس وإجساب الأسماع والتغلب على ما يقاومه من المكابرة والعناد.

وقد كانت هذه القدرة موفيرة هي معلم المسيحية، ويحسب سمي المعلم وتودي به هي مختلف اسجامع والمحاف، لان مهمته الكبرى كانت مهمة تعلم واحياء روحى حيوى من طريق التعليم

تودي المسيح بالمعلم هيمما روية الاناحير مرت' ناداه بهذا لقب بالاميدى كما ناداه به حصومه ومن يستمعون له غير متلمذين وغير مخاصمين

وكن ند وهم له بهذا اللقب لانهم يجدون هي كلامه عمما وسعما بالكتب والاسفر، وبديهة حاصرة في الاستشهاد بها ولتعقيب عنها ويكفى ما بين ايدينا من الانجيل الحزم يانه كان ميرتل المزامير وكان يحفظ كتب رُميا واشعا وجرقان فضلا عن الكتب الخمسة اتى تسبب الى موسى عليه السلام، ومصلا عن اختلاف المذاهب في تطبيق الوصايا والاحكام.

ويرجح بعض المؤرخين أنه كان يعرف اليونانية وأن الحسيث الذي دار بينه وبين بيلاطس كان بهذه اللغة، لأن اليونانية كانت شائعة في عصره من أبناء الجليل، وكان كثير من اليهود خارج الجليل لا يفهمون العبرانية ولا الآرامية ويحتاجون إلى ترجمة الكتب المقدسة باللغة اليونانية، ومعهم من كان يحتاج إلى صيد اقدس في الأعياد، ومن أبناء الجليل اليهود من كانوا يسافرون إلى الإسكندرية وبلاد الأغرريق لا يفهمون غير اليونانية مع أبناء وطنهم هناك، فلا عرابه هي معرفه السيد المسيح باليونانية كم كان يعرفها الكثيرون من أبناء الجليل، ولكن المحقق أنه كان يعرف العبرية الفصحى التي تدرس بها كتب موسى والأنبياء، وأنه كان يعرف الآرامية التي كان يتكلمها كلام البلغاء، وأنه قد عرف اليونانية فإنم كانت معرفته بها معرفة خطب ولم تكن معرفة دراسه، لأن أقواله جلت من الإشارة إلى مصدر واحد من مصادر الثقافة المكتوبة بتلك اللغة، ولأن العبارات التي جاءت في الأنجيل اليونانية مسسوبة إليه تشعب عن أصبها الارامى بها فيها من الجساس أو من قواعد البلاغة وإيقاع الألفاظ.

على أن هذا العلم كله بالثقافة الموسوية الإسرائيلية لم يكن فريداً بين أجيال اليهود هي تلك الآونة، فربما كان في بيت المقدس يومئذ مئات من الكتبة والعلماء يحفظوا من تلك الكتب ما يحفظ لسيد المسيح، واقتدروا على الاستشهاد بها ولتعقيب عليها بمعارضة هوية وبديهة حاصرة، ولم تكن لواحد منهم كفاية العلم الذي يث الحياة الروحانية في النفوس وينفث في الحواس

تلك الراحة التي تشبه راحة اسريرة، حين تناسق فيها، لأنعام التي كانت
مناهرة قبل أن تجمع وتضاعف

لقد كانت اللغة التي حملت بشارت الدعوة الأولى لغة صاخبة بغير مشابهة
ولا مناظرة في القوة والنفاذ.

كانت لغة فذة في تركيب كلماتها ومفرداتها، فذة في بلاغتها وتصريف
معانيها، فذة في طبعها الذي لا يشبهه طابع آخر هي الكلام المسموع
أو المكتوب، ولولا ذلك لما أخذ السامعون بها ذلك المأخذ المحبوب، مع غلبته
القوية على الأذهان والقلوب.

كانت في تركيبها نمطاً بين النثر المرسل والشعر المنضوم، فكانت قفاً خاصاً
ملائماً لدروس التعليم والتشويق وحفز الذاكرة والخيال، وهو نمط من النظم لا
يشبه نظم الأعاريص والتفعلات التي يعرفها هي اللغة العربية، لأن هذا النمط
من النظم غير معروف في اللغة لآرامية ولا في اللغة العبرية، ولكنه أشبه ما
يكون بأسلوب الفواصل المتقبلة والتصاريحات المرددة التي ينتظرها السامع
انتظاره للقافية وإن كانت لا تتكرر بلفظها المعاد.

كان أسلوبه في إيقاع الكلام أسلوباً أكثر فيه انترديد واستمرار، وليس في
الترجمة العربية ما يدل عليه من قريب، ولكنها مع التأمل تدل عليه من بعيد،
كما في هذا المثال

«اسألوا تعطوا

اطلبوا تجدوا.

اقرعوا يفتح لكم.

لأن من سأل مأخذ، ومن طلب يجد، ومن يفرع يفتح له الباب.

من منكم يسأله ابنه خبزاً فيعطيه خبزاً،

أو يسأله سمكة فيعطيه حية.

أو يسأله بيضة فيعطيه عقرباً.

فإذا كنتم - وأنتم أشرار - تحسنون العطاء للأنعام، فكيف بالآب الذي في
السماء يعطي الروح القدس لمن يسألون».

أو كما في هذا المثال

«كما في أيام نوح كذلك يكون في أيام ابن الإنسان،

كانوا يأكلون ويشربون ويترجون ويتزوجون، إلى اليوم الذي دخل الفس وجاء
لطوفان وأهلك الجميع.

كذلك هي أيام لوط كانوا يأكلون ويشربون ويبيعون ويعرسون ويسون، ولكن اليوم
الذي خرج فيه لوط من سدوم أمطرت ناراً وكبريتاً من السماء فأهلك الجميع

هكذا يكون في اليوم الذي يظهر فيه ابن الإنسان،

في ذلك اليوم من كان على السقف وأمتعته في البيت فلا يهبط إليها
ليأخذها

ومن كان في الحقل فلا يرجع إلى الوراء، ألا تذكرين امرأة لوط ؟

من طلب الخلاص لنفسه يهلكها، ومن أهلكها يحييها.

أقول لكم واسمعوا في تلك الليلة يكون اثنان على قمرش واحد هوأخذ
أحدهما ويترك صاحبه.

وتكون ثنتان تطحنان، تؤخذ إحداهما وتترك الأخرى،

ويكون اثنان في الحقل يؤخذ هذا ويترك ذاك.

... حيث تكون الجثة هناك تجتمع النسور».

* * *

وقريب من هذين المثالين نذيره لأورشليم .

«يا أورشليم، يا أورشليم !»

«يا قاتلة الأنبياء، وراجمة المرسلين،

«كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها

«ولم تريد .

«هو ذا بيتكم رهين بالخراب ».

وقريب منه نذيره لبنات أورشليم :

«يا سباب أورشليم »

«لا تبكين علي، وعلى نفسك وأولادك فابكين.

«أيام يعولون طوبى للعواقر و ليطوب النى لم تلد والثدى التى لم ترضع.

أيام يناهون الحنائل أن تسقط عليهم، والأكام أن تكون عطاء لهم.
إن كان دالعض الرطب يصنع هذا، فاليايس ماداً يصنعون^٤»

* * *

هذه النماذج فيها بعض دلالة على أسلوبه في تركيب لفظ وسبق التدبير
والذكير.

أما أسلوب المعنى فقد أشتبه منه نمط الأمثال في كل قالب من قوالب
الأمثال، ومنه «لقالب الذي يعول على الرمز والقالب الذي يعول على الحكمة،
والقالب الذي يعول على العياس، والقالب الذي يعول على التشبيهات، وكلها
تتسم بطابع واحد هو طابعه الذي يفرد به بين أنبياء الكتب الدينية بغير نظير،
وإن كانوا قد اعتمدوا مثله على ضروب شتى من الأمثال.

فمن نماذج لشر الذي يعول على الرمز مثل الرارع و لنور «زارع خرج
ليزرع، وفيما هو في الطريق سقط بعض لنور هجأت طيور اسماء وأكله،
وسقط بعضها في مكان محجر حفيف الشربة فسقت على الأثر ثم لم يستأن
اشرقت عليه الشمس فاحترق وأدبم يكن له عمق في جوف لأرض جف،
وسقط بعض لنور بين أشول فطلع الشول وخقه فلم يثمر، وسقط غيرها في
الأرض الحدة فأعطى ثمرأ بصعد ويمو فأنى واحد بثلاثين وآخر بسدين وحر
بمئة من له أدنان للسمع فليسمع».

ومن نماذجه مثل قنيات لعرس «يشبه ملكوت اسماءات عشر عذارى أحدن
مصايبهن للفاء العريس» خمس منهن مملئات وخمس عاملات أما العاملات
فقد أخذن المصايب ولم يأخذن معها زيتاً، وبما العطش فأخذن الريب في
«نيتهن مع المصايب، وأبطأ مقدم العريس فعلنهن لعاس جميعاً، ثم علت
الصيحة عند منتصف الليل. ها هو ذا العريس قد أقبيل فأخرجن لفدهن، فالتفتت
العاملات إلى مصايبهن تسفهن وسألن رميلهن قنبلاً من زيتهن فأنحنهن
لعه لا يكفياً فاذهن واشترين حيث يباع. وفيما هن داهيات قدم لعريس،
وصحبته الحاصرات المستعذبات إلى محفل لرفاف، ثم حات لغائبات وقد أعلق
الباب وطقق بنائس، أفنح لنا يا سيد.. أفنح لنا يا سيد. فأجابهن من أثنى؟
إني لا أعرفكن».

ومنه قوله «أنا خير الحباة.. من يعبل على لا يجوع»

ومن نماذج أمثال لدى يعول على الحكمة «لا تطرحوا لدر أمام البصائر»
«بالكيل الذي تكيلون يكال لكم» «أيها المداوي دأو نفسك» «خمر جديدة هي
رفاق قديمة» «لا تدع يسرك تعلم بما تصنع بميتك» «من ثمارهم تعرفونهم»
«لا كرامة لنسى في وطنه».

ومن نماذج أمثال الذي يعول على القناس «إن كنتم تحبون من يحبونكم فأى
فضل لكم؟ أليس ذلك شأن العشارين؟»

ومن في نبيكت من يكررون عليه صحة الحاصنين «لا حاجة بالأصحاء إلى
طبيب، إنما لمرضى يحتاجون إلى الأطباء»، ومع «إن كان النور الذي فيك
ظلاماً فالظلام كم يكون»!

ومن نماذج المثل الذي يعول على التشبيهات خطابه لتلاميذه «أنتم ملح الأرض،
فإن فسد الملح فبماذا يصبح» إنه لا يصلح إذن إلا لأن يلقى على الدراب ويداس،
أنتم نور العالم، ولا خفاء بمدينة قائمة على رأس جبل، وما من سراج يوقد
لبوصع تحت المكبل ولكنه يرفع على المنار يستضيء به جميع من في الدار»

ومن نماذجه «لا تكبروا لكم كنوزاً على الأرض حيث يفسد السوس ولصداً
وحيث يقب السارقون ويسرفون بل اكبروا لكم كنزاً في السماء حيث لا سوس
ولا صدا ولا لصوص، وحيث يكون الكنز يكون القلب»

وقد أثر عن السيد المسيح في جميع لأمثال حب انفاضة دين الاضداد بجلاء
المعسى وتوصيح لفوارق من وراء هذه المقاسة «يروى القذى في أعين غيرهم ولا
يروى الحشبة في أعينهم»، «يحاسبون على النعوصة ويبعوث الجص» «في
الصاهر جدران مبيضة وفي الباطن عظام نخرة» «غنى يدخل باب السماء كحصن
عليظ يدخل في سم الخياط».

ومعظم هذه الأمثلة تأتي في مناسباتها عفو الخاطر جواباً عن سؤال،
أو تعقيباً على حادث عارض، أو تقريباً لكبر، مبسراً أن يسترسل فيها لعلم
البصير إلى غير المناسبة لتى توجبها، ولهذا ترجح بعض الشراح المحدثين أن
الأمثلة المنوالية في المقاصد المختلفة لم تصدر عنه في سياق واحد أو جلسة
واحدة، وأن الخطبة على الجبل - وهي أحفل الخطب بالمقاصد والموضوعات
جمعت من منقرفات كانت منجمة على حسب الموضوعات في أومانيها
ومناسباتها.

وإذ كانت طائفة من عذات السيد المسيح حاشت بنفسه في أوقات
مناجاتها فانتظمت فيها كما تنتظم المعاني المسوقة في الديهة الملهمة، فقد
كانت سرعة الديهة تسعفه في غير هذه الأحوال، فسجري كلامه في محراها
الذئوب على سبق سهر قد يظن به انتحضير لأنه منتظم غير مرسل، ولكنه في
الواقع لم يكن محضراً قبل ساعته، وعاية ما يعرض له من التحضير أن الفكر
الذي سجود به لم سخل قط من البهكمس فيه وأنه يعود اسفكير في المواقف
المتشبهة فانسبكت قرأت البعير في بواطن قريحته غير مقصودة ولا متكلفة،
وهي عادة يعرفها من تعود التفكير والتعبير وحضور الشعور بينهم وبين
الجماهر، وقد سمعت خطباء جاءوا بأبلغ آياتهم الخطابية في لحظة من
لحظات الاربعال الفياض دين لشعور المحبوب والحماسة المسعثة من القابل
والستمعين فهم مرتجلون يخيّل إليهم قبح غيرهم أنهم يسمعون كلاماً
معهوداً، ويوشك أن يقسموا أذن يا ترى سمعوه قبل الآن؟ والواقع أنهم
بقوه من وعينهم الخفي إلى وعينهم لطاهر فكر شأنهم كشأن سامعيه في
اسمعرايه، والواقع أيضاً أن ناس حين يستمعون إليه يرويه عريباً وعريباً في
وقت واحد عريباً لأنه كان يساورهم ولا يدركونه، وقريباً لأنهم تمثلوه بفضل
بلاغة القائل بعد استعصائه على الإدراك.

* * *

ومن كان كالسيد المسيح مربي مد طموله على التلاوة في كتب الأنبياء
وتناعت على سمعه ولسانه أصداء المرير المرتلة، والأمثال المرددة، وستقامت
فطرتة على اوحى والإيحاء فليس أقرب إليه من أن ينطق بكلام يحبك في
الأسماع بهائف، الصحف الأولى وهو من سمع فؤاده وإملاء مديته، وهذه هي
الديهة التي كان يعيها حين يوصي بلامبده بالاعتماد على الصنع وترك الافتتام
بأشويق والنميق قبل الساعة التي تدعوهم برأعيها الخطاب

ولعن سامعي العصات الدينية في عصر المسيح قد سمعو الأمثال في قوالها
مرات كثيرة، ولعنهم كسوا يعاودون سماعها كلما دخلوا معبداً أو استمعوا إلى
خطيب في غير المعابد، فإن نقاد النيان، لعبري والأرامي يربون هذه الصيغ
الدينية إلى عصور قديمة سبقت مولد المسيح بمئات السنين. فممكن المسيح
صديق بالأمثال ولا لقوالها التي يعول على الرموز أو لحكم أو تشبيهات
أو منطق الفلاس، ولكن الأمر لتحقيق أن سامعي ذلك العصر لم يعرفوا قط

أريحته كذلك الأريحية التي كنت تشيع في أطوائهم وهم يصعدون بأسماعهم وقلوبهم إلى ذلك المعلم المحبوب الذي كان يناحيهم بالعراش والعساب مأنوسة حية يحسبون أنها حاضرة في أعماقهم لم تفارقهم ساعة أو بعض ساعة، لفرط ما كان يغمرهم من حضوره المشرق ويستولي عليهم من عصفه الطيب وحنانه الطهور.

ومن ألسان ما يروع ويهول ويخيل إلى سماعه أن يستعد من مصدره كلما أصغى إليه، ومنه ما يجذب ويقرب ويصل إلى سامعيه أن كل كلمة منه ترفع حجراً أو تدنى مسافة وتزين وحشة بين القلب والسميع.. من هذا النور كان بين المعلم المحبوب القدير على تقرب سامعيه بالعطف والإفهام، فمن فهم قريب ومن لم يفهم غير بعيد وفي وسعنا أن نتخيل أولئك المستمعين البسطاء يقبلون على الاستماع وهم في ظلام لجهالة لا يدرون ماذا سيسمعون ثم تتفتح في أذهانهم الخواطر، وتتفق فيها الأشباه وبين الفوارق بين الأضداد فتنبأ بالظلام سدة بعد سدة ويعقبه النور قسماً وراء قس، ويدخلهم على مهل شعور الأعمى الذي يسترد صوره مشعوهاً بالرؤية لأول مرة، أو شعور المدلج الذي يصبح أسير من السحر إلى الصباح هدية في رفق ورحمة، واقترب في غير عناء ولا اقتحام.

هي وسعنا أن نحيل أولئك البسطاء يقتربون من معلمهم بالعفم والمعززة، أو يقتربون منه بالعطف والمودة.

في وسعنا أن نحيل من ثم فصل الرسول في الرسالة فلا رسالة في الحق بغير رسول، ولا سمع إلى قيام المسيحية بغير مسيح، فإن مصدر الرسالة الروحانية هو ربها وجوهرها، وهو الأصل الأصيل في قوتها ونفوذها، وكل ما عداه فروع وزيادات.

لقد كان لب الرسالة المسيحية في لب رسولها المسيح، هداية إنسان لا صولة له على أحد غير العصف والإلهام ومكاشفة القلوب والأفهام، ولو لم يكن فضل الرسول هو فضل الرسالة لقد كان يوحنا هو الأولي بالسبق في الميدان لأنه صاحب سبق في الدعوة وصاحب سبق في الشهادة ولكنها دعوة كانت تنتظر صاحبها، وصاحبها هو المسيح وكانت حاجة العالم كله إلى الدعوة المطلوبة لا تكفي بغير صاحبها لفاقر عليها وأنصائح لإقامتها، لأن صاحب الحاجة لا يملك بالهداية ما هو محتاج إليه

إخلاص التلاميذ

فضل التلاميذ الأول في كل دعوة أنهم دعاة، أي أنهم شركاء للمعلم في نشر الدعوة.

أما افضل الأول للتلاميذ في الدعوة المسيحية فهو أنهم مسجعيون، هم يكونوا دعاة يدعون غيرهم إلى صفوفهم، بل كانوا في الواقع هم الصف الأول السابق إلى الاستجابة ثم تلتهم صفوف أخرى من أمثاله ليس قدامهم قائد ولا مفود، وكلهم في قبول الدعوة سواء.

كان فضل التلاميذ في البداية مسجعيون أنهم أول العاملين، ولأن تعلم هذا لفارق بين طبيعته الفطرية وطبيعته العاملة

فالتلاميذ يلبسونه إلى السيد المسيح هم أمته الصغرى كثر مع الزمن على هذا المثل، فصاحبوا أمة كبيرة تقدي بتلك الأمة الصغيرة في الاستجابة فهم سيقولون أعقبهم لأحقون من قبيلهم وهم الصف الأول في الجيش الواحد، وليسوا هم جيشاً يعادل جيشاً آخر بالدعوة فيلبسهم ويصوي إليهم

كانوا نموذج الأمة المسيحية في أول الرسائل ومضى على الأمة المسيحية عدة أجيال وهي لا تحالف هذا النموذج في التكوين ولا في الطراز، ومن هنا يقول إن التلاميذ لم يكونوا دعاة فرصوا عقيدتهم على أناس غيرهم، ولكنهم وغيرهم جميعاً مستجعيون للدعوة فوجاً بعد فوج ورعلاً وراء رعين.

في الدعوات قادة ومقبولون

ولكن التلاميذ هي الدعوة المسيحية لم يكونوا قادة لغيرهم، بل كانوا هم السابقين من صفوف ملاحقت وتعاقبت، لا فرق في بينها بين أولي وآخرين.

وليس في سيرتهم الأولى ما يفهم منه أنهم مميزون بصفة القيادة مهم جميعاً من بيئة واحدة، وربما كانوا جميعاً من سلالة متقاربة أو بيوت متجاورة، كأنهم وقعت عليهم الفرقة بين المشابهين والمنماثلين، ثم امتدوا بعد ذلك بالتعليم والتدريب على يد السيد المسيح

وكن اسيد اسيد ينظر إلى بعضهم فيقول به انبعسى، فيتبعه ولا يظهر عليه أنه أفضل من غيره بحزنة عقلية أو نفسية إلا أن تكون المرة التي يتوسمها فيه اسيد فبعده من أحبها، وهي مزلة الإصغاء و لا تناع

ولم يد منهم أنهم أقدر على فهمه من الآخرين، فهو أصوات الفرعة التي عشر احزن لكبوا في مثل قدرتهم على التعلم واستعدادهم للقبول، لأن كب عنهم ولا شل هي الكفة الوسطى في كل طائفة بهذا العدد ومن هذه النسبة، فلم يكن منهم علم بارز لا ينكر بهذه النسبة هي أية حكمة يقع عليها لبطر اللوحة الأولى، فلا يقال في واحد منهم إنه واحد من مائة أو واحد من ألف لا ينكر، أو أن واحداً منهم تعلم ما لا يتعلمه أمثاله أو حصروا كما حضر على معهم التقدير بل كل ما يقال إنه مجرد تشبه غيره من الحندين، والفضل للقد بعد ذلك فيما طرفة من السرب والتهذيب.

وقد وقع عليهم الاختيار كما في الأدبيل

ولكن لا يسو من ذلك الاختيار انه كان اختياراً نادراً أو مسيئاً على القائد الحكيم الضعيف، ولعل لعامل الأكبر فيه أنهم مخبرون من طائفة متعارفة متألقة، وأن اجتماعهم هكذا خير وأصلح من اجتماعهم بداء من بيئات منبعدة، فإن المتألفين أولى بمصاحبة بعضهم بعضاً من المتباعدين

ومحسب أن التشبيه بالنحيد هنا حقيق أن يقرب إلى الأدهان هذا المعنى الذي يرى له المكاب الأول في فهم الدعوة وأساس سربها

فالمجندين يقترعون، وكلهم متحالفون في شروط التجنيد ولكنهم مع هذا يعرضون على القائد فيعز من منهم فئة متجانسة فيما يراه، وكل القات الأخرى تضارعها على الحملة في شروط التجنيد.

ثم يكونوا طيبة من البشر غير طيبة، أسود لولا تلك البعثة العلوية التي نعتتها فيهم روح المعلم القدير

كان يعرف عيوبهم، وكانوا في أمسهم وإخلاصهم لا يفلطون أنفسهم في تلك العيوب.

كان يحاضنهم فلا يفهمونه فيسألوه مرئاً من لتوصيح، وكان يخامرهم الشك فيحسه منهم فلا ينكروه، وربما يهجوهم بالشك ابتداءً وسألوه أن يريد لهم إيمان، فيريدهم ويعلمهم كيف يتقون أمثال هذه اشكون

ولم يحسب قط أنهم طود لا يترعزع وأنهم عزيمة لا تتضعصع وأنهم يواحدون
الحدة في كل حال ولا يدركهم ضعف النفس يوماً أمام هول من الأقوال.

فقد أنبهم أنهم سينحلون عنه، وقد ناموا وهو يسألهم أن سهروا معه، وقد
لامهم غير مرة لأنهم يتدهسون على السيق أو لأنهم يستبطنون حراهم على
الإيمان، أو لأنهم - بعد وعظهم وتذكيرهم - لم يزلوا يفرقون بين الناس وبينهم
بشريعة غير شريعة الحب والعفوان، ولم يكن على القلب منظر منهم أكثر مما
يطر، أو بقوه منهم في أمانهم حالة ظهرت له في أواخرهم ولكنه علم المطلوب
منهم كله فوجد فيه الكفية، علم أنهم نموذج لغيرهم يتكرر على مثالهم، وليس
مطلوباً من الناس في العالم الواسع أن يدركوا مقصداً من الإيمان فوق مقام
الإخلاص وحسن الاستعداد لإصلاح العيوب، وهذا المقدم قد أدركه لللاميذ يوم
وكل إنهم أن سسبحوا في أرض الله وجعلوا من أنفسهم مثلاً يقتدى به
المخلصون

فهو لم مقصد إعدادهم لبحرهم طراداً معصوماً لا عيب فيه ولا مأخذ فيه،
ولكنه قصد إعدادهم ليحسنوا انقذوة وجمعوا حولهم من يسلك مسلكهم،
ويستقبل معهم قتلهم، ويكفوا أنفسهم عاية ما يستطيعون، وقد يستطيع من
يقفهم فوق ما استطاعوه.

ومن عبارات ذات المفزى الكبير في إنجيل أن المسيح مضى شوطاً بعيداً
في دعوته ولم يقل لهم إنه هو المسيح المنتظر. فشاع ذكره في القرى وبساتين
الناس عنه من يكون؟ فمبهم من يقول إنه يوحنا المعمدان قد بعث من الموتى
ومبهم من يقول إنه إلياس ومبهم من يقول إنه نبي مبعوث، والمسيح لا يقول
للاميذ إنه المسيح، بل سألهم بعد شيوخ ذكره وتساءل الناس عنه وأنتم من
تقولون أني أنا هو؟ فأنجابه بطرس. أنت المسيح. فنتهره وأوصاهم ألا يدكروا
ذلك لأحد في رواية إنجيل مرقس. أما في إنجيل متى فقد روى أن بطرس قال
«أنت هو المسيح ابن الله الحي» فاجاب يسوع وقال طوبى لك يا سمعان بن
يونا أن مخلوقاً من لحم ودم لم يعلن لك ولكنه أبى انى في اسموت، وأنا أقول
لك أنك أنت بطرس^(١) وعلى هذه الصخرة أبني كنيسة وأبواب الجحيم لن تقوى
عليها، وأعطيته مفتيح السموات فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في

(١) الكلمة «لأر» صفة «معنى حجر كما هي «بترس» «بيتر» هي ترجمته بكلمة باليونانية

السموات، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في أسماوات ثم أوصى تلاميذه ألا يقولوا لأحد أنه هو يسوع المسيح».

أما في إنجيل لوقا فالرواية أقرب إلى رواية إنجيل مرقس «ففيما هو يصلي على انفراد كان التلاميذ معه فسألهم قائلاً ماذا تقولون الجموع عني؟ فاجابوا أنهم يقولون يوحنا المعمدان، وآخرون يقولون إن نبياً من القدماء قام. ثم سألهم وأنتم من تقولون؟ فقبل بطرس مسيح الله. فانتهرهم وأوصاهم ألا يقولوا ذلك لأحد».

والرواية في يوحنا أقرب إلى تصوير ما قدمناه، فإن السيد المسيح أحس أن الناس يتراجعون عنه «وأن كثيراً من تلاميذه رجعوا إلى الوراء ولم يمشوا معه، فقال للثاني عشر ألكم أنتم تريدون أيضاً أن تذهبوا؟ فاجاب سمعان بطرس يا رب! إلى أين نذهب؟ كلام الحياة الأبدية عندك، ونحن قد آمنّا وعرفنا أنك أنت المسيح ابن الله الحي. فاجابهم: ألسنت أنا اخترتكم.. وواحد منكم شيطان».

وقد تسمى كثيرون باسم التلاميذ فقال لهم كما جاء في إنجيل يوحنا «قال يسوع للسهود الذين آمنوا به إلكم إن شئتم مني كلامي كنتم بالحقيقة تلاميذي، ويعرفون الحق والحق يحرككم. فأجابوه: إنا نرى إبراهيم وأيسا عبداً لأحد فكيف نقول أنكم ستصبرون أحراراً؟ قال الحق الحق أقول لكم أن كل من يعمل للخطية فهو عبد للعطينة، والعبد لا يبقى في البيت أبداً. بما يبقى فيه الابن إلى الأبد فإن حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً.. أنا عام أبكم نرية إبراهيم. لكنكم تريدون قتلى لأن كلامي لا يقع منكم موقعاً.. أنت أنتكلم بما ربت عند أبي وأنتم تعلمون ما رأيتم عند أبيكم. فاجابوه: إن أبنا إبراهيم قال لو كن أبكم لعملم عملكم ولكم الآن تصلون دمي وأنا إنسان كلمكم بالحق الذي سمعته من الله. هذا لم يعمل إبراهيم وأسم تحملون أعمال أبيكم. فقالوا له: إنا لم نولد من سفاح لنا أب واحد هو الله. قال: لو كان الله أبكم لكنكم محبوسين لأبى خرجت من قبل الله وأبى إليكم. إني لم أت من نفسي بل هو أرسلني... أنتم من أب واحد هو إبليس ...».

فأجابه ايهود «لحسن تقول إنك سامري بك شيطان. وبعد أن قال لهم: إن من يحفظ كلامي لن يرى الموت عابوا يقولون الآن تبين لنا أن بك شيطاناً. قد مات إبراهيم وأنت تقول إن حفظ أحد كلامي لن ينوق الموت من تجعل نفسك؟ ألعك أعظم من أبينا إبراهيم الذي مات».

والعبرة من هذه القصة أن السيد المسيح موصى في دعونه رمزاً ولم يذكر تلاميذه أنه هو المسيح الموعود، وأنه كان يعلم من يطلبون لتلاميذه أنهم لا يركبون ما يقل، ولا يفرقون بين لغة الحب ولغة الروح أو لغة المجد، وأنه أشفق يرمي أن ينفض عنه تلاميذه المحتررين كما انفض هؤلاء الذين أرادوا أن يحسبوا أنفسهم من التلاميذ وزعموا أنهم مثله فأنكر عليهم دعواهم وقال لهم، بما يبوه الله بالأعمال وإنما نتم بأعمالكم أساء إبليس

وقد علم المسيح أنه لن يبقى طويلاً مع طلاب التلمذة عليه إلى الأبد، وأنه لن يبقى معهم حتى يطلعوا من الدابة والإيمان تلك الغاية المتلى التي ليس فوقها غاية قرب صمد معه أناس يصنعوا بارة ولا يحسبوا قهمة بارة أخرى ولكنهم يحسنون الطر ويترقبون الأمل في الخلاص من هذ الطريق، فتولت على علاتهم خير من المتعلمين الذين يسيئون الفهم ويستكبرون ويأتمرون به ليقضوا عليه

* * *

والشائع أن التلاميذ كانوا طائفة من صيادي السمك هي بحر الجليل، ولمفهوم من هذا عند أناس ممن يعرفونهم بالصناعة على السماع أنهم في طبقة عمال الصيد الأمير، ولكنه قههم متعجل مبنى على قياس غير صائب. إذ الواقع أنهم كانوا طائفة بقرأ وتكتب ويتردد على مجامع الوعظ والصلاة وتراجع ما قيل عن النبوءات لم يطلعوا على العلم منبغ الفعلاء في زمانهم، وهو خير لأنهم لو كانوا من فقهاء زمانهم لركبهم الغرور وقابلوا الدعوة بالتحدي والمكبرة ولكنهم لم يطلعوا كذلك مبلغ الأمية الجامية في لعباء وكان منهم من تسميه في عصرنا هذا بكاتب الحسابات أو مأمور التحصيل وهو متى العشار صاحب الإصح المعروف باسمه، وقدرته على كتابة إنجيل - بالبقة لبوابة كما هو الأرجح - قدره لا تتأتى لغبر المثقفين ومنهم بوحنا الذي يسب إليه الإنجيل الرابع، وهو ابن حالة المسيح أو من بني حووانه، وكان صاحب عمل ناحج في تحارة التسمك يشركه فيه أخوه يعقوب كما يؤخذ من إنجيل مرقس حيث يقول إنهما تركا أبهما في السفينة مع الأجراء وذهبا وراء السيد المسيح.

ومنهم حمس قرب المسيح ويؤخذ من أس الرعد كما سماه المسيح لقوته في الإندار وبشديد العكر، ومنهم بطرس وهو متكلم جريء صلب بعزيمة مدرب على حمل السلاح كما يؤخذ من بعض أخبار الإنجيل وكلهم كانوا على استعداد للمناقشة والمساجلة ومخاطبة الناس في أمر الدعوة، وكثرهم واحه الموت في عمله لمشر الدعوة ولم يحفل بمقاومة دوى اليأس والسيطن.

وقد استمالت الدعوة إليها في عصر المسيح وبعد عصره طائفة من المثقفين العلماء مثل نيقوديمس عضو المجمع الأعلى، ومثل الطبيب لوقا صاحب بولس الرسول، ومنهم بولس الرسول نفسه وهو أستاذ في فقه الدين عالم بالإنوار، وأكثر هؤلاء المثقفين ملأوا إلى الدعوة عطفاً على التلاميذ المحاهدين الذين مكنت بهم أسطورة الغاشمة، لأنهم خارجون على نظم من العقيدة والعادة بحنقره أولئك المثقفون ولا يجهلون فعل المحاسبة الروحية في تقويضه أو الإجهاز عليه.

* * *

ومن المعاصرين من بطلو له أن يحسب السيد المسيح داعياً إلى الفوضى السياسية متحلاً من النظام، لشدة إنعائه على الشريعة والجامدين عليها والمنافقين باسمها، وفتهم أن الشريعة الفاسدة في أيدي الجامدين أو المنافقين هي الفوضى في صورة أخرى، ومن بدحضها وينحى عنها لن يكون من الفوضويين ولا أعداء النظام.

أما البنية في الواقع على سحف هذا الحسدان فهو تنظيمه لتلاميذه وترويضه لهم على الطاعة وإبكار الذات، ونفسيته للأعمال في محتمعه؛ التصغير - مجتمع التلاميذ - بين أمين للصندوق، ومبشر لمطالب الجماعة، ورأع يرعى الهطيح في غيبة السيد، وهم مئة قليلة لا تحوز لعشرين مع حسدان التلاميذ وغيرهم من الطارئين.

وأدخ من هذا في باب التنظيم أنه اختار أولاً ثني عشر تلميذاً ثم اختار بعدهم سبعين وأوصاهم أن يطلقوا بالدعوة، ثني اثنين في كل اتجاه، وأنهم حين عادوا من رحلتهم أحدهم ناحية في أجل لاستمع منهم ويراجع أعمالهم، ويزيدهم من الوصية والإرشاد.

وقد جعل كل مناسبة الدعوة مناسبة لتعليم أولئك التلاميذ المختارين، وكان يحذرهم على الدوام من الفسنة الموبقة التي منحطم عندها نظام كل جماعة وهي فتنة التدافس على الرئاسة، فعلمهم أن الأول فيهم هو حادهم الأول، وضرب لهم مثلاً فداً في تاريخ الدعوات ليفوا جماعتهم غويه الرئاسة كلما ذكروه، فجمعهم في محفل ليمسك أقدامهم بيديه، وبقر بعضهم أول الأمر ولكنهم عدوا فتأذعوا حين علموا العبرة لتي عناها بهذه القوة وقال الذين نمرؤ أول الأمر من هذا التقليد أنهم يؤبون لو يأمرهم بأن مطبوعه في غسل الأيدي ولراءوس.

وحصر جهده كله في تعويضهم «إنكار الذات» وهو مضيفة لفضائل في الأعمال العامة، فحسبهم أن يعملوا ولا ينتظروا جزاء على عملهم ثم أذن لهم أن يقبلوا ضيفة السيوف التي يخبئونها لدعوة أهليها، ولكنه قال لهم «لا نحملوا كسباً ولا مروباً ولا أحمية . وأى بيت دخلتموه فقولوا سلام.. وأى مدينة تخدموها وبم يقلوكم فخرجوا إلى سبطها وانصصوا عبارها من أرجلكم».

وكرر لهم الوصية بالبساطة في العمل والكلام فأمرهم «ألا يشغلوا بالهم كيف ومتى يتكلمون لأنهم يلهمون في تلك الساعة ما يقولون، وليسوا هم المتكلمين بل هو روح أبيهم يتكلم فيهم».

ولم يحف عنهم أنهم ملاقون وبلاً من الناس فليكنوا حكماء كالحيات وبسطاء كاحمام. أما إذا جد الجسد فلا يحاف من يهلك الجسد ولحاف من يهلك الروح.

وقد أثمرت رياضة الحب في تكرب هذا الحشد الروحاني ما لا يثمره رياضة القسوة و لصرامة في تدريب جنود القلب فخرجوا يعملون وهم يعملون أن الوفاء في أداء الأمانة يصعبرهم أمام أنفسهم، ويصعبرهم أمام الله، وليس أقسى على نفوس من الشعور بهذا الصغار.

وما هو إلا حارس مواعدهم ليعملوا وينشثروا في الأرض حتى خرجوا إلى كل وجهة وأبعدوا الرحلة في كل مكان معمور، فمبهم من وصل إلى جزر الهند الشرقية كالرسول توم، ومبهم من وصل إلى سكيثية وآسيا الصغرى كالرسول أندراوس ومبهم من شغل بنفسه في البلاد الأوربية فأرسل صحابته إلى فريضة الشمالية، وعمت الدعوة مصر وبلاد العرب و نغراق، فضلاً عن الدعة في فلسطين.

ولكنهم لم يحفلوا بخطاب أبناء اليهودية كما حفلوا بخطاب «الأمم» في الحبس وآسيا الصغرى والإسكندرية، وأفادهم التمهيد الذي سبقهم به طوائف اليهود وأصحاب البخل السرية في تنظيم الدعوة، فعملوا كما كان يعمل الآسرون وأعداء الغبوريين، يخرجون اثنين اثنين ويشيرون الحلايا في كل بقعة، ويحفظون الصلة بين تلك الحلايا بالمراسلة والزيارة، وهذا يصح أن يقال إن الدعوة الجديدة استغاثت من الدعوات التي سبقتها في العصر السابق لعصر الميلاد ولا جرم يكون أكبر انجراح الذي أصابوه ملحوظاً في آسيا الصغرى والإسكندرية حيث عرف من قبل نظام الحلايا والسياح المتنقلين من الوعاظ.

كذلك يبدو أثر «الحالة العالمية» في انتشار الدعوة الجديدة من ظاهرة رائعة تكرب في كل أمة. فقد كان المدعوون إلى الدين الجديد من جماهير الناس

سراعاً إلى القبول، حرصاً على المعاونة والتأييد، ولم يهبط الرسل حطر إلا من قبل «السلطة» العالية، حيث تصطبغ عبادة القياصرة بعبادة الله.

وكان أشدهم حماسةً لدينه يلجأ إلى المجاملة رجاء أن تكسبه هذه المجاملة بعض المؤمنين الذين يعرضون عن الدعوة إذا وجههم لصراحة بغير تقية فكان بطرس في أنطاكية يجامل الحفطيين ولا يعاشر أبناء الأمم كلما أحس حوله بقوم من «آل يعقوب» فوبخه الرسول بولس علانية وحذره من مخالفة الدعوة في سبيل مرضاه الناس.

على أن بولس نفسه كان يتألف القلوب ببعض المجاملة، وكان كما قال في سفر كورنثوس الأول: «... استعذت نفسي للجميع لكي أربح الأكثرين وصرت لليهودي كيهودي لأربح اليهود وللناموسيين كالناموسيين ولغيرهم كأني بغير ناموس صرت لكل كل شيء على أنني أستخلص من كل حال قوماً...».

ومن ثم ولا شك خالط المسيحيين الأول الناس ممن تحولوا إلى المسيحية من لوثية، وبقوا معهم بعض عاداتها وشعائرها، وشملهم لأعضاء حيناً لعهم بعد هجر لوثية يستقيمون على مناهج الذين الجدد.

ومن بدع القرن العشرين سهوة لاتهام كلما بطروا في بواربح الأقديين فوجدوا في كلامهم أنباء لا يسيغونها وصفات لا يشاهدونها ولا يعقونها، ومن ذلك اتهامهم الرسل بالكذب فيما كانوا يشتون من أعاجيب العيان، أو أعاجيب النور والرواية، ولكن يعتقد أن التاريخ الصحيح بأني هذا الاتهام، لأنه أصعب تصديق من نقول بأن أولئك الدعاة أبرياء من تعمد الكذب واختلاق، فثبت أن عمل المؤمن الذي لا يبالي الحوب تصديقاً لعقيدته، وعمل المحتال الذي يكذب ويعلم أنه يكذب وأنه يدعو الناس إلى الأكاذيب، مثل هذا لا يقدم على الموت في سبيل عقيدة مدحولة وهو أول من يعلم ردها وحداها، وهيئات أن يوجد بين الكذبة العامدين من يستبسل في بشر دينه كما استبسل الرسل المسيحيون. فإذا كان المؤرخ الصانع من يأخذ بأقرب القولين إلى التصديق فتقرب القولين إلى التصديق هو أن الرسل لم يكذبوا فيما روه وفيما قالوا أنهم رأوه أو سمعوا ممن رآه، وليس بالمخالف للمعهود في كل زمن أن يصدق الإنسان عياناً ما يصدقه في قرارة نفسه، وبخاصة حين يجمع الألوف على تصديقه ولا يوجد بين قائله وسامعيه من يحسه من المستحيل.

ولنذكر أدعياء التحييص في عصرنا هذا أننا نطيب من الرجل في القرن الأول للميلاد أن يكذب إنساناً لغير سبب وهو يضمن إليه ولا يتهمة بالتلفيق والاختلاق. ومن التكذيب لغير سبب في ذلك العصر أن صادر السامعون إلى تكذيب الرواة كلما تحدثوا عن المعجرات، وذلك شبيه في عصرنا هذا بمن يكذب إنساناً لأنه سمعه يتحدث عن ظاهرة فلكية وصناعية لا غرابة فيها ولا سيف إذا كان المتكلم غير معهود فيه أن يعتمد الكذب والاختلاق.

من أسعف السخف أن يقال إن ديناً من الأديان قام على الأعاجيب والخوارق. إن تصديق الخوارق والأعاجيب هو نفسه إيمان كقوى الإيمان، وما خلت دعوة دينية قط من أحاديث هذه الخوارق والأعاجيب ما يعقل منها وما لا يعقل، ولكن لم يحدث قط إقبال كذلك الإقبال الجارف، الذي تلقى به الناس رسل المسيحية، لأنهم تلقوهم بنفوس مفقرة معطشة، ويطروا أمامهم فرأوا قوماً مثلهم يؤمنون غير مكرئين لما يصيبهم وغير مدهمين في مقصدهم، فأنصعوا إليهم وأمنوا كإيمانهم. وبولا ثقة المسيح عليه السلام بهذا الإقبال ما أوصى بلاميذه أن يذهبوا حيث يستمع لهم وينفضوا عن أقدمهم غبار كل بلد يتلقاه بالصدود وانتفور

الباب السادس

الأناجيل

الإنجيل

الإنجيل كلمة يونانية بمعنى الخبر السعيد أو الشارة، وقد تداول المسيحيون في القرن الأول عشرات النسخ من الأناجيل ثم اعتمد بناء الكنيسة أربع نسخ منها بالافتراع - أي بكثرة الأصوات - وهي إنجيل مرقس وإنجيل متى وإنجيل لوقا وإنجيل يوحنا مع طائفة من أقول لارسل المتوبة هي العهد الجديد.

ويرجع المؤرخون المختصون بهذه المناقشة أن الأناجيل جميعاً تعتمد على نسخة أرمنية مفقودة يشيرون إليها بحرف «ك» مختلة من كلمة كويل Quene بمعنى الأصل، ومنهم من يسمي هذه النسخة «لوجيا» Logia بمعنى الأقوال ويريدون بها الأقوال الشفوية التي سمعت ثم كتبت على القول المرجح عندهم باللسان الآرامية، ويعلنون اتفاق متى ولوقا في بعض النصوص باعتمادهما معاً على تلك النسخة المفقودة.

أما الأناجيل الموحدة الآن فقد كتبت جميعاً باليونانية العامة Koine ولوحظ في ترجمتها أنها تعتمد على نصوص آرامية وتحفظ على ما عندها من الجاس وترد المعاني والمفردات، وتتفق الآراء على أن هذه الأناجيل لا تحوي على ما فاده السيد المسيح، إذ جاءت في أعمال لارسل التي تضمنها العهد الجديد كلمة مسوية إلى السيد المسيح لم ترد في الأناجيل وهي «تذكروا» كلمات المسيح في العطاء معبوظ أكثر من الأخذ - وجاءت في الأناجيل الأخرى التي لم تعتمد كلمات من هذا القبيل وكشفت أوراق بردية في مصر ترجع إلى منتصف القرن الثاني لا تشبه الأناجيل المعتمدة في نصوصها.

وتتفق الآراء أيضاً على أن نسختين من الأناجيل كتبهما مسيحيان لم يجتمعا بالسيد المسيح ولم يسمعا منه، وهما نسخة مرقس التي نون فيها ما سمعه من بطرس الرسول بغير ترتيب وعلى غير قصد منه أن تجمع في كتاب، وقد كتبها في روما بعد مقتل الرسول وليس معه أحد من التلاميذ، ويترأخ كتابتها بين سبسي سبع وستين وسبعين.

والنسخة الأخرى هي نسخة لوقا صاحب بولس الرسول، نون فيها ما سمعه منه، ولعله أضاف إليها جزءاً من النسخة المفقودة ثم جزءاً من إنجيل مرقس بعد اطلاعه عليه، وكانت كتابتها على الأرجح سنة ثمانين.

أما إنجيل يوحنا فهو آخر الأناجيل كتابة ومراجعة، وأكثر النقاء على أنه مكتوب بقلم يوحنا تلميذ السيد المسيح، وآخرون يعتقدون أنها بقلم يوحنا آخر كان من أقسس ولم ير السيد المسيح . لأن يوحنا تلميذ المسيح هو صاحب سفر الرؤيا المؤلف على أصح الأقوال في ستة ست وتسعين، ولا يضمن أن مؤلفاً واحداً يكتب في وقت واحد كتابين منهما مثل ذلك النابن في المنهج والفصوى .

على أن الأب فرار فتون مترجم الإنجيل «طبعة اكسفورد» يعن له أن إنجيل يوحنا هو أقدم الأناجيل، وأنه كتبه أولاً بالعبرية بين سنة ثلاثين وسنة أربعين ثم نقله إلى اليونانية، ولكن تأخر الزمن الذي كتب فيه هذا لإنجيل ثابت من تفصيله بعض ما أجملته الأناجيل، وريادته هي التعبيرات الفلسفية، وبوسعه في شرح العقائد التي أثرت عن بولس الرسول، ولا يضمن أنه كتب قبل سنة ست وتسعين.

والترتيب المعصل عند المؤرخين أن إنجيل مرقس هو أقدم الأناجيل، ثم يليه إنجيل متى فإينجيل لوقا، وهي الأناجيل الثلاثة التي اشتهرت باسم أناجيل المقابلة لإمكان المقابلة بين ما فيها من الأخبار والوصايا على اختلاف الترتيب، مع العلم بأنها كتبت في الأصل رسالة يغير أقسام ويغير موضع للوقت والإلحاق، ولم تقسم إلى إصحاحات قبل القرن الثالث عشر للميلاد.

وليس من الصواب أن يقال إن الأناجيل جميعاً عمدة لا يعول عليها في تاريخ السيد المسيح لأنها كتبت عن سماع بعيد ولم تكتب من سماع قريب في الزمن والمكان، ولأنها في أصلها مرجع واحد متعدد النقلة والنسخ، ولأنها روت من أخبار الحوادث ما لم يذكره أحد من المؤرخين، كاشفاق القبور وبعث موتاهم وطوائفهم بين الناس وما شابه ذلك من الحوارق والأهول.

وأما الصواب أنها العمدة الوحيدة هي كتابة ذلك التاريخ، ومواطن الاختلاف بينها معقولة مع استقصاء أسبابها والمقارنة بينها وبين آثارها، ورفضها على الجملة أصعب من قبولها عند الرجوع إلى أسباب هذا وأسباب ذلك.

فإنجيل متى مثلاً ملحوظ فيه أنه يحاطب اليهود ويحاول أن يزيل نفرتهم من الدعوة الجديدة، ويؤدى عباراته أداء يلائم كنيسة بيت المقدس في منتصف القرن الأول للميلاد.

وإنجيل مرقس على خلاف ملحوظ فيه أنه مخاطب «الأمم» ولا يتحفظ في سرد الأخبار الإلهية التي كانت تحول بين بني إسرائيل «المحافظين» والإيمان بإلهية المسيح.

وانجيل لوقا يكتبه طبيب ويقدمه إلى سري كبير، فيورد فيه الأخبار والوصايا من الوحيه الإنسانيه، ويحصر في ذهنه ثقافه السري الذي أهدي إليه نسخته وثقافه أمثاله من العلية.

وانجيل يوحنا علبت عليه فكرة الفلسفة وبدأء بالكلام عن « لكلمة » Logos، ووصف فيه اتجسد الإلهي على النحر الذي يتألفه اليونان ومن حضروا محاضراتهم ودرجوا معهم على عادات واحدة.

وسوء رجعت هذه الأناجيل إلى مصدر واحد أو أكثر من مصدر، فمن الواجب أن يدخل في الحسبان أنها هي العمدة التي اعتمد عليها قوم هم أقرب الناس إلى عصر المسيح، وليس لدينا نص يعد قرابة ألفي سنة عمدة بحق منها بالاعتماد.

ونحن قد عولنا على الأناجيل ولم نجد بين أسسها مرجعاً أو في منها لدرس حياة الرسول والإحاطة بالظهور الرسالة وملابسها ولكننا نتبع في مراجعتها طريقة غير التي درج عليها مؤرخو الوقائع والأخبار، فلا نراجعها من حيث هي وقائع تاريخية ولا من حيث المقاصد التي أرادها كتابها ورواتها، ولكن بجمع الوقائع والأخبار ونسأل عما وراء من الإبانة عن شخصية الرسول، وفي هذه المراجعة ننفعنا الوقائع المستخرجة كما تنفعنا الوقائع المألوفة وبهنا لأعراض المقصودة وغير المقصودة.. فهل وراء هذه الأخبار «شخصية متناسقة» مفهوم؟ إن كانت هناك علامات على تلك الشخصية المتناسقة محسبنا ذلك من جميع الوقائع والأخبار، وعلينا أن نفهم هنا أن النقائص في هذه المراجعة قد تكون من أسباب التخصيص، ولا تكون من أسباب الشك والإنكار، ثم يأتى لنا أن نجعل هذه الشخصية نفسها محكاً لكل واقعة ولكل خبر ولكل كلمة مرويّه، فما خرج من السواء فهو فصول.

ومن الأمثلة على الاختلاف بين هذه الطريقة وبين طريقة المؤرخين الذين يطلبون الوقائع لذاتها أن الغرائب هنا شيء يجب أن نبحث عنه إن لم نجده ماثلاً بين أيدينا، فإن حل هذا التاريخ من الغرائب هو الذي يستعرب وليس هو المؤلف الذي يدعو إلى الترجيح أو اليقين. وهل يحسب من لغرائب سجل قوم يؤمنون بها ولا يشكون في وجودها ؟

ونحب هنا أن نبين موقفنا من الفوارق والمعجزات حيث وجدت في تواريخ الأديان، فنحن نسأل من هذه المعجزة لازمة في تفسير مسألة من المسائل؟ من

كان تفسير المسألة ميسوراً بغيره، فلا حاجة بسا إلى الجدل في إمكانها أو استحالتها، لأن التفسير الذي يقبله كل إنسان يعنى عن التفسير الذي يضطرنا إلى امتحان الممكنات وامتحن الرواة.

أما رأينا نحن في إمكان المعجزات فهو رأينا في إمكان جميع الأسباب فإن العقل قاصر عن تحليل الحوادث بسببها، وليس من العقل أن يقل إن هذه الأسباب المسماة بالطبيعة هي العوامل الفعالة في إيجاد الأشياء وأصبح ما يقال فيها قول الغزالي رحمه الله أن الأسباب والمسببات تحدث معاً ولا تريد علاقتها بعضها ببعض على علاقة اصحابية والتوافق في الأوقات، وإلا لزم أن تكون المادة ألوماً من الحوادث، كل منها مستقل بخصائصه ومؤثراته وعلاقته بالمواد الأخرى ولا يقول بذلك عقول سليم هذا كقول العقل لا بعلة لأسباب الطبيعة فمن الشطط أن يتعمل بأبكار المعجزات والجزم باستحالتها.

ومتى دققناها فلتكن مناقشتنا لها كمنافشة الأسباب. هل هي لازمة لتفسير هذه المسألة؟ وكما نقول هل هذا السبب لازم؟ نقول أيضاً هل هذه المعجزة لازمة لفهم والتفسير؟ وبهذا القسما يجب أن تورن الحوادث ويدرس تريح الأديان وغير الأديان.

وحس لم تتعرض للمعجزات التي وردت في الأناجيل لأن تفسير الحوادث مساو لنا بغيرها، فليس في الأناجيل أن معجزات الميلاد حملت أثراً على الإيمان بالرسالة المسيحية بعد قيام السيد المسيح بالدعوة، وكثيراً ما نقرأ فيها أن المعجزة لا تفزع المكابر، وأن الجيل الشرور يطلب الآلة ولا يعطها، وأن المكبرين كانوا يعجبون لما يرويه أحياناً ولكنهم كانوا يزعمون أنه من فعل الشيطان، بل كان من أسباب التنجيل بمصادرة المسيح أنه كما قال الكهنة يصنع كثيراً من المعجزات.

وبعد فمن الحق أن نقول إن معجزة المسيح الكبرى هي هذه المعجزة القارضية التي بقيت على الزمن ولم تنفخ بأفصاء أيامها في عصر الميلاد رجل بنشأ في بيت نجار في قرية خاضعة بين شعب مقهور، يفتح بالكلمة بولاً تضيق في أطوائها سولة الروم ولا يقضى عليه من الزمن في إيجار هذه المفتوح ما قضاه الحيايرة في ضم إقليم واحد، قد يحضغ إلى حين ثم يتمرد ويحلج البير، ولا يحضغ كما حضغ الناس الكلمة بالقلوب والأجسام.

شرح الأناجيل

عنى الشراح الإنجيليون عناية دقيقة مصصية بتوبيخ الحوادث في مسيرة السيد المسيح عليه السلام كما تستمد من روايات الأناجيل، ولكنهم لم يصلوا إلى ترتيب متفق عليه، لأن سياق الحوادث مختلف في الأناجيل الأربعة، وبعض الأناجيل قد سجلت ما سمعه كتابها في أوقات متفرقة حسبما عرص لهم من مناسبات الرواية لا حسب تسلسل الأرملة التي وضعت فيها لحوادث، فلم يتفق ترتيب الكسبة وترتيب الطلوع.

على أن حوادث السيرة فيها ما يظهر منه أنه مقدمات وما يظهر منه أنه نتائج لاحقة لتلك المقدمات، فإذا حسبنا بعضها نتيجة لبعض على حسب المعقول من ثار الحوادث، أمكن على الترجيح متابعه السيرة المسيحية في خطوطها الكبرى، ولا يضيرنا بعد استقامة هذه الخطوط أن تختلف أوضاع الحوادث التي يمكن أن تصاف إلى كل فترة دون أن يتغير سياق السيرة كله أو يتغير جوهر الموضوع الذي تدور الحوادث عليه.

كان لقاء المسيح ليوحنا المعمدان معرق الطريق في السيرة المسيحية.

ولم تذكر لنا الأناجيل من أحوار بشاة المسيح عليه السلام قبل ذلك اللقاء غير حادثتين اثنتين، إحداهما حادث السفر إلى مصر وهو رضيع، والأخرى حادث السفر إلى بيت المقدس وهو في الثانية عشرة من عمره.

روي الحادث الأولى إنجيل متى فقال «إن ملاك الرب ظهر ليوسف في حلم مثلاً قم واخذ الصبي وأمه واهرب إلى مصر. لأن هيرودس مزعم أن يطلب ناصبي ليهلكه، فقام وأخذ الصبي وأمه ليلاً وانصرف إلى مصر، وبقي فيها إلى وفاة هيرودس» ثم قال «وقتل هيرودس جميع الصبيان الذين في بيت لحم وتخومها من ابن سنتين فما دونهما».

ولم يذكر خبر هذه المذبحة في غير إنجيل متى، ولا يعرف الآن سبب وجود الأسرة في بيت لحم - وهي من الناصرة - لأن الإحصاء الذي أشير إليه إنجيل لوقا وقيل إنه سبب انتقال كل أسرة إلى مدينتها قد تقرر في السنة السادسة للميلاد وحدثت من جرأته ثورة عييفة على عهد ولي سورية كريبوس.

أما الإنجيل الذي توسع في وصف مقولة السيد المسيح فهو إنجيل لوقا الذي روى أحداث ختانه وتسميته والسفر به إلى ميث المقدس «فلما تمت ثمانية أيام ليحتموا الصبي سمي يسوع...» وتمت أيام النطهير حسب الشريعة الموسوية «فصعدوا به إلى اورشليم ليقدموه للرب. ويقدموا ذبيحة روح بمقام أو فرخي حمام» وهي القربان المقبول من الفقراء.

قال إنجيل لوقا «وكان أبواه يذهبان كل سنة إلى اورشليم في عيد الفصح، فلما كانت له اثنتا عشرة سنة صعدوا إلى اورشليم كعادة العيد، وبقي الصبي عند رجوعهما في اورشليم ويوسف وأمه لا يعلمان. وذهبا بين الرفقة ذهبا مسيرة يوم وكانا يطلبانه بين الأقرباء والمعارف، ولما لم يجدا رجعا إلى اورشليم يطلبانه، فوجداه بعد ثلاثة أيام في الهيكل جالسا في وسط المعلمين يسمعهم ويسألهم، وكل الذين سمعوه بهتوا من فهمه وأجوبته، فلما أبصره ذهبا وقال له أمه يا بني لماذا فعلت بنا هكذا. فقال له: «لماذا كنتما تطلباني؟ ألم تعلما حيث يسكني أن أكون قيما لأني». فلم يفهما الكلام الذي قاله هما، ثم برل معهما وجاء إلى الناصرة وكان خاضعا لهما وكان يتقدم في الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس».

ولا يذكر الإنجيل شيئا عن بشارة الصبي بعد ذلك إلى أن بلغ الثلاثين وظهر يوحنا المعمدان التوبة لعفرة الخطايا» وحينئذ جاء يسوع من الطل إلى الأرين ليعتمد منه - كما ورد في إنجيل متى - فمنعه يوحنا قائلا أن محتاج أن أعتمد منك وأنت تأتي إلي؟ فنجابه يسوع تسمح الآن، لأنه هكذا يحمل بنا أن سنغفر كل بر فسمح له، فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء، وإذا السماوات قد انفتحت له فرأى روح الله نازلا مثل حمامة وأب عليه وصوت من السماوات يقول: هذا هو ابني الحبيب».

وفي إنجيل غير الأناجيل الأربعة المعتمدة - وهي إنجيل العبريين - رواية عن هذه الفترة من سيرته عليه السلام جاء فيها أن أمه وأخوته قالوا له إن يوحنا المعمدان يرأى النعميد لعفرا الخطايا فهل بنا إليه ليعمدا، فقال لهم «أي خطيئة جنيت حتى أذهب إليه لتعميدي! اللهم إلا أن يكون هذا القول الذي قلت».

وليس في الأناجيل ولا في غيرها خبر عن تعليم السيد المسيح في طفولته قبل الثالثة عشرة وبعدها ولكنه بانقرب إلى نظام اتربية في ذلك العصر يبدأ في

مكتب ملحق بالبيعة في كل قرية كبيرة يشرف على بيعتها «حزان» أو «خران» بمعنى الخازن والחסار، ويندر في المكتب حصول التلميذ على النسخ المخطوطة من الكتب الدينية غير نسخة ابنة امعدة لللاوة منها في السنوات والاستعانة بها على نعيم التلاميذ الصغار، ومغولهم جميعاً على الحفظ والاستظهار.

لقد كنت كل أسرة يهودية تتمنى في ذلك العصر أن يخرج منها المسيح المنتظر. وقد سمي الطفل يسوع أو «يهوشع» على هذا الأمل، لأن الاسم مركب من كلمتين تفيدان معنى «يهو» أو «جدة يهو» أو «خلاص يهو» فربى الطفل تربية دينية خالصة، ولا يصعب علينا تعيل سفر الأسرة إلى بيت لحم عند مولده، لأنها تنتظر المعجزة هناك، حيث ورد في أسفار من النبوءات أن بيت لحم هي مولد المسيح الموعود، لأنها موطن داود.

ولا بعد أن التحق المبارك وكان في الثانية عشرة من عمره، قد وعى جميع الدروس التي يتعلمها الصغار في مدارس القرى واستمع إلى شيء جديد من فقهاء الهيكل وأخباره، فتأقت نفسه إلى استيعابه وبسي أهله وموعود عودتهم إلى قريتهم وهو ينتقل بين دروس الفقهاء والأخبار.

ويعلب على الظن أنه كان على صلة وثيقة بيوحنا المعمدان وأن يوحنا قد رآه وعرفه وعرف مضله وطهارة سيرته قبل أن يبقاه في الأردن عندما نصدي لرسالة التعميد، وهي بطليعتها رسالة إعداد وتمهيد.

ومن البديهي أن كلمات يوحنا مع لفتي ابن الثلاثين في ساعة التعميد لم تذهب بعير صداها في نفسه الرابعة، فمن أيسر آثارها في مثل تلك النفس أن تعزز فيها الأمر وتدعم فيها ليقين وتمسكها على التمسك فيما خلق له وميما ترحوه ويرجى منها من الشرائع والنذر التي تردت يومئذ في كل مكان، وعلى كل لسان.

وخلاوة ابيرية هي إحدى نتائج تلك التحية النفسية، وهي خلاوة التحرية والامتصان والنساق والاستبشاق التي عاجها كل نبي قبل أن يصدع بما أمر به، وقبل أن يستيقن أن ما أمر به من عند الله.

ونعتمد في وصف هذه التجربة على رواية إنجيل متى حيث يقول: «إله عليه السلام بعد أن صام في البرية أربعين ليلة جاع أخيراً فنقدم به المحرب وقال له إن كنت ابن الله فقل لهذه الحجارة تصير خبزا». فأجابته مكنوب أنه ليس

بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكلمة تخرج من فم الله ثم أخذه إبليس إلى المدينة المقدسة وأوقفه على حذح الهبكل وقال له إن كنت ابن الله فاطرح نفسك من على، لأنك صاعد أن يوحى ملائكته بك ليحملوك على أيديهم فلا تصطدم رحلك بحجر. قال يسوع ومكتوب أيضاً ألا تجرب الرب إلهك ثم أخذه إبليس إلى جبل عال وأراه جميع ممالك لعالم ومجدها وقال له أعطيك هذه جميعها إن سجدت لي.. قال يسوع عرب عني أيها الشيطان، فإنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد..»

قال إنجيل متى بعد ذلك ولما سمع يسوع أن يوحنا أسلم لهرود انصرف إلى البطل وترك الناصرة وسكن في كفر ناحوم، وانتدأ رسالته داعياً إلى القوة، لأنه قد اقترب ملكوت السموات.

كان لقاء يوحنا المعمدان مفرق الطريق في السيرة المسيحية كما أسلفنا، فكانت سيرة الفتى المؤمن قبل ذلك اللقاء تأمناً واستعداداً وأملاً، وكانت سيرته بعد اللقاء رياضة وامتناعاً وعزيمة، وريته كلمات النسي النذير إلى طوبته يسر أغوارها ويمتحن صبرها ويسائلها ويسائل الغيب ليهديه إلى كنه رسالته ومصدر بعثته، وتوسوس له التجربة أن يطلب الآية ويلمس الدليل، وكل تجربة من هذه التجارب التي مثلتها ساطة الرواية الإنجليزية تدور على سر الرسالة المسيحية وما أحاط بها في كتب القدامى من البشائر والمواعيد، ألم يكن رجاء الناس من المسيح الذي ينظرونه أن يعم أخير وينطل العناء في طلب الأرزاق ويصبح الحزق لى لمن يطلبه كحجاره المطريق؟ ألم يكن من مواعد المسيح أن يقتل على السحاب ممولاً على أجنحة الملائكة؟ ألم يكن من مواعيده طلب العالم بالتاج والصولجان؟.. كل تجربة من هذه التجارب كانت هي التجربة التي تساور صميراً مشعولاً بالرسالات المسيحية، وافقاً على قمة لإيمان وشفق الهاوية وفي لحظة واحدة يقرنه من هذ رسالة جسد وسلطان ومساومة على البرهين والآيات، وتعصمه من هذ رسالة روح وقداسة ويقين لا يسوم على البرهان.

أتكون كلمات يوحنا للمسيح أول وحى ببوى بالرسالة المسيحية ؟

واضح غاية الوضوح أن هذه الكلمات لحظة لم تطرق مسامعه إلا وقد فتحت في نفسه انصافية بعباً لتأمل والتساؤل، وأن فترة الخلوة هي لبرمة على أثر ذلك كانت فترة اعتكاف لاستخلاص الحقيقة من أعماق الضمير، والاستعانة

بالصيام والتهجد على منجاة الغيب، والاستقرار على عريضة حالصة للإقدام على خطوة حاسمة يريد لها الله ويطل فيها الإبهام والإحجام.

وعندنا أن أنفس خبر يعين على التعريف بمنهاج الإيمان في نفس الرسول العظيم هو هذا الضر عن تجربة الوحدة في الفرية، فهو يفسر لنا مواقف السيد المسيح جملتها قبل، لإقدام على خطوات الحاسمة، أو يفسر لنا منهاج الإيمان بدراعى العمل في ضميره السليم.

إبه إذا أقدم على أمر من الأمور الحاسمة أقال التفكير فيه، ولم يزل يطيل التفكير فيه ويقلب وجوه الروية والمراجعة حتى يحظر له أن العمل مرهون بانصر آية يستوثق بها من إرادة الله، وعندئذ يبادر إلى نيل هذا الحاضر بغير هوادة، لأن العامل الذي يتوقف عمله على انتظار آية ضعيف الإيمان، ومن كان قوام نفسه أن مثقال حبة خردل من الإيمان ينقل الجبل من مكانه ويحطم الشجر من منبته فمن يكون إيمانه معتمداً على آية يراها قبل أن يعمل عمله ويتجرد لمقصده، ويحصى حين يبدو للنفس أن الآلة منتصرة لانقضاء الخطر وضمان الأمان، فالخطر إذن أحب من النك، وكل شيء، إذن أسلم من الأمان الذي لا يأتي بضمان من البرهان.

وكما بلغ السيد المسيح من تفكيره ورويته هذا الحد الفاصل فمنهاجه الجدير به هو استخارة الحوادث واستلهاً العيب من هذا الطريق... ليفعل ما يتوقاه ولا يشترط شرطاً للوقاية، ليفعل له ما يشاء، فما يحرق بعد ذلك كله هو إرادة الله.

خرج السيد المسيح من العزلة إلى الرسالة، ولم يقل لأحد إنها رسالة المسيح، بل سكت عن ذلك حتى تسامع الناس بدعوته وأصبح له أكثر من ثمانين تلميذاً يمشون برسائلته ويستمدون الهداية من وحيه

وأصبحت رسالته الأولى في الجليل بصيغة مميزة وهي صيغة الرسالة القومية إلى إسرائيل، وحرص عليه السلام أشد الحرص ألا يثير الناس على السلطان الحاكم ولا يثير السلطان الحاكم عليه، فكان يؤثر المصلحة والتقية ما استطاع، حتى بلغ الكتاب أحله وإن أن يمضى في خطوة أخرى بعد الخطوة الأولى التي أسفل بها من العزلة إلى الدعوة بين بني إسرائيل، فهذه الخطوة الثانية هي الدعوة الإنسانية العامة وهي استخارة للحوادث واستلهاً للغيب في ميدان أوسع وأبقى، وعلى النصف التي ثبتت له في طوية ضميره وهداه إليها وحي الله، ولم يبق إلا أن تؤيدها حوادث القدر كيف شاء.

أما الصفه التي ثبتت له عليه السلام في طوية ضميره فقد تكررت في كلامه عن نفسه على صور شتى، فهو نور العالم وخير الحية، والكرامة الحقيقية، وهو ابن الله وابن الإنسان.

والآية الإلهية قد وردت في مواضع متعددة في كتب الأنبياء فجاء في سفر التكوين أن الملائكة أبناء الله «وأن أبناء الله رأوا بنات العاس حسنت فأتحدوا منهن زوجات» (٦ تكوين).

ورد في كلام موسى عليه السلام أن بنى إسرائيل جميعاً أبناء الله حين قال لفرعون «دع ابني يخرج» ووردت بهذا المعنى في كتب أخرى كسفر التثنية حيث جاء فيه «نتم أبناء الله» (تثنية ١٤) وأشير إلى الشعب كله بأنهم أبناءه (٣٢ تثنية) -- وردت كذلك غير مرة في الزمير حيث قيل «قدموا للرب يا أبناء الله» (٢٩) و«من يشبه الرب بين أبناء الله» (٨٩).

وكذلك وردت في مزمور، وجاء فيه من خطاب الشعب «أنتم أبناء الله الحي» أما في العهد الجديد فمحاطة الله باسم الأب وردت في الصلاة التي تنقذ بدعاء الله «أبانا الذي في السموات» وحيث قال السيد المسيح للتلاميذ إن «أنكم واحد هو الذي في السموات» حيث تكلم عن ولادة الروح وولادة السيد، وكل ولادة للروح فهي بنوة لله.

أما ابن الإنسان فقد وردت في كتب العهد القديم باللغة الآرامية وباللغة العبرية، وهي بالآرامية «بن بر» بمعنى ابن و«بن بر» بمعنى إنسان، وهي بالعبرية «ابن آدم» وتطلق في كلتا اللغتين على الإنسان الحاضر أو على الإنسان من حيث هو نوع يقابل أنواع الأحياء.

وقد وردت سبعين مرة في سفر حزقيال حيث يخاطب «يهوا» ذلك الرسول حينئذيه بابن الإنسان.

ووردت مرة في سفر دانيال فإسناد جبريل وهو يخاطب النبي باسم ابن الإنسان (٨).

ووردت في هذا السفر باللغة الآرامية حيث يتكلم عن مخلوقات بمصور الحيوانات ثم يفتي عن رسول يأتي في صورة إنسان رآه النبي في رؤى الليل «على سحاب كابن إنسان» جاء بسلطان لئ يزل.

أما في كتب العهد الجديد فقد وردت في مواضع بمعنى «الإنسان» منها قول السيد المسيح في إنجيل متى «كل خطيئة وتجديف يعفر للندس، ومن قال كلمة

على ابن الإنسان يغفر له، وأما من قال على الروح القدس فلن يغفر له لا في هذا العالم ولا في العالم الآتى» (١٢).

وقد جاءت أحياناً مرادفة بضمير المتكلم «أنا» حين يتكلم السيد المسيح عن نفسه، فجاء في لوقا ١٢ . «كل من اعترف بى قدام الناس يعترف به ابن الإنسان قدام ملائكة الله» وجاء في متى ١٠ . «كل من يعترف بى قدام الناس أعترف أنا أيضاً به قدام أبى الذى فى السماوات»

وورد في متى ١٦ . «إنه لما جاء يسوع إلى نواحي قيصرية فيلبس سأل تلاميذه قائلاً من يقول الناس إنى أنا ابن الإنسان؟»

وورد في مرقس ٨ . «ثم خرج يسوع وبلادته إلى قرى قيصرية فيلبس وفى الطريق سأل تلاميذه قائلاً من يقول الناس إنى أنا؟»

فهى هى بعض الأناجيل مرادفة أو بديل من ضمير المتكلم حين يتكلم السيد عن نفسه، ولا بد أن يلاحظ هنا أن التلاميذ قد عرفوا استخدمها فى هذا السياق فلم ينادوا السيد المسيح قط باسم ابن الإنسان.

وقد وردت حساً بمعنى يشبه معانيها هى تدعى ديبال حيث قال «كما يجمع الرواى ويحرق بالنار هكذا يكون فى انقضاء لعالم، ويرسل بن الإنسان ملائكته فيجمعون من ملكوته جميع المعثر ولاثمين» (متى ١٣).

وهى إشارة كإشارة ديبال إلى يوم الدينونة، وصيغتها بالآرامية واحدة هى الموضعين.

هذه هى الأسماء التى تسمى بها السيد المسيح فى إبان دعوته لأولى أو عند نهبتها، وفى أثناء هذه الدعوة كان يدعى بالمعلم الصالح «حياً» فيقول «لماذا تدعوننى صالحاً؟ ليس أحد صالحاً إلا واحداً، وهو الله»

وعند نهبتها سأل تلاميذه عما يقوله الناس عنه، فلما قال له بطرس إنك أنت المسيح ابن الله باركه ثم أمرهم بالكتمان.

وغنى عن القول أن هذه الأسماء إنما كانت تفهم كما تعود قراء الكتب البيانية أن يفهموها فى ذلك الحين، ولم يوص السيد المسيح تلاميذه أن يفهموا منها غير ذلك حين يذكرون «ابن الله» أو «ابن الإنسان».

لو جرت الأمور فى محررها التى استقامت عليه الدعوة فى الحيل من بعد الرسالة المسيحية لمصب هذه الرسالة فى طريقها سنوب دور أن تشتبك فى حرب صراح مع دولة لكهانة فى بيت المقدس.

ولكن الحوادث حكمت حكمها في السنة التي نحسب الآن سنة ثلاثين للميلاد.
وحان موعد عيد الفصح وزيارة بيت المقدس كما جرت عادة الأسر اليهودية،
ومنها أسره لسيد المسيح أمه وإخوته وبوو قريبه

وكان عليه السلام يجارى أسرته في هذه الشعائر التي لا صير فيها، ولم يكن
يضيق على لسان في المحافظة على المأثورات التي تعلموا أن يحتضنوا بها
ويفرحوا فيها بالاجتماع وتبادل التهتات، وإنما كان يسكن من المأثورات ما كان
فيه حجر على الصماثر أو مفاخرة بالتقوى الكادية والبقاء المكشوف، وبما عدا
هذا كان يشارك أسرته في أفراحها القومية ويذهب إلى الهيكل ويأمر بشراء
الفراش، ين بلمر مسدد العرضة التي كانت تفرض على كل رأس من رؤوس
بنى إسرائيل.

وفي سنوات مضت زار بيت المقدس ولم يذكر قط أنه تحلف عنه هي إحدى
السنوات منذ نشر برسالة في الجليل، وكان يذهب مع أصحابه القلائل ثم يعود
إلى الحليل دون أن يحس زيارتهم سدة الهيكل وذو الشأن في العاصمة
الدينية، ويؤمن أن يشتبك الفريقان في نضال.

لكن كيف يكون الذهاب إلى بيت المقدس في هذه السنة ؟

إنه لا يذهب إلى العاصمة هو وأصحابه كما كانوا يذهبون في السنوات
الماضية.

إنهم يعدون الآن بالأكوف في أنحاء الجليل، وإذا قدر أن مبعاً وثعابين
مسيحياً يعدون من التلاميذ فليسبحيون الذين لا يعدون منهم قد يلعبون عشرة
أضعاف هذا العدد أو يزيدون.

فكيف يذهب هؤلاء الثقات مع معلمهم إلى بيت المقدس خفية يتسللون إليها ولا يعلنون
ولا هم للمعلم الذي يحج معهم إلى المدينة ولماذا هذا السبل وهذا الاختفاء ؟
هنا موقف من المواقف التي نسميها مواقف استلهم الغيب واستخارة
الحوادث.

يذهب إلى بيت المقدس مع مئات التلاميذ والأناس مكرراً لرسالته حذراً من
إعلانها مع هذا الجمع الذي لا يسهل معه النخفي والاستتار ؟

وماذا يقع من أثر السحى والاستتار في نفوس المؤمنين برسالاته الروحية إن
لم تقل برسالاته المسيحية ؟

أبو من أحد منهم أن رسالة روحية أو مسيحية نعم العالم في الحفاء، وتستتر
لنسب من الأسباب، فصلاً عن لسبب الذي يسبق إلى الأذهن لأول مرحلة،
وهو الحذر والانقاء ١٩

وحيب القمام إلى بيت المقدس ووجبت العلانية ولا محيد عن الواجبين، ولكن
الآية الإلهية ما تسفر عنه الحوادث بعد حين.

وأدل شيء على أن الموقف، الأخير هي الرسالة المسيحية كان على منهاج
السيد المسيح هي أمثال هذه المواقف - موقف استخارة الحوادث - أنه عليه
السلام سهر ليلة الوداع يصلي ويتأجج ربه قائلاً «اعبر عني هذه الكأس يا
أبتاه.. كما تريد أنت لا كما أريد» ثم يقظ تلاميذه السيام وقل لهم «اسهروا
وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة أما الروح فتشيط وأما الجسد فضعيف»

وقد أعد عدته لمواجهة أعدائه حيث لابد أن يواجهه، وأعد أعداءه لاستبقاء
عزيمة تلاميذه فطعن يهبي أذهابهم لاحتمال ما يلاقونه من بلاء، وصره عن
أذهابهم أنهم غرورة فتحت تجلى عن غلبة عاجبة على دولة الكهنة الديويية،
فلبوطوا أنفسهم إذن على أسوأ ما يكون، بل لا ييأسوا إذا عندهم الضعف
فتفرقوا عنه، ولا يخامرهم لطم أنهم ان قد خسروا المعركة وانهزموا هزيمة
الصانع، فهذا الضعف مقدور بنبعه لا محالة نصر قريب.

وتروى الأناجيل أنه عليه السلام دخل إلى بيت المقدس على ظهر أتان كما
جاء في بعض النسخات عن مركب المسيح الموعود، وأبهم كانوا يحملون السعف
أمامه ويقرشون ثيابهم تحت أرجل مطيته، ويهتفون بهتاف النصر الذي يحفظه
اليهود منذ الطفولة، ويتعجبون به في المواكب والمحاقل لذكرى داود، وذكرى مجده
المستعاد إلى آخر الزمن.

ويهم من وصايا السيد المسيح أنه ظل في بيت المقدس يرعى للكهنة والعقهاء
مكاسهم ولا يفلقهم على ما هم حريصون عليه من حقوقها ودعاواها، ففي إحدى
هذه الوصايا يقول مصطباً الجموع و لتلاميذ «على كرسي موسى جلس الكنية
والفريسيون فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه، ولكن حسب أعماهم
لا تعملوا لأنهم يقولون ولا يفعلون».

ولم تسمع منه في رواية الأناجيل كلمة واحدة يغير بها ما أحبطه لنفسه في
حكيمته الماثورة عما يقصر وما لله، فكأن ما سمع منه في بيت المقدس يعيد ما
أسلفه من بيار الملكوت الذي يدعو إليه، وأنه من غير هذا العالم، ولا شأن له
بسلطان التنحان والعروش.

إلا أنه من اللحظة الأولى في بيت المقدس لمس مك من الأشرار التي ترصد له في كل خطوة، وعرف من الأسئلة التي كانت تسال عليه أن القوم متعمرون به لإهلاكه، إذ كانت هذه الأسئلة جميعاً تنزع إلى هدف واحد وهو اسبغ احه إلى كلمة تثبت العصيان والتمرد على الدولة أو كلمة تثبت «الكفر» ونقض الشريعة، وكانت أجوبه كلها على ما تعودوه في مواضع العنت والإحراج تستند إلى حجته وتستقيم مع عهده ورسائله وتخجل من يحاول إحراجها وتهتك ما يستره من حجب الرياء، ولا يبعد أنه قد سمع من بعض رؤساء الهيكل تفصيل لمؤامرة المحبوكه، لأن أحدهم وهو «يقوديموس» كان يروره ليلاً، ولعله واحد من كثيرين.

ثم حدث ما لا بد أن يحدث في عيد كذبل، بين أناس متعمرين وأدس متحريدين لدعوة جديدة يتطوعون لنشرها ويتحمسون لصاحبها، فاشتبك السيد المسيح وبسماصرة الهيكل في معركة أدبية لم تلبث أن انقلبت إلى معركة بدوية، فقلب عليه السلام موائد الصيرفة وباعة الضحايا وصاح بهم وبسماصرة الهيكل بذكرهم أنهم في بيت الله، وأنهم نقلوه من معبد صلاة وصهارة إلى معارة لصوص.

وكانت هذه هي الوقعة العاصلة على ما يظهر، وربما سعى إليها السيد المسيح تقريراً للموقف على وجه من الوجوه، فامتألت اسبدور المغفرة وأنخذت من وراء الفتنة ذريعة إلى العمل العاجل، وبدأ العمل على النحو الذي تفرقت فيه أقوال البقلة والرواة.

وهنا ينتهى دور التاريخ ويبدأ دور العقيدة.

فليس للتاريخ كلمة راسخة في حجر من الأحجار التي أعقبت حادثة الهيكل وحركت كهانه للبطش وانكابه.

ففى حادثة الاعتقال لا يدري متتبع الحوادث من اعتقله ومن دل عليه، وهل كان معروفاً من ديارته للهيكل أو كان مجهولاً لا يهتدى إليه بغير دليل.

وفى حادثة المحاكمة يجرى الخبر على أنه حوكم باسبل وصدر الحكم فى يوم واحد ويجرى نظام القضاء الموسوى على تحريم المحاكمة الليلية وإسقاط كل حكم يصدر فى قصاص الدم بعد جلسة واحدة فى يوم واحد، ولا ينفذ الحكم فى هذه القضايا إلا إذا صدر بالإجماع.

وفى حادثة التنفيذ يجرى الخبر على أنه قد تم على الرغم من إعلان الحاكم الرومانى براءة المحكوم عليه، ويقول إنجيل يوحنا إن تسليمه للتنفيذ كان فى نحو الساعة السادسة، ويقول إنجيل مرقس إنها كانت الساعة الثالثة فصليبه»

وقد بحث الأستاذ ريتشارد هرباند Husband في كتابه «محاكمة المسيح» تواريخ عدد الفصح في خمس سنوات من سنة سبع وعشرين إلى سنة ثلاث وثلاثين فحينئذ كان يوم خميس ستة ثلاثين، وكان يوم الجمعة سنة ثلاث وثلاثين والأخبار تحرى على أن المحاكمة والصلب حدث يوم الجمعة وأن تناول عشاء الفصح كان مساء خميس يوم هو السادس من شهر أبريل. أما السنوات الأخرى غير سنتي ثلاثين وثلاث وثلاثين فقد جاء العيد فيها يوم الأربعاء سنة سبع وعشرين ويوم الإثنين سنة ثمان وعشرين ويوم الأحد سنة تسع وعشرين ويوم الثلاثاء سنة إحدى وثلاثين ويوم الإثنين سنة اثنتين وثلاثين.

ومن الأخبار عن يوم النسيب أن الأرض زلزلت وأن القبور تفتحت وخرج منها القديسون يمشون بين الناس

وروى مقلة الأخبار أن القبر فتح في اليوم التالي فلم توجد فيه جثة. وإن السيد المسيح ظهر للتلاميذ مرات وقال لهم لما توهموا أنه طيف: «حسبوني واضطروا فإن الروح ليس له لحم وعظام»، «وسألهم أعددكم هنا طعام؟ فداؤوه جزءاً من سمك مشوى وشيئاً من شهد غسل فأنشدوا وأكل» (٢٤ لوقا)

وقد تناول هذا الموضوع طائفة من أقطاب العلم واللاهوت كسالفس شابن الإبحيلي Cheyne والأستاذ هيريك بولس Poulus أستاذ اللغات الشرقية بجامعة جينا والدكتور ويجال المختص بالدراسات الأثرية في مصر والشرق الأدنى والدكتور هوجو تول Tool السويدي وغيرهم من علماء الدين والدراسات التاريخية فذهبوا إلى الفقرة في أخبار هذه الفترة من وجهة لتاريخ وجهة الاعتقاد

ومن الأخبار التاريخية خبر لا يصح إعماله في هذا الصدد لأنه محض نظر كبير، وهو خبر الصريح الذي يوجد في طريق «حان بار» بعاصمة كشمير ويسمونه هناك صريح النبي أو صريح عيسى، وروى تاريخ الأعظمي الذي دور قبل مائتي سنة من الصريح لنبي اسمه «عوس اصناف» ويناقش أهل كشمير عن أبائهم أنه قدم إلى هذه البلاد قبل ألفي سنة، وينقل المولوى محمد عيسى في ترجمته القرآن الكريم عن كتاب عربي يسمى «إكمال الدين» محفوظ من ألف سنة عن اسم «عوس اصناف» مذكور فيه وفيه قال عنه أنه رحالة ساج في بلاد كثيرة، وإن كتاب «برلام ديو شافاط» في صفحة (١١١) يذكر عن عوس اصناف أنه صاحب «بشرى» وأنهم يحفظون مثلاً من مثاله في تعليمه يشبه مثل السيد المسيح عن الزارع والنبور.

ولقد أورد الملوكي محمد على هذا التعليق في تفسير الآية الكريمة

﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَائِمَةً آيَةً وَأَوْسَمْنَا إِلَى رَبِّهِ ذَٰلِكُمْ قَرَارٌ وَمَعِينٌ ﴾

(المؤمنون ٥)

وأورد تعليقاً بقرب منه في تفسير قوله تعالى

﴿ إِنِّي مُوَفِّيكُ وَرَأْفُكَ ﴾ (ل عمران ٥٥)

وغيرهما من الآيات القرآنية لتي تناولت حياة عيسى بن مريم عليه السلام

* * *

وبعد فهذا الكتاب معصور على عرض واحد، وهو جلاء العبقرية المسيحية في صورة عصرية، تفهمها الآن كما نفهم العبقريات على أقدارها وأسرارها وقد قل فيها نظير هذه العبقرية العالية في تواريخ الأزمان قاطبة ولا يرال هذا بغرض اعجيب مسجعاً للنوعية والتخيلة من نواح عدة فإن كتب لنا أن يوفق لربادة شيء إلى هذه النخبة النفسية، فذلك حسبي وكفى، ولا حاجة بنا في هذه الصفحات إلى إثارة الجدل في مسائل لا ترتبط بالمقصد الذي قصدناه وقصرنا الرسالة عليه.

ولا نستطيع كما أسلفنا أن نقرر على وجه التحقيق من الناحية التاريخية كيف كانت بهية السيرة المسحجة، ولكننا نستطيع أن نقرر على وجه التحقيق أنها انتهت في موعدها حيث أسلمها التاريخ إليها، فقد كان دست الحيل آخر جيل قدمت فيه نولة العصبية الدينية التي تحتكر هداية الله ورحمته لسلالة واحدة من أبناء آدم وحواء، وأول جيل عمت فيه الدعوة إلى هداية إلهية تحيط بكل من يهتدي من بني الإنسان، فلم تنقض أربعين سنة حتى تداعت ديانة الأثر العصبية ويداعي لهيكل أدنى اعتصمت به وتحسب فيه، ثم قامت للضمير الإنساني دعوة حياة نبسط نورها كما نبسط نور الشمس لكل ناظر وكل متطلع، ولحكم ما ألهم داعيها أن يتسمى كما تكلم عن نفسه بآبن الإنسان.

في الختام

لوعاد المسيح

في إحدى روايات الكاتب الروسي العظيم «دستوفسكي» نطل من أنطاكية
الرواية لتحيل أن السيد المسيح عاد إلى الأرض في طوفة عابرة وبرل بأشيلية
في إبان سطوة «المفتش» هو عظم الناس وصنع المعجزات وقيل عليه الضعاف
والمرضى والمجربون ياثمون قدميه ويسألونه العون والرحمة.

وإيه ليصصى بين الشعب يصصى عليهم حبه وحنانه ويبسطون له شكايابهم
ومخاوفهم إذ برئيس سيوان أتمتتش - المفتش الأعظم - بعبر الملكا وينام
السيد والشعب من حوله هنيهة ثم يشير إلى الحراس ويأمرهم أن يعقلوه ويودعوه
حجر السجناء في انتظار التحقيق.

ويأتى المساء فيذهب المفتش الأعظم إلى الحجرة ويقول للرسول الكريم إيسى
أعرفك ولا أجهلك، ولهذا حبستك لماذا جئت إلى هنا؟ لماذا تعصوها وتلقى
العثرات والعقبات في سبيلنا ؟

ثم يقول له فيما يقول إنك كلفت الناس ما لبست لهم به طاقة، كلفتهم حرية
الضمير ، كلفتهم مؤنة التمييز، كلفتهم أن يعرفوا الخير والشر لأنفسهم، كلفتهم
أنوع المسالك فلم يطبقوا، ما كلفتهم وشقيبت مساعيهم بما طلبت منهم...والآن وقد
عمرق بحر دأهم وأغفيناهم من ذلك الكلف، وأعدناهم إلى الشرائع
ولشعائير، تعود إلينا لتأخذ عينا سبيبا وتمدثهم من جديد بحديث الاحتيار
وحرية الضمير ؟

ليس أثقل على الإنسان من حمل الحرية، وليس أسعد منه حين يخف عنه
محملها ويبقى طائعا لمن يسلبه الحرية ويؤممه في الوقت نفسه انه قد أطلقها
له وفوض إليه الأمر في اعتقاده وعمله، فمادام تعصم الإنسان من حديد أن
يمنع عبثيه وأن يتطلع إلى المعرفة وأن يختار لنفسه ما يشاء، وهو لا يعلم ما
يشاء ؟

إنك متحتا السلطان قديما وليس لك أن تسرده، وليس في عزمنا أن نرل
عه، قد ع هذا الإنسان لنا و رجع من حيث أبيت، وإلا أسلمك لهذا الإنسان
عد، وسلصاه عنك وحاسبيك ثأناك وأحداك بمعجزاتك ولترين غدا هذا
الشعب ابنى لثم قدميت اليوم مقبلا عينا مديلا لن ن نخلصه منك وأن مديك
كما ندين الضحايا من المعبين والمجربين .

قل «إيهان كراموف» بصل الرواية لنى لتحيل هذا المتقى وهذا الحوار «إن
السيد المسيح لم يبدس بكلمه ولم يقابل هذا الوعيد وهذا العداء معوس

أو ازورار، ونقدم إلى المفتح الأعظم - وهو شيخ فارس في السبعين - فتم
شغفه وخرج إلى صلام المدينة وعاد عن الأنظار».

خلاصة ما تخيله الكاتب العظيم في خطاب طويل ممثو بحكمه الحياه كما
برها الحكماء، من الطرف الآخر الذي يقابل الحكمه المسيحية، حكمه الرسول
الكريم.

ولا نحب أن الخيال في هذا الحساب العجيب بعيد من الحقيقة ولا نستبعد
ما قاله المفتح الأعظم حين أنشأ الرسول الكريم أن يسلمه من بشور عليه ويصب
عليه الويل والعضب، بعد أن أحاط به ونظم قدميه وتوسل إليه.

كلاً. إن الخيال في ذلك الخطاب العجيب غير بعيد من الحقيقة وقرب شيء
إلى هبات الناس أن يصنعوا ذلك الصنيع وأن يصنعوا المفتح الأعظم في نعمته
على الرسول الكريم

وأقرب شيء أن يكون - لو عاد السيد المسيح إلى الأرض - أن يذكر الكثير
مما يعمل اليوم باسمه وأن يجد بين أتباعه كتبة وفريسيين يعني عليهم الرياء
ويعلمهم من جديد أن ليست للإنسان وليس الإنسان ليست، وأن العبرة بما في
الضمائر لا بما تعوه به الألسن ويسو على الوحوه، وأن الوحى الحى فى طوية
الإنسان لا فى طواي الكتب والأوراق.

أقرب شيء أن يكون أن ينهى على ابنس ما نعاه قبل ألف وتسعمائة سنة،
وأن يجد إنسان اليوم كإنسان الأمس فى شروره وعداوته، وفى نفاقه وشقاقه
وهى إغراضه عن اللاب وإقبله على الفشور، وفى استعلائه باستقوى حين يتقى،
ولجاجة فى الجحود والعدوان حين يجحد ويعتدى خمرأ جديدة مى رق قديم.
ذلك أقرب شيء أن يكون.

وأقرب شيء أن يقال إن طاف بالخاطر ذلك الخيال، أن يردد الإنسان قول
أبى العلاء .

تعب غير نافع واجتهاد لا يؤدى إلى غناء اجتهد

فهم يشقى المصلحون، وفهم يهت الشهداء؟ وفهم يأتى الأنبياء ويذهبون؟ وفهم
احتلفت الديوت وأصصرع عليها المتدينون؟ فم كل هذا؟ فهم جاءهم رسول بعد
رسول؟ وفهم توالى الناعون بعدهم بإحسان أو بغير إحسان؟

جاءوا وعانوا

وانصرفوا وبلاء باق ولم يزل دائفا المياء

لأن قيل هذا ليكون أقرب ما يقال بعد تلك الحقيقة التي حانت في صوره
الخيال.

وكن الحقيقة الكبرى التي تبرز بها جميع الحقائق هي أن الحقيقة لا ترى
من حاسب واحد، ولا سببها الحقيقة التي تحدث على الرمز في أحوال الإنسان
منذ كان، وتحدث معه أي يكون.

ليست حربة الضمير مطلباً محدود المسافة، يرحل إليه الإنسان، ثم يصل إليه
ويقعد عنه، ويكف بعده عن كل عناء.

أي حربة الضمير جهاد دائم وعمل دائم، يتقدم فيه الإنسان شوطاً بعد
شوط أو صفة فوق صفة، ولا يفرغ من جهاده يوماً إلا ليصير بعده إلى جهاد
مستأنف ولا يورع الشر في مرحلة من مراحلها إلا ليلفه ويجاهده، وإن يلفه في
سلام

ومطالبنا المحسوسة نهدينا إلى العياس لصحيح في هذه المشكلة وهي أولى
مأن ندركها من المطالب المحيية التي تعالج بالضمير وتبعثه إلى العمل مرة حيث
يرى مواقع خطوه ومرات حيث يبصر علا يرى غير الحجب والظلمات.

من ذا يقول إن عناء التعليم باطل إذا رأى الطفل يحمل الكتاب وهو في
الحامسة ورأه يحمله وهو في العاشرة، ورأه يحمله وهو في العشرين ثم في
الثلاثين، ثم رآه مدى الحياة لا يستغنى عن علم ولا يقصى على الجهل كل
القضاء.

من ذا يقول إن عناء الطب باطل إذا رأى الناس يمرضون بعد علمهم
بالجراثيم وبعد افتتاحهم في الطبابة ومواقع النواء وموانع الشفاء.

من ذا يقول إن العاية عبث لأن الطريق إليها طويل، أو لأنها غاية تتلوها غاية
بلا انقطاع ولا اكتفاء؟

لا نقول هذا في محسوساتنا التي نلمسها ونلمسها، فهل نقوله في غاية
كهرية الضمير هي سر الأسرار في حياة الإنسان منذ كان وأنى يكون؟

ليست العبرة أن الشر واقع ولكن العبرة كيف ينظر إليه وكيف يوقعه أو كيف
يقبه.

وإذا وقع اثنان في الشر، فليس الذي وقع فيه وهو مستريح إليه مستزيد منه،
كذي وقع فيه وهو مضطر إليه مادم عليه، وليس الذي وقع فيه وهو يعلمه

كالذي وقع فيه وهو يجهل، أو يقف منه موقف المغالطة بين العلم والجهل وبين
القصد والاضطرار،

إنما الإنسان غير الحيوان البهيم لأنه صاحب ضمير، وإنما يقاس ضمير
الإنسان بالقيم التي يقومها والمثل العليا التي يتمثلها، والمطالب التي يطلبها
وينالها أو لا ينالها، وما دام المصلحون والرسل يعلمون الإنسان قيمة يعطيها
ويرفعون أمامه مثلاً أعلى يتسامى إليه، فهم عاملون، وعملهم لازم، ونتيجته
محقة، وإن دام الشر ولم ينقص عدد الذنوب والجرائم بأرقام الإحصاء،

وإذا قلنا يوماً: إن الإنسان في هذا العصر يطلب الخير ولا يدركه، فقد قلنا
على اليقين إنه أفضل من الإنسان الذي كان لا يطلبه ولا يعرفه، وإن عمله غير
مطلوب وغير معروف، كما يعمل الحيوان البهيم.

إنما تقاس الأديان بما تودعه النفوس من القيم والخواطر، وبما تزيده من
نصيب الإنسان في حرية الضمير أو في حرية التمييز بين الحسن والقبيح، وقد
عملت الأديان كثيراً ولا تزال قادرة على العمل الكثير، ولكنها لن تغني الإنسان
يوماً عن جهاد الضمير.

كان جهلاء الناس فيما غير ينتظرون ألف سنة يعم فيها الخير وينقطع فيها
الشر ويمتنع الشقاء ولا يرى في العالم يومئذ غير سعداء أبناء سعداء.
وكان «العارفون» يقولون عن هؤلاء: إنهم جهلاء.

ولكن هؤلاء العارفين أجهل منهم إذا اعتقدوا أن ديناً من الأديان لم يعمل
عملاً، ولم يكن غير عبث من العبث، لأن الدنيا باقية فيها الشر، باقية فيها البغي،
باقية فيها الكفران.

أي فرق بين العارفين الذين ينتظرون من الدين دنياً لا تعاب وبين الجاهلين
الذين أنتظروا السعادة المطلقة في «الألفية» الموعودة آخر الزمان، بعد قرون تعد
بالعشرات أو بالمئات؟

لعل هؤلاء الجاهلين أقرب إلى التقدير الصحيح من أولئك العارفين، لأنهم
يفكرون وينتظرون «الألفية»، وقد انتظروا الجاهلون بغير تفكير!

لو عاد السيد المسيح اليوم لوجد كثيراً يصنعه ويعيد صنعه، ولصنع كثيراً
بين أتباعه ومن يعملون باسمه ويتواصون بوصاياه، ولكن الدنيا التي يصنع
فيها الهداة صنيعاً كثيراً خير من الدنيا التي لا موضع فيها لصنيع الهداة
وجهاد الضمير.

ولن يختم المسيح العائد إلى الدنيا رسالة الخير والهداية، فتلك هي شوط الضمير الذي لا ختام له، وهو الغاية وراء كل ختام.

وسيعلم الناس في العصر الحديث - إن لم يكونوا قد علموا حتى اليوم - أن عقيدة الإنسان شيء لا يثنيه من الخارج فيقبله مرضاة للداعي أو ممتناً عليه، ولكنها هي ضميره وقوام حياته الباطنية يصلحه، إن احتاج إلى الإصلاح، كما يصلح بدنه عند الطبيب وهو لا يمتن عليه ولا يرى أنه عالج نفسه لمرضاته. فالعقيدة مسألة الإنسان، لا شأن للأنبياء بها إلا لأنها مسألة الإنسان، وعليه إذا عالج إصلاحه أن يعالجها كما يعالج جزءاً من نفسه بل كما يعالج قوام نفسه ولا يعالجها كأنها بضاعة يردّها إلى صاحبها ويفرغ من أمرها، فلا فراغ من أمر العقيدة إلى آخر الزمان.

الفهرس

٢ مقدمة
٥ التجره للمباركة
٧ الباب الأول: كشف وادى القعران
٨ فى وادى القعران
١٣ تفسيرات من فلسفة لتاريخ
١٩ رد وتعقيب
٢١ الباب الثانى: المسيح فى التاريخ
٢٢ للمسيح
٢٥ النبوة بين بنى إسرائيل
٢٩ الطوائف اليهودية فى عصر الميلاد
٤١ الحالة السياسية والاجتماعية فى عصر الميلاد
٤٨ الحياة الدينية فى لعالم فى عصر الميلاد
٥٢ الحياة الفكرية فى عصر الميلاد
٦٣ الباب الثالث: تاريخ الميلاد
٦٤ لرض الجليل
٦٨ متى ولد المسيح
٧٩ صورة وصفية
٨٥ الباب الرابع: الدعوة
٨٦ دعوة المسيحية
٩١ اختيار القبلة
٩٤ محارب الدعوة
٩٨ الشريعة
١٠٤ شريعة الحب
١١١ آداب حيلة
١١٧ ملكوت السماوات
١٢٥ الباب الخامس: أدوات الدعوة
١٢٦ قدرة المعلم
١٣٤ إخلاص التلاميذ
١٤٣ الباب السادس: الأناجيل
١٤٤ الإنجيل
١٤٨ شراح الأناجيل
١٦١ قسم المختص: لوهاد المسيح

مؤلفات عماد الدين الأديب العربي

الكاتب الكبير

عباس محمود العقاد

- | | | |
|---|--------------------------------------|---|
| ١ - الله . | ٢٧ - سورة . | ٥٢ - وميلت (الجزء الأول) . |
| ٢ - إبراهيم أبو الأنبياء . | ٢٨ - الإسلام دعوة عالمية . | ٥٤ - يوميات (الجزء الثاني) . |
| ٣ - مطامع النور أو طوابع البحث المحمدية . | ٢٩ - الإسلام في القرن العشرين . | ٥٥ - عالم السدود والقيود . |
| ٤ - حبقرية محمد ﷺ . | ٣٠ - ميلال عن الإسلام . | ٥٦ - مع عامل الحرية العربية . |
| ٥ - حبقرية عمر . | ٣١ - حقائق الإسلام والميلال بحسبه . | ٥٧ - مواقف وقضايا في الأدب والفلسفة . |
| ٦ - حبقرية الإمام علي بن أبي طالب . | ٣٢ - التفكير فريضة إسلامية . | ٥٨ - دراسات في الجانب الأدبي والاجتماعي . |
| ٧ - حبقرية خالد . | ٣٣ - الفلسفة القرآنية . | ٥٩ - آراء في الأدب والفنون . |
| ٨ - حياة المسيح . | ٣٤ - الديمقراطية في الإسلام . | ٦٠ - بحوث في اللغة والأدب . |
| ٩ - ذو النورين عثمان بن عفان . | ٣٥ - أثر العرب في الحضارة الأوربية . | ٦١ - نوازل في الفن والفلسفة . |
| ١٠ - عمرو بن العاص . | ٣٦ - الثقافة العربية . | ٦٢ - فنون وشجون . |
| ١١ - معاوية بن أبي سفيان . | ٣٧ - اللغة الشاعرة . | ٦٤ - قيم ومعايير . |
| ١٢ - داعي السماء بلال بن رباح . | ٣٨ - شعراء مصر ويثنتهم . | ٦٥ - الدعوات في الأدب والتفكير . |
| ١٣ - أبو الشهداء الحسين بن علي . | ٣٩ - لثبات مجتمعات في اللغة والأدب . | ٦٦ - حياة الفهم . |
| ١٤ - لائحة الزهاد والفاطميون . | ٤٠ - حياة فلم . | ٦٧ - ردود وحلود . |
| ١٥ - هذه الشجرة . | ٤١ - خلاصة النبوية والفكر . | ٦٨ - ديوان يقطعة الصباح . |
| ١٦ - إيليس . | ٤٢ - مذبح نوى العاهات . | ٦٩ - ديوان وضع نظيرة . |
| ١٧ - جحا الصاحبات المضحكات . | ٤٣ - لا شيوخية ولا استعمار . | ٧٠ - ديوان تشيخ الأصيل . |
| ١٨ - أبو نواس . | ٤٤ - الشيوعية والإنسانية . | ٧١ - ديوان وحى الأديب . |
| ١٩ - الإنسان في القرن . | ٤٥ - الصهيونية العالمية . | ٧٢ - ديوان هدية الكروان . |
| ٢٠ - المرأة في القرنين . | ٤٦ - أسوان . | ٧٣ - ديوان عالم صليل . |
| ٢١ - عمق الإصلاح وتعليم الإمام محمد عبد . | ٤٧ - أنا . | ٧٤ - ديوان أحاسير مغرب . |
| ٢٢ - سمد وعلوك زعيم الثورة . | ٤٨ - حبقرية تصديق . | ٧٥ - ديوان بعد الأحاسير . |
| ٢٣ - روح عظيم الهاكنا غلدي . | ٤٩ - لصدقة بنت الصديق . | ٧٦ - ديوان حرائر وشياطين . |
| ٢٤ - عبدالمحسن الكواكبي . | ٥٠ - الإسلام والحضارة الإنسانية . | ٧٧ - ديوان أشجان الليل . |
| ٢٥ - رجعة أبي لعل . | ٥١ - مجموع الأحبال . | ٧٨ - ديوان من دواوين . |
| ٢٦ - رجاء حرقهم . | ٥٢ - الحكم الملائكي . | ٧٩ - حلق في المليون . |
| | | ٨٠ - الميون الشعبي . |
| | | ٨١ - القرن العشرين ما كان وما سيكون . |
| | | ٨٢ - المأزق والأجبال . |

احصل على أي من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / CD)

ونتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع www.enahda.com

